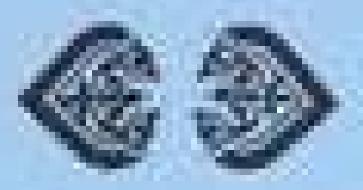


التصوير الفني في القرآن



سيد قطب

دار الشروق

التصوير الفني
في القرآن

الطبعة الشرعية العاشرة
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

الطبعة الشرعية الحادية عشرة
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

الطبعة الشرعية الثانية عشرة
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

الطبعة الشرعية الثالثة عشرة
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

الطبعة الشرعية الرابعة عشرة
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

الطبعة الشرعية الخامسة عشرة
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

الطبعة الشرعية السادسة عشرة
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

الطبعة الشرعية السابعة عشرة
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى
رابعة العدوية - مدينة نصر - ص . ب : ٣٣ البانوراما
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk.com

سيّد قطب

التصوير الفنيّ في القرآن

دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إليك يا أماه ، أرفع هذا الكتاب .

لطالما تسمَّعتِ من وراء «الشيش» في القرية ، للقراء يرتلون في دارنا القرآن ، طوال شهر رمضان . وأنا معك ـ أحاول أن ألغو كالأطفال ـ فتردني منك إشارة حازمة ، وهمسة حاسمة ؛ فأنصت معك إلى الترتيل ، وتشرب نفسي موسيقاه . وإن لم أفهم بعد معناه .

وحينما نشأتُ بين يديك ، بعثتِ بي إلى المدرسة الأولية في القرية ، وأولى أمانيكِ أن يفتح الله عليَّ ، فأحفظ القرآن ؛ وأن يرزقني الصوت الرَّخيم ، فأرتِّله لكِ كل آن . ثم عدلتِ بي عن هذا الطريق في النهاية إلى الطريق الجديد الذي أسلكه الآن ؛ بعد ما تحقق لك شطر من أمانيك ، فحفظتُ القرآن !

ولقد رَحَلتِ عنا ـ يا أماه ـ وآخر صورك الشاخصة في خيالي ، جِلستك في الدار أمام المذياع . تستمعين للترتيل الجميل ؛ ويبدو في قسمات وجهك النبيل أنك تدركين ـ بقلبك الكبير ، وحسّك البصير ـ مراميه وخفاياه .

فإليكِ يا أماه . ثمرة توجيهك الطويل . لطفلك الصغير . ولفتاك الكبير . ولئن كان قد فاته جمال الترتيل ، فعسى ألا يكون قد فاته جمال التأويل . والله يرعاكِ عنده ويرعاه .

ابنك

سيد

لقد وجدت القرآن!

لهذا الكتاب في نفسي قصة .

ولقد كان من حقي أن أحتفظ بهذه القصة لنفسي ، ما ظلّ هذا الكتاب خاطراً في ضميري . أما وقد أخذ طريقه إلى المطبعة ؛ فإن قصته لم تعد ملكاً لي ، ولا خاصة بي .

لقد قرأت القرآن وأنا طفل صغير ، لا ترقى مداركي إلى آفاق معانيه ، ولا يحيط فهمي بجليل أغراضه . ولكنني كنت أجد في نفسي منه شيئاً .

لقد كان خيالي الساذج الصغير ، يجسّم لي بعض الصور من خلال تعبير القرآن . وإنها لصور ساذجة ، ولكنها كانت تشوق نفسي وتلذ حسي ، فأظل فترة غير قصيرة أتملاها ، وأنا بها فرح ، ولها نشيط .

من الصور الساذجة التي كانت ترتسم في خيالي إذ ذاك صورة كانت تتمثل لي كلما قرأت هذه الآية :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبد اللهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ، فإنْ أصابَهُ خَيْر اطْمَأَنَّ بِهِ ، وإنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ، خَسِرَ الدُّنْيا والآخِرَة ﴾ .

ولا يضحك أحد ، حينما أطلعه على هذه الصورة في خيالي :

لقد كان يَشْخُص في مخيّلتي رجل قائم على حافة مكان مرتفع : مصطبة — فقد كنت في القرية — أو قمة تل ضيقة — فقد رأيت التل المجاور للوادي — وهو قائم يصلي ؛ ولكنه لا يملك موقفه ، فهو يتأرجح في كل حركة ، ويهم بالسقوط وأنا بإزائه ، أتتبع حركاته ، في لذة وشغف عجيبين !

ومن تلك الصور الساذجة صورة كانت تتمثل لي كلما قرأت هذه الآية :

﴿ واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبأ الَّذي آتيْناه آياتنا فَانْسَلَخَ مِنها ، فَأَتْبَعَهُ الشَّيطانُ ،

فَكَانَ مِنَ الغاوِين . ولَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها ؛ ولٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إلى الأَرْضِ واتَّبَعَ هَوَاهُ . فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكلب : إنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ ، أو تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴾ .

لم أكن أدرك من معاني هذه الآية شيئاً ولا من مراميها . ولكن صورة كانت تشخص في مخيلتي . صورة رجل ، فاغر الفم ، متدلي اللسان ، يلهث ويلهث في غير انقطاع . وأنا بإزائه ، لا أحوّل نظري عنه ، ولا أفهم لِمَ يلهث ، ولا أجرؤ على الدنوّ منه !

وصور من هذه شتى ، كانت ترتسم لخيالي الصغير ؛ وكنت ألتذ التأمل فيها ، وأشتاق قراءة القرآن من أجلها ، وأبحث عنها ـ كلما قرأت ـ في ثناياه .

* * *

تلك أيام ... ولقد مضت بذكرياتها الحلوة ، وبخيالاتها الساذجة . ثم تلتها أيام ؛ ودخلتُ المعاهد العلمية ؛ فقرأت تفسير القرآن في كتب التفسير ، وسمعت تفسيره من الأساتذة . ولكنني لم أجد فيما أقرأ أو أسمع ذلك القرآن اللذيذ الجميل ، الذي كنت أجده في الطفولة والصبا .

وا أسفاه ! لقد طُمِستْ كلُّ معالم الجمال فيه ؛ وخلا من اللذة والتشويق .

تُرى هما قرآنان ؟ قرآن الطفولة العذب الميسَّر المشوّق ؛ وقرآن الشباب العسر المعقد الممزَّق ؟ أم إنها جناية الطريقة المتبعة في التفسير ؟ .

وعدت إلى القرآن أقرؤه في المصحف لا في كتب التفسير . وعدت أجد قرآني الجميل الحبيب ؛ وأجد صوري المشوّقة اللذيذة . إنها ليست في سذاجتها التي كانت هناك . لقد تغيَّر فهمي لها ، فعدت الآن أجد مراميها وأغراضها ، وأعرف أنها مثل يضرب ، لا حادث يقع .

ولكن سحرها ما يزال . وجاذبيتها ما تزال .

الحمد لله . لقد وجدت القرآن !

* * *

وخطر لي أن أعرض للناس بعض النماذج مما أجده في القرآن من صور ؛ ففعلت ، ونشرت بحثاً في مجلّة المقتطف عام ١٩٣٩ تحت عنوان :

« التصوير الفني في القرآن » . تناولت فيه عدة صور فأثبتُّها ؛ وكشفت عما فيها من جمال فني ، وبيَّنت القدرة القادرة التي تصوّر بالألفاظ المجردة ، ما تعجز عن تصويره الريشة الملوَّنة ، والعدسة المشخصة . وقلت : إن هذا البحث يصلح أن يكون موضوعاً لرسالة جامعية .

* * *

ومرت السنوات ، وصور القرآن تخايل لي ؛ وتتراءى فيها آثار الإعجاز الفني . وكلما عدت إليها قوي في نفسي أن أتولى البحث الذي تركته فلم يحاوله أحد ، وأن أكمله وأتوسع فيه . وظللت أعكف على القرآن بين الحين والحين ، أتملى صوره الفريدة ، فتزداد فكرة البحث في نفسي رسوخاً ؛ ثم تشغلني عنه الشواغل ، فيرتد أمنية في الضمير ، ورغبة في الشعور .

إلى أن شاء الله أن أتوفر عليه في هذا العام .

* * *

لقد بدأت البحث ومرجعي الأول فيه هو المصحف ، لأجمع الصور الفنية في القرآن ، وأستعرضها ، وأبين طريقة التصوير فيها ، والتناسق الفني في إخراجها ـ إذ كان همي كله موجهاً إلى الجانب الفني الخالص ، دون التعرض للمباحث اللغوية أو الكلامية أو الفقهية أو سواها من مباحث القرآن المطروقة .

ولكن ماذا أرى ؟

إن حقيقة جديدة تبرز لي . أن الصور في القرآن ليست جزءاً منه يختلف عن سائره . إن التصوير هو قاعدة التعبير في هذا الكتاب الجميل . القاعدة الأساسية المتبعة في جميع الأغراض ـ فيما عدا غرض التشريع بطبيعة الحال ـ فليس البحث إذن عن صور تُجمَع وتُرتَّب . ولكن عن قاعدة تكشف وتبرز .

ذلك توفيق . لم أكن أتطلع إليه ، حتى التقيت به !

وعلى هذا الأساس قام البحث ؛ وكل ما فيه إنما هو عرض لهذه

القاعدة ، وتشريح لظواهرها ، وكشف عن هذه الخاصية التي لم يتعرض من قبل لها .

* * *

وحين انتهيت من التحضير للبحث . وجدتني أشهد في نفسي مولد القرآن من جديد . لقد وجدته كما لم أعهده من قبل أبداً . لقد كان القرآن جميلاً في نفسي . نعم . ولكن جماله كان أجزاء وتفاريق . أما اليوم فهو عندي جملة موحدة ، تقوم على قاعدة خاصة ، قاعدة فيها من التناسق العجيب ، ما لم أكن أحلم من قبل به ، وما لا أظن أحداً تصوره .

فلئن كنت قد وفقت في نقل هذه الصورة كما أراها في نفسي ؛ وفي إبرازها للناس كما أحسها في ضميري ، فليكونن هذا ـ بلا شك ـ نجاحاً كاملاً لهذا الكتاب .

سيد قطب

سحر القرآن

سحر القرآن العرب منذ اللحظة الأولى ، سواء منهم في ذلك من شرح الله صدره للإسلام ، ومن جعل على بصره منهم غشاوة . وإذا تجاوزنا عن النفر القليل الذين كانت شخصية محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحدها هي داعيتهم إلى الإيمان في أول الأمر ، كزوجه خديجة ، وصديقه أبي بكر ، وابن عمه علي ، ومولاه زيد ، وأمثالهم ، فإننا نجد القرآن كان العامل الحاسم ، أو أحد العوامل الحاسمة ، في إيمان مَن آمَنوا أوائل أيام الدعوة ، يوم لم يكن لمحمد حَوْل ولا طَوْل ، ويوم لم يكن للإسلام قوَّة ولا منعة .

وقصَّة إيمان عمر بن الخطاب ، وقصَّة توَلِّي الوليد بن المغيرة ، نموذجان من قصص كثيرة للإيمان والتولِّي ؛ وكلتاهما تكشفان عن هذا السحر القرآني الذي أخذ العرب منذ اللحظة الأولى ؛ وتُبيِّنان ـ في اتجاهين مختلفين ـ عن مدى هذا السحر القاهر ، الذي يستوي في الإقرار به المؤمنون والكافرون .

فأما قصة إيمان عمر ففيها روايات كثيرة :

منها رواية لعطاء ومجاهد نقلها ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي نجيح تذكر أن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال : « كنت للإسلام مباعداً ، وكنت صاحب خمر في الجاهلية أحبها وأشربها ، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش ... فخرجت أريد جلسائي

أولئك ، فلم أجد منهم أحداً ، فقلت : لو أنني جئت فلاناً الخمار ! وخرجت فجئته ، فلم أجده ، قلت : لو أنني جئت الكعبة فطفت بها سبعاً أو سبعين ! فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة ، فإذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائم يصلي ؛ وكان إذا صلىَّ استقبل الشام ، وجعل الكعبة بينه وبين الشام ، واتخذ مكانه بين الركنين : الركن الأسود ، والركن اليماني . فقلت حين رأيته : والله لو أني استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول ! وقام بنفسي أنني لو دنوت منه أسمع لأروّعنّه ، فجئت من قِبَل الحجر ، فدخلت تحت ثيابها ، ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة . فلما سمعت القرآن رقَّ له قلبي فبكيت ، ودخلني الإسلام » .

ومنها رواية لابن إسحاق تقول ما ملخصه : إن عمر خرج متوشحاً بسيفه يريد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورهطاً من أصحابه قد اجتمعوا في بيت عند الصّفا ، وهم قريب من أربعين بين رجال ونساء .

وفي الطريق لقيه نعيم بن عبد الله فسأله عن وجهته ، فأخبره بغرضه ، فحذره بني عبد مناف ، ودعاه أن يرجع إلى بعض أهله : ختنه سعيد بن زيد بن عمرو ، وأخته فاطمة بنت الخطاب زوج سعيد ، فقد صبآ عن دينهما .

فذهب إليهما عمر ، وهناك سمع خبّاباً يتلو عليهما القرآن ، فاقتحم الباب ، وبطش بختنه سعيد ، وشجَّ أخته فاطمة ... ثم أخذ الصحيفة بعد حوار ، وفيها سورة طه ، فلما قرأ صدراً منها قال : «ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ! » . ثم ذهب إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأعلن إسلامه . فكبَّر النبي تكبيرة عرف

أهل البيت من أصحابه أن عمر قد أسلم[١] .

وكل الروايات تجمع على أنه سمع أو قرأ شيئاً من القرآن ، فكان هذا داعيه إلى الإسلام . ومن التّعمل الذي لا داعي له أن نغض النظر عن العوامل النفسية الأخرى في تاريخ عمر ، ولكن هذه العوامل لا تنفي أنه كان لسحر القرآن ، ذلك الأثر الحاسم في الإسراع به إلى الإسلام .

تلك قصة إيمان عمر بن الخطاب . فأمّا قصة تولّي الوليد بن المغيرة ، ففيها روايات كثيرة ملخصها :

إن الوليد بن المغيرة سمع شيئاً من القرآن الكريم فكأنما رقَّ له فقالت قريش : صبأ والله الوليد ، ولتصبونَّ قريش كلهم . فأوفدوا إليه أبا جهل يثير كبرياءه واعتزازه بنسبه وماله ويطلب إليه أن يقول في القرآن قولاً يعلم به قومه أنه له كاره . قال : « فماذا أقول فيه ؟ فوالله ما منكم رجل أعلم مني بالشعر ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن . والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا . والله : إن لقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليحطم ما تحته ، وإنه ليعلو وما يعلى » . قال أبو جهل : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه . قال : فدعني أفكّر فيه . فلما فكّر قال : إن هذا إلا سحر يؤثر . أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله ومواليه[٢] ؟

وفي ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ إنَّه فكَّرَ وقَدَّرَ ، فَقُتِلَ كيفَ قـدر ؟ ثم قُتِلَ ! كيفَ قَدَّر ؟

---

(١) عن السيرة لابن هشام .

(٢) عن السيرة لابن هشام ، وتفسير ابن كثير من روايات متعددة .

ثمَّ نَظَرَ ، ثم عَبَسَ وبَسَرَ ، ثم أَدْبَرَ واسْتَكْبَرَ ، فقال : إنْ هَذا إلاَّ سِحْرٌ يُؤثرُ ﴾ .

سحر يؤثر ، يفرّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه .. تلك قَوْلَةُ رجل يتقاعس عن الإسلام ، ويتكبر أن يسلم لمحمد ، ويعتز بنسبه وماله وولده . وليست قَوْلَةَ رجل آمن ، فهو يعلل إيمانه بهذا السحر الذي لا يغالب ! وإنها لأدلّ على «سحر القرآن» للعرب ، من كل كلام يقوله المؤمنون ، لأنها لا تقال ولدَى قائلها حيلة للسكوت عنها ، أو مفرّ من الاعتراف بها !

ومن هنا تلتقي قصة الكفر بقصة الايمان ، في الإقرار بسحر هذا القرآن ؛ وتلتقي على الإقرار به شخصيتان قويتان ، بينهما من المدى في الاختلاف ما بين عمر بن الخطاب والوليد بن المغيرة . فتشرح التقوى صدرَ عمر للإسلام ، وتصد الكبرياء الوليدَ عن الإذعان ؛ ويذهبان في طريقيهما متدابرين ، بعد أن يلتقيا في نقطة واحدة : نقطة الإقرار بسحر القرآن .

* * *

ولا يقل عن هاتين القصتين في الدلالة على هذا السحر ما حكاه القرآن عن قول بعض الكفار : «لا تسمعوا لهذا القرآن والغوْا فيه لعلكم تغلبون» . فإن هذا ليدل على الذعر الذي كان يضطرب في نفوسهم ، من تأثير هذا القرآن فيهم وفي أتباعهم ، وهم يرون هؤلاء الأتباع يسحرون بين عشية وضحاها من تأثير الآية والآيتين ، والسورة والسورتين ، يتلوهما محمد أو أحد أتباعه السابقين ، فتنقاد إليهم النفوس ، وتهوي إليهم الأفئدة ، ويُهرع إليهم المتقون .

ولم يقل رؤساء قريش لأتباعهم وأشياعهم هذه المقالة ، وهم في نجوة من سحر القرآن . فلولا أنهم أحسّوا في أعماقهم هزّة روّعتهم ، ما أمروا أتباعهم هذا الأمر ، وما أشاعوا في قومهم بهذا التحذير ، الذي هو أدلّ من كل قول على عمق التأثير !

وقد قالوا في لجاجة الإنكار كما حكى عنهم القرآن : «أساطيرُ الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بُكرَةً وأصيلاً» .

وقالوا : «قد سمعنا ، لو نشاء لقلنا مثل هذا . إن هذا إلا أساطيرُ الأولين» . وقالوا : «أضْغاثُ أحلام . بل افترَاهُ . بلْ هو شاعرٌ» .

فتحدّاهم مرة ومرة : «قل فأتوا بعشر سُوَر مثله مفتريات» .. «قل فأتوا بسورة مثله» ... ولكنهم لم يأتوا بعشر سور ولا بسورة مفردة ! ولم يحاولوا هذه المحاولة أصلاً ، إلا ما قيل من محاولة بعض المتنبئين بعد محمد ، وليس هذا من الجد في شيء ، ولا يجوز أن يحسب له في هذا المجال حساب . أما الرأي القائل بصرفهم عن المحاولة فليس له وزن يقام !

* * *

ولعل من تمام القول في هذا الفصل ، أن نثبت بعض السور التي وردت في القرآن لتأثيره في نفوس بعض الذين أوتوا العلم من قبله ، وبعض الذين صغت قلوبهم إليه .

جاء في صدد الحديث عن اليهود والنصارى :

﴿ لَتجِدَنَّ أشَدَّ الناس عَدَاوَةً للَّذينَ آمَنوا اليهود والذينَ أشركوا ، ولَتجِدَنَّ أقرَبهمْ مودَّةً للَّذينَ آمَنوا الذينَ قالوا : إنَّا نَصَارَىٰ ، ذٰلكَ

بأنَّ مِنهُم قسِّيسينَ وَرُهْباناً ، وأنهمْ لا يَسْتكْبِرونَ ، وَإذا سَمِعوا مَا أُنْزِل إلى الرَّسُولِ ترَى أَعْيُنهمْ تَفيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفوا مِنَ الحَقِّ . يَقُولونَ : رَبَّنا آمنا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدينَ ﴾ .

فتلك صورة من صور التأثر الوجداني لسماع القرآن . وإن أعينهم لتفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، وإن للطريقة التي يعرض بها هذا الحق لأثراً لا شك فيه ، يفصح عنه ما ورد في موضع آخر :

﴿ إنَّ الَّذينَ أُوتُوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إذا يُتْلىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقان سُجَّداً ، ويقولونَ : سُبْحانَ ربنا . إنْ كانَ وَعدُ ربِّنا لمفْعولاً ، ويَخِرُّونَ للأَذْقانِ يَبْكونَ ، ويزيدهم خُشوعاً ﴾ .

وكذلك هذه الصورة عن « الذين يخشون ربهم » :

﴿ الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث كِتاباً مُتشابِهاً مَثانيَ تَقْشَعِرُّ منه جُلودُ الذينَ يخشونَ ربهم ، ثم تلينُ جُلودهُم وقلوبهُم إلى ذكر الله ﴾ .

هكذا : « تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم » . « يخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً » . « ترى أعينهم تفيض من الدمع » ... فهو التأثير الذي يلمس الوجدان ، ويحرّك المشاعر ، ويفيض الدموع . يسمعه الذين تهيأوا للإيمان ، فيسارعون إليه خاشعين ، ويسمعه الذين يستكبرون عن الإذعان ، فيقولون « إن هذا إلا سحر مبين » ، أو يقولون : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوْا فيه لعلكم تَغلبون » . فيقرون بالإعجاز الغلاب من حيث لا يشعرون ، أو يشعرون !

منبع السحر في القرآن

كيف استحوذ القرآن على العرب هذا الاستحواذ ؟ وكيف اجتمع على الإقرار بسحره المؤمنون والكافرون سواء ؟

بعض الباحثين في مزايا القرآن ، ينظر إلى القرآن جملة ثم يجيب ؛ وبعضهم يذكر غير النسق الفني للقرآن أسباباً أخرى يستمدها من موضوعاته بعد أن صار كاملاً : من تشريع دقيق صالح لكل زمان ومكان ، ومن إخبار عن الغيب يتحقق بعد أعوام ، ومن علوم كونية في خلق الكون والإنسان .

ولكن البحث على هذا النحو إنما يثبت المزية للقرآن مكتملاً . فما القول في السور القلائل التي لا تشريع فيها ولا غيب ولا علوم ؛ ولا تجمع بطبيعة الحال كل المزايا المتفرقة في القرآن ؟ إن هذه السور القلائل قد سحر العرب بها منذ اللحظة الأولى ، وفي وقت لم يكن التشريع المحكم ، ولا الأغراض الكبرى ، هي التي تسترعي إحساسهم ، وتستحق منهم الإعجاب .

لا بد إذن أن تلك السور القلائل كانت تحتوي على العنصر الذي يسحر المستمعين ، ويستحوذ على المؤمنين والكافرين . وإذا حسب الأثر القرآني في إسلام المسلمين ، فهذه السور الأولى تفوز منه بالنصيب الأوفى ، مهما يكن عدد المسلمين من القلة في ذاك الأوان . ذلك أنهم إذ ذاك تأثَّروا بهذا القرآن وحده ـ على الأغلب ـ فآمنوا . أما الكثرة الكثيرة التي أسلمت بعد أن ظهر المسلمون ، وبعد أن غلب الدين ، فقد كان أمامها بجانب القرآن عوامل يتأثر بها من يسلمون ، كلٌ على طريقته ، وكل وما ركب في طبيعته .

ولم يكن القرآن وحده هو العامل الحاسم في إسلامهم ، كما كان ذلك أيام الدعوة الأولى . .

آمن بعضهم لأنهم تأثروا بأخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم وأخلاق صحابته رضوان الله عليهم .

وآمن بعضهم لأنهم وجدوا المسلمين يحتملون الأذى والضنك والعذاب ، ويتركون المال والأهل والأصحاب ، لينجوا بدينهم ، ويفرّوا به إلى ربهم .

وآمن بعضهم لأنهم وجدوا محمداً ـ ومعه قلّة ـ لا يغلبهم أحد ، وأن الله ناصرهم وحافظهم من كيد الكائدين .

وآمن بعضهم بعدما طبقت شريعة الإسلام فرأوا فيها من العدل والسماحة ما لم يروه من قبل في نظام .

وآمن غيرهم وغيرهم على طرائق شتى ، قد يكون السحر القرآني عنصراً من عناصرها ، ولكنه ليس العنصر الحاسم فيها ، كما كان في أيام الدعوة الأولى .

* * *

يجب إذن أن نبحث عن «منبع السحر في القرآن» قبل التشريع المحكم ، وقبل النبوءة الغيبية ، وقبل العلوم الكونية ، وقبل أن يصبح القرآن وحدة مكتملة تشمل هذا كله . فقليل القرآن الذي كان في أيام الدعوة الأولى كان مجرداً من هذه الأشياء التي جاءت فيما بعد ، وكان ـ مع ذلك ـ محتوياً على هذا النبع الأصيل الذي تذوقه العرب ، فقالوا : إن هذا إلا سحر يؤثر .

قصة تولي الوليد بن المغيرة واردة في سورة «المدّثّر» ـ وهي

السورة الثالثة غالباً في ترتيب النزول ـ سبقتها سورة « العلق » وسورة « المزَّمِّل » أو هي على العموم من السور الأولى في القرآن[1] .

فلننظر في هذه السور ـ على سبيل المثال ـ لنرى أي سحر كان فيها اضطرب له الوليد هذا الإضطراب .

إننا نقرأ الآيات المكية في هذه السور فلا نجد فيها تشريعاً محكماً ، ولا علوماً كونية ـ إلا إشارة خفيفة في السورة الأولى لخلق الإنسان من علق ـ ولا نجد إخباراً بالغيب يقع بعد سنين كالذي ورد في سورة « الروم » وهي السورة الرابعة والثمانون .

فأين هو السحر الذي تحدث عنه ابن المغيرة بعد التفكير والتقدير ؟

لا بد إذن أن السحر الذي عناه كان كامناً في مظهر آخر غير التشريع والغيبيات والعلوم الكونية . لا بد أنه كامن في صميم النسق القرآني ذاته ، لا في الموضوع الذي يتحدث عنه وحده . وإن لم نغفل ما في روحانية العقيدة الإسلامية وبساطتها من جاذبية .

فلننظر في السورة الأولى : « سورة العلق » إنها تضم خمس عشرة فاصلة قصيرة ، ربما يلوح في أول الأمر أنها تشبه « سجع الكهان » أو « حكمة السجاع » مما كان معروفاً عند العرب إذ ذاك .

ولكن العهد في هذه وتلك أنها جمل متناثرة ، لا رابط بينها ولا اتساق . فهل هذا هو الشأن في « سورة العلق » ؟

---

(١) اعتمدت في ترتيب سور القرآن على المصحف الأميري وعلى تفسير الطبري وعلى بعض أسباب التنزيل في مصادر أخرى ... ثم على ترجيحي الشخصي بين الروايات . وليس هناك يقين .

الجواب : لا ؛ فهذا نسق متساوق ، يربط فواصله تناسق داخلي دقيق :

« ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ، كَلَّآ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّآهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ، إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ، أَرَأَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ عَبْداً إِذَا صَلَّىٰٓ ، أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰٓ ، أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ، أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ، أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ، كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ ، نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ، فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ، سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ، كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَٱقْتَرِبْ . »

هذه هي السورة الأولى في القرآن ، فناسب أن يستفتحها بالإقراء ، وباسم الله : الإقراء ، للقرآن ؛ واسم الله ، لأنه هو الذي يدعو باسمه إلى الدين . والله « رب » فالقراءة للتربية والتعليم : « اقرأ باسْم رَبك » .

وإنها لبدء للدعوة ، فليختر من صفات « الرب » صفته التي بها معنى البدء بالحياة : « الذي خلق » .. وليبدأ من الخلق بمرحلة أولية صغيرة : « خلق الإنسان من علق » . منشأ صغير حقير ، ولكن الرب الخالق كريم ، كريم جداً ! فقد رفع هذا العلق إلى إنسان كامل ، يُعَلَّم فيتعلَّم : « اقرأ وربك الأكرم ، الذي علَّمَ بالقلم ، علَّمَ الإنسان ما لم يَعلَم » .

وإنها لنقلة بعيدة بين ذلك المنشأ وهذا المصير . وهي تُصَوَّر هكذا مفاجأة بلا تدرج ، وتغفل المراحل التي توالت بين المنشأ

والمصير . لتلمس الوجدان الإنساني لمسة قوية في مجال الدعوة الدينية ، وفي مجال التأمُّلات الوجدانية .

ولقد كان المتوقع أن يعرف الإنسان هذا الفضل العظيم ، وأن يشعر بتلك النقلة البعيدة . ولكن : « كلا ! إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ! » . لقد برزت إذن صورة الإنسان الطاغي الذي نسي منشأه وأبطره الغنى ، فالتعقيب التهديدي السريع على بروز هذه الصورة هو : « إن إلى ربك الرُّجعى » .

فإذا رُدَّ الأمر إلى نصابه هكذا سريعاً ، لم يكن هناك ما يمنع من المضي في حديث الطغيان الإنساني ، وإكمال الصورة الأولى . إن هذا الإنسان الذي يطغى ، ليتجاوز بطغيانه نفسه إلى سواه : « أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلّى ؟ » أرأيت ؟ إنها لكبيرة ! وإنها لتبدو أكبر إذا كان هذا العبد على الهدى آمراً بالتقوى : « أرأيت إن كان على الهدى ، أو أمر بالتقوى ؟ » فما بال هذا المخلوق الإنساني غافلاً عن كل شيء غفلته عن نشأته ونقلته ؟ « أرأيت إن كذب وتولى . ألم يعلم بأن الله يرى ؟ » فالتهديد إذن يأتي في إبانه : « كلا ! لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية » . هكذا « لنسفعاً » بذلك اللفظ الشديد المصور بجرسه لمعناه . وإنه لأوقع من مرادفه : لنأخذنَّه بشدة . و« لنسفعاً بالناصية » صورة حسية للأخذ الشديد السريع ، ومن أعلى مكان يرفعه الطاغية المتكبر ، من مقدم الرأس المتشامخ . إنها ناصية تستحق السفع : « ناصية كاذبة خاطئة » . وإنها للحظة سفع وصرع ، فقد يخطر له أن يدعو من يعتز بهم من أهله وصحبه : « فليدع ناديه » ومن فيه ، أما نحن فإننا « سندعو الزبانيــة » . وهنا يخيل السياق للسامع صورة معركة بين المدعوين :

بين الزبانية وأهل ناديه ؛ وهي معركة تخييلية تشغل الحس والخيال ، ولكنها على هذا النحو معروفة المصير ! فلنترك لمصيرها المعروف ؛ وليمض صاحب الرسالة في رسالته ، غير متأثر بطغيان الطاغي وتكذيبه . « كلا ! لا تطعه . واسجد واقترب » .

هذا ابتداء قوي منذ اللحظة الأولى للدعوة . وهذه الفواصل التي تبدو في الظاهر متناثرة ، هي هكذا ـ من الداخل ـ متناسقة .

وهذا نسق من القرآن في السورة الأولى ، الشبيهة في ظاهرها بسجع الكهان ، أو حكمة السُّجاع .

فلننظر في السورة الثانية : وهي غالباً سورة المزمّل ـ وربما كانت قد سبقتها أوائل سورة « القلم » ـ فلعلها هي التي سمعها الوليد ابن المغيرة ، فقال قولته المشهورة :

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ والجِبالُ ، وكانَتِ الجبالُ كَثِيباً مَهِيلاً . إنَّا أرْسَلْنا إلَيْكُم رَسولاً شاهِداً عَلَيْكُمْ كما أرْسَلنا إلى فِرْعَونَ رَسولاً ؛ فَعَصَى فرعونُ الرَّسولَ ، فأَخَذْناهُ أَخْذاً وَبيلاً . فكَيْفَ تَتَّقون ـ إنْ كَفَرْتُمْ ـ يوماً يجعل الوِلْدان شيباً ، السماءُ مُنْفَطِرٌ به ؟ كانَ وعده مَفعولاً ، إنّ هذه تَذْكِرَةٌ ، فَمن شاءَ اتّخذَ إلى ربّهِ سبيلاً ﴾ .

فها هي ذي صورة للهول تتجاوز الإنسان ونفسه إلى الطبيعة كلها ، والإنسان من جملتها : « يوم ترجف الأرض والجبال ، وكانت الجبال كثيباً مهيلاً » فليتمل الخيال ـ إن استطاع ـ صورة ذلك الهول الذي ترتجف له الطبيعة في أكبر مجاليها : الأرض والجبال . وإنا لا نعرّضكم لهذا اليوم إلا بعد أن نرسل لكم رسولاً يحاول هدايتكم ، ويشهد عليكم : « إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم ،

كما أرسلنا إلى فرعون رسولا » وإنكم لتُدلون بقوّتكم ، فأين أنتم من فرعون في قوَّته ؟ « فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً » أفتريدون أن تؤخذوا إذن كما أخذ فرعون القوي ؟ وإذا انتهت هذه الدنيا « فكيف تتقون ـ إن كفرتم ـ يوماً يجعل الولدان شيباً ، السماء منفطرٌ به ؟ » إن صورة الهول هنا لتنفطر لها السماء ، ومن قبل ارتجفت لها الأرض والجبال ، وإنها لتشيب الولدان . وإنه لهول ترتسم صوره في الطبيعة الصامتة ، وفي الإنسانية الحيَّة . وعلى الخيال أن يتملى هذه الصور الشاخصة ؛ وإنه ليتملاها فيهتز لها الوجدان ؛ وإنه ليؤكدها تأكيداً : « كان وعده مفعـولاً » ، فلا شك فيه ، ولا مفرَّ منه ؛ وما هذا الإنذار إلا للذكرى : « إن هذه تذكرة ، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً » وإن السبيل إلى الله لآمن وأيسر ، من السبيل إلى هذا الهول العصيب !

* * *

أما قصة إيمان عمر . فالرواية المفصلة فيها تذكر أنه قرأ صدراً من سورة طه ، وهي السورة الخامسة والأربعون سبقتها سور : العلق ، والمزّمّل ، والمدّثر ، والقلم ، والفاتحة ، والمسد ، والتكوير ، والأعلى ، والليل ، والفجر ، والضحى ، والانشراح ، والعصر ، والعاديات ، والكوثر ، والتكاثر ، والماعون ، والكافرون ، والفيل ، والفلق ، والناس ، والإخلاص ، والنجم ، وعبس ، والقدر ، والشمس ، والبروج ، والتين ، وقريش ، والقارعة ، والقيامة ، والهمَزَة ، والمرسلات ، وقاف ، والبلد ، والطارق ، والقمر ، وصاد ، والأعراف ، والجن ، ويس ، والفرقان ، وفاطر ، ومريم . وهي جميعها سور مكية فيما عدا بعض الآيات المدنية .

فلننظر في هذه السور بالإجمال ـ فالنظر بالتفصيل فيها جميعاً غير مستطاع ، على النسق الذي اتَّبعناه في قصة تولي الوليد ـ لنرى أي سحر كان فيها ، استأثر بالسابقين الأولين الذين تابعوا محمداً ، حتى قبل أن يعتزّ الإسلام بعمر ، وقبل أن يجهر النبي بالدعوة في وضح النهار ، بعد التخفي والإسرار .

وإننا لننظر فلا نجد فيها جميعاً إلا القليل من تلك الأغراض التي يراها بعض الباحثين أكبر مزايا القرآن . إننا إذا استثنينا إشارة سريعة إلى خلق الإنسان من نطفة ، وتنويع الأشكال والألوان في سورة « فاطر » ، وخلق الإنسان « من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب » في سورة « الطارق » لا نجد علوماً كونية في جميع هذه السور على وجه الإجمال ؛ وكذلك لا نجد التشريع ؛ ولا نجد النبوءات .

ولكننا نجد في هذه السور ـ كما نجد في سواها من السور المكية والمدنية على السواء ـ مُثُلاً من ذلك الجمال الفني الذي ضربنا له الأمثال .

وإننا لنستطيع أن ندع ـ مؤقتاً ـ قداسة القرآن الدينية ، وأغراض الدعوة الإسلامية ، وأن نتجاوز حدود الزمان والمكان ؛ ونتخطى الأجيال والأزمان ، لنجد بعد ذلك كله هذا الجمال الفني الخالص ، عنصراً مستقلاً بجوهره ، خالداً في القرآن بذاته ، يتملاه الفن في عزلة عن جميع الملابسات والأغراض .

وإن هذا الجمال لَيُتملى وحده فيغنى ؛ ويُنظر في تساوقه مع الأغراض الدينية فيرتفع في التقدير .

فلننظر إذن كيف فهم الناس هذا الجمال على مدى الأجيال .

كيف فُهِمَ القرآن

لا نستطيع أن نجد في حديث العرب المعاصرين لنزول القرآن صورة معيَّنة لهذا الجمال الفني الذي سمّوه تارة شعراً ، وسموه تارة سحراً . وإن استطعنا أن نلمح فيه صورة لما مسَّهم منه من تأثير .

لقد تلقُّوه مسحورين ، يستوي في ذلك المؤمنون والكافرون : هؤلاء يسحرون فيؤمنون ، وهؤلاء يسحرون فيهربون . ثم يتحدث هؤلاء وهؤلاء عما مسَّهم منه ، فإذا هو حديث غامض ، لا يعطيك أكثر من صورة المسحور المبهور ، الذي لا يعلم موضع السحر فيما يسمع من هذا النظم العجيب ، وإن كان ليُحس منه في أعماقه هذا التأثير الغريب .

فهذا عمر بن الخطاب يقول في رواية : « فلما سمعت القرآن رقّ له قلبي فبكيت ودخلني الإسلام » ويقال عنه في رواية إنه قال : « ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ! » .

وهذا الوليد بن المغيرة يقول وهو كافر بمحمد وبالقرآن ؛ لا يتهم بحبه أو موالاته : « والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليحطم ما تحته ، وإنه يعلو وما يعلى » . ثم يقول : « ما هو إلا سحر يؤثر . أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟ » .

وهذا القرآن يصف أثره في نفوس المؤمنين به ، ونفوس الذين أوتوا العلم من قبله ، بأنه : « تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » .. و « إذا يتلى عليهم يخرون

للأذقان سجداً ، ويقولون : سبحان ربنا ، إن كان وعد ربنا لمفعولا ، ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً » .

وهؤلاء كفار قريش يقولون في لجاجة الإنكار : « أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً » ؛ ثم يعمد واحد منهم هو « النضر بن الحارث » إلى أساطير من قصص الأولين : قصص « اسفنديار ورستم » الفارسية الأصل ، فيتلوها على الناس في المسجد حينما يتلو محمد هذا القرآن ، ليصرفهم عن محمد وعن القرآن ، وإنهم لا ينصرفون . ثم ها هم أولاء كفار قريش لا يجدون في هذا كله جدوى ، فيقولون : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوْا فيه لعلكم تغلبون » !

هذا كله يقال ، وهذا كله يقع ، فلا تجد فيه صورة واضحة عن الجمال الفني في القرآن . فالقوم في شغل عن بيان هذه الصورة بما يتملونه منها في نفوسهم ، وما يحسونه منها في شعورهم . وهم حيارى مضطربون ، أو ملبون مهطعون .

وتلك مرحلة التذوق الفطري للفنون .

* * *

فإذا تجاوزنا عصر نزول القرآن ، رأينا بعض الصحابة يتعاطون تفسير القليل منه اعتماداً على القليل المنقول عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبعضهم يحاول في حذر وخشية أن يؤول بعض الآيات ، وبعضهم يمتنع من هذا خيفة أن يكون فيه مأثم ديني ، « كالذي روي عن سعيد بن المسيّب أنه كان إذا سئل عن شيء من القرآن قال : أنا لا أقول في القرآن شيئاً . وقال ابن سيرين : سألت عبيدة عن شيء من القرآن فقال : اتق الله ، وعليك بالسداد ، فقد ذهب

الذين يعلمون فيم أنزل القرآن » وعن هشام بن عروة بن الزبير قال : « ما سمعت أبي تأوّلَ آية من كتاب الله »[1] .

وهذا كله إن دلَّ على شيء ، فإنما يدلُّ ، إلى جانب التحرج الديني على مسّ السحر ، وروعة البهر ، وأمارات المفاجأة بهذا النسق المعجز ، إلى حد الدهش والاستسلام .

فلما كان عصر التابعين نما التفسير نموّاً مطرداً ، ولكنهم كانوا « يقتصرون في تفسير الآية على توضيح المعنى اللغوي الذي فهموه من الآية بأخصر لفظ ، مثل قولهم : « غير متجانف لإثم » أي غير متعرض لمعصية ، ومثل قولهم في قوله تعالى : « وأن تستقسموا بالأزلام » كان أهل الجاهلية إذا أراد أحدهم خروجاً أخذ قدحاً فقال : هذا يأمر بالخروج ، فإن خرج فهو مصيب في سفره خيراً ، ويأخذ قدحاً آخر فيقول : هذا يأمر بالمكوث ، فليس يصيب في سفره خيراً ، والمنيح بينهما . فنهى الله عن ذلك . فإن زادوا شيئاً فما رُوي من سبب نزول الآية . ثم زاد من بعدهم التوسع في أخبار اليهود والنصارى »[2] .

ثم أخذ التفسير ينمو ويتضخم ابتداءً من أواخر القرن الثاني ، ولكن بدلاً من أن يبحث عن الجمال الفني في القرآن أخذ يغرق في مباحث فقهية وجدلية ، ونحوية وصرفية ، وخلقية وفلسفية ، وتاريخيَّة وأسطورية . وبذلك ضاعت الفرصة التي كانت مهيّأة للمفسرين لرسم صورة واضحة للجمال الفني في القرآن .

---

(١) فجر الإسلام للدكتور أحمد أمين .

(٢) المصدر السابق .

رجل ـ متأخر نوعاً ـ كان يقع له بين الحين والحين شيء من التوفيق في إدراك بعض مواضع الجمال الفني في القرآن ، ـ هو الزمخشري ـ وذلك كقوله في تفسير : « ولما سكت عن موسى الغضب » : كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له : « قل لقومك كذا ، وألق الألواح ، وجر برأس أخيك إليك » . وهو توفيق ـ كما ترى ـ محدود ، ينقصه التبلور والوضوح . فإن أجمل ما في هذا التعبير هو « تشخيص » الغضب ، كأنه إنسان ، يقول ويسكت ، ويغري ويصمت ، فهذا « التشخيص » هو الذي جعل للتعبير جماله ، وهو الذي أدركه الزمخشري ، ثم لم يحكم التعبير عنه ، أو عبَّر عنه بلغة زمانه فلا تثريب عليه . وكقوله في تفسير سوة الفاتحة : « إن العبد إذا افتتح حمدَ مولاه الحقيق بالحمد عن قلب حاضر ونفس ذاكرة لما هو فيه بقوله : « الحمد لله » الدال على اختصاصه بالحمد ، وأنه حقيق به ، وجد من نفسه لا محالة محرّكاً للإقبال عليه . فإذا انتقل على نحو الافتتاح إلى قوله : « رب العالمين » الدال على أنه مالك للعالمين ، لا يخرج منهم شيء عن ملكوته وربوبيته ، قوي ذلك المحرك . ثم إذا انتقل إلى قوله : « الرحمن الرحيم » الدال على أنه منعم بأنواع النِّعَم جلائلها ودقائقها ، تضاعفت قوَّة ذلك المحرّك . ثم إذا انتقل إلى خاتمة هذه الصفات العظام ، وهي قوله : « مالك يوم الدين » الدال على أنه مالك للأمر كله يوم الجزاء ، تناهت قوَّته ، وأوجبَ الإقبال عليه ، وخطابه بتخصيصه بغاية الخضوع والاستعانة في المهمات : « إياك نعبد وإياك نستعين » ...

فهذا نوع من التوفيق في تصوير التناسق النفسي ، بين الأحاسيس

المتتابعة المنبعثة من تتابع الآيات . وهو لون من ألوان التناسق الأولية في القرآن .

ولقد حاول بعض المفسرين أن يعثروا على مواضع لهذا التناسق فلم يصلوا إلا للترابط المعنوي في بعض المواضع دون بعضها الآخر ودون الاهتداء إلى قاعدة شاملة . ثم إنهم في أحيان كثيرة تمحّلوا في ذلك تمحُّلاً شديداً .

* * *

بقي الباحثون في البلاغة وفي إعجاز القرآن ، وكان المنتظر أن يصل هؤلاء ـ وقد خُلِّي بينهم وبين البحث في صميم العمل الفني في القرآن ـ أن يصلوا إلى ما لم يصل إليه المفسرون . ولكنهم شغلوا أنفسهم بمباحث عقيمة حول « اللفظ والمعنى » أيهما تكمن فيه البلاغة ؛ ومنهم من غلبت عليه روح القواعد البلاغية ، فأفسد الجمال الكلي المنسّق ، أو انصرف عنه إلى التقسيم والتبويب ؛ ووصلوا في هذا وذلك في بعض الأحيان ، إلى درجة من الإسفاف لا تطاق .

فانظر إلى تعبير جميل كهذا التعبير : « ولو ترَى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم » . هذا التعبير الذي يرسم صورة حيَّة للخزي في يوم القيامة ، ويصوِّر هؤلاء المجرمين شخوصاً قائمة يتملاها الخيال ، وتكاد تبصرها العين لشدَّة وضوحها وتسجيل هيئتها « ناكسو رؤوسهم » وعند من ؟ « عند ربهم » فيخيِّل للسامع أنها حاضرة لا متخيَّلة .. هذه الصورة للهول لا تساوي من باحث في البلاغة إلا أن يقول : « وأصل الخطاب أن يكون لمعيَّن ، وقد يترك إلى غير معيَّن ، كما تقول : فلان لئيم إن أكرمته أهانك ،

وإن أحسنت إليه أساء إليك . فلا تريد مخاطباً بعينه ، بل تريد أن أكرمَ وأحسِنَ إليه ، فتخرجه في صورة الخطاب ليفيد العموم ، أي إن سوء معاملته غير مختص بواحد دون واحد . وهو في القرآن كثير كقوله تعالى : «ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم» أخرج في صورة الخطاب لما أريد العموم للقصد إلى تفظيع حالهم ، وأنها تناهت في الظهور حتى امتنع خفاؤها فلا تختص بها رؤية راء ، بل كل من يتأتى منه الرؤية داخل في هذا الخطاب» !

وبهذا تطوى تلك الصورة الفنية الحية ، وتنتهي إلى أن تكون «تفظيعاً لحالهم التي تناهت في الظهور» .

ثم انظر إلى تعبيرات مصوَّرة أخرى : «ونُفِخَ في الصُّور فصَعِقَ مَن في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى ، فإذا هم قيام ينظرون» . «ويوم نسيِّر الجبال وترى الأرض بارزة ، وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً» . «ونادى أصحاب النار أصحاب الجنَّة : أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ، قالوا : إن الله حرمهما على الكافرين» .

إن هذه الصور الشاخصة الحافلة بالحركة والحياة ، حتى لتتابعها العين والأذن والخيال . إن هذه الصور كلها لم تستحق من باحث في البلاغة إلا أن يقول : «التعبير عن المستقبل بلفظ المضيِّ تنبيهاً على تحقق وقوعه ، وأنَّ ما هو للوقوع كالواقع» !

فكل ما لفت نظره إذن هو الكلمات : «فصعق . وحشرناهم . ونادى» وبناؤها للماضي ، وكان الأصل أن تصاغ للمستقبل ، فعدل عن هذا تنبيهاً على تحقق الوقوع !

رجل واحد من الباحثين في البلاغة والإعجاز سابق للزمخشري

الذي ذكرناه هناك ، بلغ غاية التوفيق المقدر لباحث في عصره ، هو «عبد القاهر الجرجاني» . فلقد أوشك أن يصل إلى شيء كبير في كتابه «دلائل الإعجاز» لولا أن قصة «المعاني والألفاظ» ظلت تخايل له من أول الكتاب إلى آخره ، فصرفته عن كثير مما كان وشيكاً أن يصل إليه ؛ ولكنه على الرغم من ذلك كله كان أنفذ حسّاً من كل من كتبوا في هذا الباب على وجه العموم ، حتى في العصر الحديث !

وهذا مثال من توفيقاته التي كان موشكاً أن يصل فيها إلى شيء حاسم . ويجب أن يصبر القارئ على طريقة التعبير ، فقد كانت هذه الطريقة هي الزي الشائع في عصره ، وهي طريقة «الكلام» والمنطق ، بعد دخولها إلى لغة الأدب في ذلك الزمان :

«إن في الاستعارة ما لا يمكن بيانُه إلا من بعد العلم بالنظم ، والوقوف على حقيقته . ومن دقيق ذلك وخفيّه أنك ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى : «واشتعل الرأس شيباً» لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة ، ولم ينسبوا الشرف إلا إليها ، ولم يروا للمزية موجباً سواها ، هكذا ترى الأمر في ظاهر كلامهم ، وليس الأمر على ذلك ، ولا هذا الشرف العظيم ، ولا هذه المزية الجليلة ، وهذه الروعة التي تدخل على النفوس عند هذا الكلام لمجرد الاستعارة . ولكن لأن يُسلك بالكلام طريق ما يُسند الفعل فيه إلى شيء ، وهو لما هو من سببه ، فيُرفع به ما يسند إليه ، ويؤتى بالذي الفعل له في المعنى منصوباً بعده ، مبيناً أن ذلك الإسناد وتلك النسبة إلى ذلك الأول إنما كان من أجل هذا الثاني ، ولما بينه وبينه من الاتصال ، كقولهم طاب زيد نفساً ، وقرّ عمرو عيناً ، وتصبب عرقاً ، وكرم أصلاً ،

وحسن وجهاً ، وأشباه ذلك مما تجد الفعل فيه منقولاً عن الشيء إلى ما ذلك الشيء من سببه . وذلك أنا نعلم أن اشتعل للشيب في المعنى ، وإن كان هو للرأس في اللفظ ، كما أن طاب للنفس ، وقر للعين ، وتصبب للعرق ، وإن أسند إلى ما أسند إليه .

« يبين أن الشرف كان لأن سُلِك فيه هذا المسلك ، وتوخي به هذا المذهب ، أن تدع هذا الطريق فيه وتأخذ اللفظ فتسنده إلى الشيب صريحاً ، فتقول : اشتعل شيب الرأس ، والشيب في الرأس . ثم تنظر هل تجد ذلك الحسن ، وتلك الفخامة ؟ وهل ترى الروعة التي كنت تراها ؟ فإن قلت : فما السبب في أن كان « اشتعل » إذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له الفضل ، ولم بان بالمزية من الوجه الآخر هذه البينونة ؟ فإن السبب أنه يفيد مع لمعان الشيب في الرأس ، الذي هو أصل المعنى ، الشمول ، وأنه قد شاع فيه وأخذه من نواحيه ، وأنه قد استقرَّ به ، وعم جملته ، حتى لم يبق من السواد شيء ، أو لم يبق منه إلا ما لا يعتد به . وهذا ما لا يكون إذا قيل : اشتعل شيب الرأس ، أو الشيب في الرأس ، بل لا يوجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة ، ووزان ذلك أنك تقول : اشتعل البيت ناراً ، فيكون المعنى أن النار قد وقعت فيه وقوع الشمول ، وأنها قد استولت عليه وأخذت في طرفيه ووسطه ، وتقول : اشتعلت النار في البيت ، فلا يفيد ذلك ، بل لا يقتضي أكثر من وقوعها فيه وإصابتها جانباً منه ، فأما الشمول وأن تكون قد استولت على البيت وابتزته فلا يعقل من اللفظ البتة .

« ونظير هذا في التنزيل قوله عز وجل : «وفجرنا الأرض عيوناً » . التفجير للعيون في المعنى ، وأوقع على الأرض في اللفظ ،

كما أسند هناك الاشتعال إلى الرأس . وقد حصل بذلك على معنى الشمول ها هنا مثل الذي هناك . وذلك أنه قد أفاد أن الأرض قد كانت صارت عيوناً كلها ، وأن الماء قد كان يفور من كل مكان فيها . ولو أجري اللفظ على ظاهره فقيل : وفجّرنا عيون الأرض ، أو العيون في الأرض ، لم يفد ذلك ، ولم يدل عليه ، ولكان المفهوم منه أن الماء قد كان فار من عيون متفرقة في الأرض ، وتبجس من أماكن فيها » ...

رحم الله « عبد القاهر » لقد كان النبع منه على ضربة معول فلم يضربها . إن الجمال في « اشتعل الرأس شيباً » . « وفجرنا الأرض عيوناً » هو في ذلك الذي قاله من ناحية النظم ، وفي شيء آخر وراءه ، هو هذه الحركة التخييلية السريعة ، التي يصوّرها التعبير : حركة الاشتعال التي تتناول الرأس في لحظة ، وحركة التفجير التي تفور بها الأرض في ومضة . فهذه الحركة التخييلية تلمس الحسّ وتثير الخيال ، وتشرك النظر والمخيلة في تذوّق الجمال . وهي في « واشتعل الرأس شيباً » أوضح وأقوى . لأن حركة الاشتعال هنا حركة ممنوحة للشيب . وليست له في الحقيقة ، وهذه الحركة هي عنصر الجمال الصحيح . يدل على ما نقول ، إن الجمال في قولك : « اشتعل البيت ناراً » ، لا يقاس ولا يقرب من قول القرآن : « اشتعل الرأس شيباً » ، ففي التعبير بالاشتعال عن الشيب جمال ، وفي إسناد الاشتعال إلى الرأس جمال آخر ، يكمل أحدهما الآخر . ومن كليها ، لا من أحدهما ، كان هذا الجمال الباهر ! وهذا هو الذي وقف دونه عبد القاهر ؛ وإن كان يبدو أنه كان يحسّه في ضميره ، ولا يصوّره كاملاً في تعبيره . وليس لنا على أية حال أن

نطالبه بالتعبير في لغة عصرنا الأخير .. يرحمه الله !

* * *

وأيًّا ما كانت تلك الجهود التي بذلت في التفسير وفي مباحث البلاغة والإعجاز فإنها وقفت عند حدود عقلية النقد العربي القديمة ، تلك العقلية الجزئية التي تتناول كل نصّ على حدة ، فتحلله وتبرز الجمال الفني فيه – إلى الحد الذي تستطيع – دون أن تتجاوز هذا إلى إدراك الخصائص العامة في العمل الفني كله .

هذه الظاهرة قد برزت في البحث عن بلاغة القرآن ، فلم يحاول أحد أن يجاوز النَّص الواحد إلى الخصائص الفنية العامة . أللهم إلا ما قيل في تناسق تراكيب القرآن وألفاظه ، أو استيفاء نظمه لشروط الفصاحة والبلاغة المعروفة . وهذه ميزات ـ كما قال عبد القاهر بحق ـ لا تذكر في مجال الإعجاز ، لأنها ميسَّرة لكل شاعر وكاتب شب عن الطوق .

وبوقوف الباحثين في بلاغة القرآن عند خصائص النصوص المفردة ، وعدم تجاوزها إلى الخصائص العامة ، وصلوا إلى المرحلة الثانية من مراحل النظر في الآثار الفنية ، وهي مرحلة الإدراك لمواضع الجمال المتفرقة ، وتعليل كل موضع منها تعليلاً منفرداً . ذلك مع ما قدَّمنا من أن هذا الإدراك كان بدائياً ناقصاً .

أما المرحلة الثالثة ـ مرحلة إدراك الخصائص العامة ـ فلم يصلوا إليها أبداً ، لا في الأدب ، ولا في القرآن . وبذلك بقي أهم مزايا القرآن الفنية مُغفلاً خافياً وأصبح من الضروري لدراسة هذا الكتاب المعجز من منهج للدراسة جديد ، ومن بحث عن الأصول العامة للجمال الفني فيه ، ومن بيان للسمات المطردة التي تميز هذا

الجمال عن سائر ما عرفته اللغة العربية من أدب ؛ وتفسِّر الإعجاز الفني تفسيراً يستمد من تلك السمات المتفردة في القرآن الكريم .

وإن لهذا الكتاب العظيم لخصائص مشتركة ، وطريقة موحدة ، في التعبير عن جميع الأغراض ، سواء كان الغرض تبشيراً أم تحذيراً ، قصة وقعت أو حادثاً سيقع ، منطقاً للإقناع أو دعوة إلى الإيمان ، وصفاً للحياة الدنيا أو للحياة الأخرى ، تمثيلاً لمحسوس أو ملموس ، إبرازاً لظاهر أو لمضمر ، بياناً لخاطر في الضمير أو لمشهد منظور .

هذه الطريقة الموحدة ، هذه القاعدة الكبيرة . هي التي كتبنا من أجلها هذا الكتاب .. هي .. « التصوير الفني » !

التصويرُ الفَـــنيّ

التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن . فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني ، والحالة النفسية ؛ وعن الحادث المحسوس ، والمشهد المنظور ؛ وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية . ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة ، أو الحركة المتجددة . فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة ؛ وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ؛ وإذا النموذج الإنساني شاخص حيّ ، وإذا الطبيعة البشرية مجسَّمة مرئية . فأما الحوادث والمشاهد ، والقصص والمناظر ، فيردها شاخصة حاضرة ؛ فيها الحياة ، وفيها الحركة ؛ فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل . فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظارة ؛ وحتى ينقلهم نقلاً إلى مسرح الحوادث الأول ، الذي وقعت فيه أو ستقع ؛ حيث تتوالى المناظر ، وتتجدد الحركات ؛ وينسى المستمع أن هذا كلام يتلى ، ومثل يضرب ؛ ويتخيَّل أنه منظر يعرض ، وحادث يقع . فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو ؛ وهذه سمات الانفعال بشتى الوجدانات ، المنبعثة من الموقف ، المتساوقة مع الحوادث ؛ وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة ، فتنم عن الأحاسيس المضمرة .

إنها الحياةُ هنا ، وليست حكايةَ الحياة .

فإذا ما ذكرنا أن الأداة التي تصوّر المعنى الذهني والحالة النفسية ، وتشخص النموذج الإنسانيّ أو الحادث المرويّ ، إنما

هي ألفاظ جامدة ، لا ألوان تصوِّر ، ولا شخوص تعبِّر ، أدركنا بعض أسرار الإعجاز في هذا اللون من تعبير القرآن .

والأمثلة على هذا الذي نقول هي القرآن كله ، حيثما تعرض لغرض من الأغراض التي ذكرناها ؛ حيثما شاء أن يعبّر عن معنى مجرَّد ، أو حالة نفسية ، أو صفة معنوية ، أو نموذج إنساني ، أو حادثة واقعة ، أو قصة ماضية ، أو مشهد من مشاهد القيامة ، أو حالة من حالات النعيم والعذاب ؛ أو حيثما أراد أن يضرب مثلاً في جدل أو محاجَّة ، بل حيثما أراد هذا الجدل إطلاقاً ، واعتمد فيه على الواقع المحسوس ، والمتخيل المنظور .

وهذا هو الذي عنيناه حينما قلنا : «إن التصوير هو الأداة المفضَّلة في أسلوب القرآن» . فليس هو حلية أسلوب ، ولا فلتة تقع حيثما اتفق . إنما هو مذهب مقرر ، وخطة موحدة ، وخصيصة شاملة ، وطريقة معيّنة ، يَفتَنُّ في استخدامها بطرائق شتَّى ، وفي أوضاع مختلفة ؛ ولكنها ترجع في النهاية إلى هذه القاعدة الكبيرة : قاعدة التصوير .

ويجب أن نتوسع في معنى التصوير ، حتى ندرك آفاق التصوير الفني في القرآن . فهو تصوير باللون ، وتصوير بالحركة ، وتصوير بالتخييل ؛ كما أنه تصوير بالنغمة تقوم مقام اللون في التمثيل . وكثيراً ما يشترك الوصف ، والحوار ، وجرس الكلمات ، ونغم العبارات ، وموسيقى السياق ، في إبراز صورة من الصور ، تتملاها العين والأذن ، والحس والخيال ، والفكر والوجدان .

وهو تصوير حيّ منتزع من عالم الأحياء ، لا ألوان مجردة وخطوط جامدة . تصوير تقاس الأبعاد فيه والمسافات ، بالمشاعر

والوجدانات . فالمعاني ترسم وهي تتفاعل في نفوس آدمية حيَّة ، أو في مشاهد من الطبيعة تخلع عليها الحياة .

* * *

والآن نأخذ في ضرب الأمثال :

ونبدأ بالمعاني الذهنية التي تخرج في صورة حسية :

١ ـ يريد أن يبين أن الذين كفروا لن ينالوا القبول عند الله ، ولن يدخلوا الجنة إطلاقاً ، وأن القبول أو الدخول أمر مستحيل . هذه هي الطريقة الذهنية للتعبير عن هذه المعاني المجردة . ولكن أسلوب التصوير يعرضها في الصورة الآتية :

﴿ إنَّ الذينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا واسْتَكْبَروا عَنْها ، لا تُفَتَّحُ لهم أبوابُ السماء ، ولا يَدْخلونَ الجنة ، حتى يَلِجَ الجمَلُ في سَمِّ الخِيَاط ﴾ .

ويدعك ترسم بخيالك صورة لتفتح أبواب السماء ، وصورة أخرى لولوج الحبل الغليظ في سم الخياط ؛ ويختار من أسماء الحبل الغليظ اسم « الجمل » خاصة في هذا المقام ؛ ويدع للحس أن يتأثر عن طريق الخيال بالصورتين ما شاء له التأثر ، ليستقر في النهاية معنى القبول ومعنى الاستحالة ، في أعماق النفس ، وقد وردا إليها من طريق العين والحس ـ تخييلاً ـ وعبرا إليها من منافذ شتى ، في هينة وتؤدة ، لا من منفذ الذهن وحده ، في سرعة الذهن التجريدية .

٢ ـ ويريد أن يبين أن الله سيضيع أعمال الذين كفروا كأن لم تكن قبل شيئاً ، وستضيع إلى غير عودة فلا يملكون لها رداً ، فيقدم هذا المعنى مصوَّراً في قوله :

﴿وقَدِمْنَا إلى مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ ، فجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ .

ويدعك تتخيّل صورة الهباء المنثور ، فتعطيك معنى أوضح وآكد ، للضياع الحاسم المؤكد .

٣ ـ أو يرسم هذه الصورة المطوّلة بعض الشيء لهذا المعنى نفسه :

﴿ مَثَلُ الذينَ كَفَروا بربِّهم ، أعمالُهُم كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ به الريحُ في يَوْمٍ عاصِفٍ ، لا يَقْدِرونَ مما كَسَبوا على شَيْءٍ ﴾ .

فتزيد الصورة حركة وحياة ، بحركة الريح في يوم عاصف ، تذرو الرماد وتذهب به بدداً ، إلى حيث لا يتجمع أبداً .

٤ ـ ويريد أن يبين للناس أن الصدقة التي تُبذل رياء ، والتي يتبعها المنّ والأذى ، لا تثمر شيئاً ولا تبقى . فينقل إليهم هذا المعنى المجرد ، في صورة حسية متخيلة على النحو التالي :

﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا لا تُبْطِلوا صَدَقاتكم بالمَنِّ والأَذَى ، كالذي يُنْفِقُ ماله رِئاءَ النَّاسِ ، ولا يُؤمِنُ باللهِ واليوم الآخر . فمثله كمثل صَفْوانٍ عليهِ تُرابٌ ، فأصابه وابلٌ فتركَهُ صَلْداً ﴾ .

ويدعهم يتملون هيئة الحجر الصلب المستوي ، غطته طبقة خفيفة من التراب ، فظُنت فيه الخصوبة ؛ فإذا وابل من المطر يصيبه ؛ وبدلاً من أن يهيئه للخصب والنماء ـ كما هي شيمة الأرض حين تجودها السماء ـ إذا به ـ كما هو المنظور ـ يتركه صلداً ؛ وتذهب تلك الطبقة الخفيفة التي كانت تستره ، وتخيِّل فيه الخير والخصوبة .

ثم يمضي في التصوير لإبراز المعنى المقابل لمعنى الرياء ، ومعنى الذهاب بالصدقة التي يتبعها المن والأذى :

﴿ ومَثَلُ الذينَ ينفقونَ أموالهم ابتغاءَ مَرْضَاةِ الله وتثبيتاً مِن أنْفُسِهِم ، كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ ، أصابَها وابلٌ ، فآتتْ أُكُلها ضِعْفَيْن ، فإن لم يُصِبْها وابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ .

فهنا الوجه الثاني للصورة ، والصفحة المقابلة للصفحة الأولى ، فهذه الصدقات التي تُنفق ابتغاء مرضاة الله ، هي في هذه المرة كالجنة ، لا كحفنة من تراب ؛ وإذا كانت حفنة التراب هناك على وجه صفوان ، فالجنة هنا فوق ربوة ؛ وهذا هو الوابل مشتركاً بين الحالتين ، ولكنه في الحالة الأولى يمحو ويمحق ، وفي الحالة الثانية يُرْبي ويُخْصب . في الحالة الأولى يصيب الصفوان ، فيكشف عن وجه كالح كالأذى ؛ وفي الحالة الثانية يصيب الجنة ، فيمتزج بالتربة ويخرج «أُكُلاً» . ولو أن هذا الوابل لم يصبها ، فإن فيها من الخصب والاستعداد للإنبات ، ما يجعل القليل من المطر يهزها ويحييها ! «فإن لم يصبها وابل فَطلٌّ» .

ولا أريد أن أتعرّض هنا لذلك التناسق العجيب في جو الصورة ، وفي تماثل جزئياتها ، وفي توزيع هذه الجزئيات على الرقعة فيها . حيث يكون الصفوان تُغشيه طبقة خفيفة من التراب ، مثلاً للنفس المؤذية تغشيها الصدقة تبذل رياء (والرياء ستار رقيق يخفي القلب الغليظ) وحيث توضع الجنة فوق ربوة ، في مقابل الحفنة من التراب فوق الصفوان ...

فهذا التقسيم والتوزيع ، وهذا التقابل والتنسيق ، متروك كله إلى فصل سيجيء من فصول هذا الكتاب .

٥ ــ ثم يعود إلى ذلك المعنى مرة أخرى فيقول :

﴿ مَثَلُ ما يُنْفِقونَ في هَذِهِ الحَياةِ الدُّنيا كمَثَلِ ريحٍ فيها صِرٌّ ، أصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَموا أنفسهم فأهلكته ﴾

فيرسم صورة الحرث تأخذه الريح فيها بَـرْد يضرب الزرع والثمار فيهلكها ، فلا ينال صاحب الحرث منه ما كان يرجو بعد الجهد فيه ، كالذي ينفق ماله وهو كافر ، ويرجو الخير فيما أنفق ، فيذهب الكفر بما كان يرجوه .

ولا يفوتنا ما في جرس كلمة « صرّ » من تصوير لمدلولها ، وكأنما هو قذائف صغيرة تنطلق على الحرث فتهلكه . وذلك لون من التناسق ، سنعرض له كذلك في فصله الخاص .

٦ ـ ويريد أن يُبرز معنى : أن الله وحده يستجيب لمن يدعوه ، وينيله ما يرجوه ؛ وأن الآلهة التي يدعونها مع الله لا تملك لهم شيئاً ، ولا تنيلهم خيراً ، ولو كان الخير قريباً ؛ فيرسم لهذا المعنى هذه الصورة العجيبة :

﴿ لهُ دَعوَةُ الحقِّ ، والذينَ يَدْعونَ مِن دونِهِ لا يستجيبونَ لهم بِشَيْءٍ ، إلا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إلىَ الماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ ، وما هو ببالِغِهِ ؛ وما دعاء الكافرينَ إلا في ضلالٍ ﴾ .

وهي صورة تُلح على الحس والوجدان ، وتجتذب إليها الالتفات ، فلا يستطيع أن يتحول عنها إلا بجهد ومشقة ؛ وهي من أعجب الصور التي تستطيع أن ترسمها الألفاظ : شخص حيّ شاخص ، باسط كفّيه إلى الماء ، والماء منه قريب ، يريد أن يُبلغه فاه ، ولكنه لا يستطيع ، ولو مَدَّ مَدَّةً فربما استطاع !.

٧ ـ ويبين أن الآلهة الذين يُعبدون من دون الله ، لا يَسمعون

ولا يجيبون ، لأنهم لا يعون ولا يتبينون ، وأن دعاء عبادهم لهم عبث لا طائل وراءه ؛ فيختار صورة تبيِّن هذا المعنى ، وتجسِّم هذه الحالة ، وتلمس الحس والنفس بأقوى مما تلمسهما العبارات العادية ، عن المعاني الذهنية .

﴿ ومَثَلُ الذين كفروا كمَثَلِ الذي يَنْعِقُ بما لا يَسمَعُ إلا دعاء ونداء . صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فهُم لا يَعْقِلونَ ﴾ .

هكذا ينعق الكفار بما لا يسمع ، وينادون ما لا يفهم ، فلا يصل إليه من أصواتهم إلا دعاء مبهم ، ونداء لا يُفهم . فهؤلاء الآلهة لا يميزون بين الأصوات ولا يفهمون مراميها . وهذا مثل ، ولكنه صورة شاخصة . صورة جماعة يدعون آلهةً تصل إليها أصواتهم مبهمة ، فلا تفهم مما وراءها شيئاً ؛ وفيها تتجلى غفلة الداعين وعبث دعوتهم ، بجانب غفلة المدعوين واستحالة إجابتهم !

٨ ـ ويريد أن يجسم ضعف هؤلاء الآلهة ، أو الأولياء من دون الله عامة ، ووهن الملجأ الذي يلجأ إليه عُبَّادهم حين يحتمون بحمايتهم ، فيرسم لهذا كله صورة مزدوجة :

﴿ مَثَلُ الذين اتخذوا من دونِ الله أولياء ، كَمَثَلِ العنكبوت اتخذت بيتاً ، وإنَّ أوْهَنَ البيوت لَبَيْتُ العنكبوت ، لو كانوا يعلمون ﴾ .

فهم عناكب ضئيلة واهنة ، تأوي من حمى هؤلاء الآلهة أو الأولياء إلى بيت كبيوت العنكبوت أوهن وأضأل ، « وإنَّ أوْهَنَ البيوت لَبيتُ العنكبوت » ولكنهم لا يعلمون حتى هذه البديهيَّة

المنظورة ، فهم يضيفون إلى الضعف والوهن ، جهلاً وغفلة ، حتى ليعجزون عن إدراك البديهي المنظور .

٩ ـ ويريد أن يبين أن الذي يشرك بالله ، لا مَنْبَتَ له ولا جذور ، ولا بقاء له ولا استقرار ، فيمثل لهذا المعنى بصورة سريعة الخطوات ، عنيفة الحركات :

﴿ ومَنْ يُشرِك بالله ، فكأنما خرَّ من السماءِ ، فَتَخْطَفُهُ الطير ، أو تَهوي به الريح في مكان سحيق ﴾ .

هكذا في ومضة . يخرّ من السماء من حيث لا يدري أحد ، فلا يستقرّ على الأرض لحظة . إن الطير لتخطفه ، أو إن الريح لتهوي به .. وتهوي به في مكان سحيق ! حيث لا يدري أحد كذلك ! وذلك هو المقصود .

١٠ ـ ويريد أن يثبت معنى الحرمان والإهمال في الآخرة لهؤلاء الذين أعطاهم الله الكتاب من قبل الإسلام فأهملوه ، وعاهدهم على الإيمان فعاهدوه ، ثم أخلفوه ، ابتغاء نفع مادّي قليل ، شأن من لا عهد له ، ولا احترام لكلمته ، فيرسم لهذا الإهمال المعنوي صورة حسيَّة :

﴿ إن الذين يَشْتَرونَ بِعهْدِ الله وأيْمانهم ثمناً قليلاً ، أولئكَ لا خَلاقَ[1] لهم في الآخرةِ ، ولا يُكلِّمهم الله ، ولا يَنظُر إليهم يوم القيامَة ، ولا يُزكّيهم ، ولهم عذابٌ أليم » .

---

(١) لا نصيب .

فيوضح معنى الإهمال لا بألفاظ الإهمال ، ولكن برسم الحركات الدالة عليه : لا كلام ، ولا نظر ، ولا تزكية . وإنما عذاب أليم .

* * *

وكما يصوّر المعاني المجردة يصوّر الحالات النفسية والمعنوية :

١ ـ يريد أن يُبرز الحيرة التي تنتاب من يشرك بعد التوحيد ، ومن يتوزع قلبه بين الإله الواحد والآلهة المتعددين ، ويتفرق إحساسه بين الهدى والضلال فيرسم هذه الصورة المحسَّة المتخيّلة :

﴿ قُلْ : أَنَدْعو مِنْ دون الله ما لا يَنْفَعنا ولا يَضُرّنا ، ونُرَدُّ على أعْقابِنا بَعد إذ هدانا الله ، كالذي اسْتَهْوَتْهُ الشياطينُ في الأرْضِ ، حَيْرانَ ، له أَصْحابٌ يَدْعونَه إلى الهدى .. ائتنا .. ﴾ .

فتبرز صورة هذا المخلوق التعيس الذي استهوته الشياطين في الأرض (ولفظ الاستهواء لفظ مصوّر لمدلوله) ويا ليته يتبع هذا الاستهواء في اتجاهه ، فتكون له راحةُ ذي القصد الموحد ـ ولو كان في طريق الضلال ـ ولكن هناك من الجانب الآخر ، إخوان له يدعونه إلى الهدى ، وينادونه : « ائتنا » . وهو بين هذا الاستهواء وهذا الدعاء « حيران » موزع القلب ، لا يدري أي الفريقين يجيب ، ولا أي الطريقين يسلك ، فهو قائم هناك شاخص متلفت !

٢ ـ ويريد أن يكشف عن حال أولئك الذين يهيئ الله لهم المعرفة ، فيفرون منها كأنْ لم تُهيّأ لهم أبداً ؛ ثم يعيشون بعد ذلك هابطين ، تطاردهم أنفسهم وأهواؤهم ، بما علموا وبما جهلوا ؛ فلا هم استراحوا بالغفلة ، ولا هم استراحوا بالمعرفة ، فيرسم لهم هذه الهيئة :

﴿ واتْلُ عليهم نبأ الذي آتيناهُ آياتنا ، فانسلخ منها ، فأتْبعهُ الشيطانُ فكانَ من الغاوين . ولو شئنا لرَفعناهُ بها ، ولكنه أخلدَ إلى الأرض واتَّبعَ هَوَاهُ ، فمَثَلُهُ كمثلِ الكلبِ : إن تَحمل عليه يلهَثْ ، أو تَتْرُكْهُ يَلْهثْ » ﴾ .

وفي الصورة تحقير وتقذير ـ وذلك غرض ديني لا شأن لنا به هنا ـ ولكنها من الوجهة الفنية صورة شاخصة ، فيها الحركة الدائبة . وهي صورة معهودة ، فهي في تثبيت المعنى المراد بها أشد وأقوى . وهكذا يلتقي الغرض الديني بالغرض الفني ، كالشأن في جميع الصور التي يرسمها القرآن .

٣ ـ ويريد أن يوضح حالة تزعزع العقيدة ، حيث لا يستقر الإنسان على يقين ؛ ولا يحتمل ما يصادفه من الشدائد بقلب راسخ ؛ ولا يجعل عقيدته في معزل عن ملابسات حياته ، بعيدة عن ميزان الربح والخسارة . فيرسم لهذا التزعزع صورة تهتز وتترنح ، وتوشك على الانهيار :

﴿ ومِنَ الناسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ على حَرْفٍ ، فإنْ أصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ به ، وإنْ أصابَتْهُ فِتنَةٌ انْقَلَبَ على وَجْهِهِ ، خَسِرَ الدنيا والآخرَة ﴾ .

إن الخيال ليكاد يجسم هذا «الحرف» الذي يعبد الله عليه هذا البعض من الناس ، وإنه ليكاد يتخيَّل الاضطراب الحسي في وقفتهم ، وهم يتأرجحون بين الثبات والانقلاب ؛ وإن هذه الصورة لترسم حالة التزعزع بأوضح مما يؤديه وصف التزعزع ،

لأنها تنطبع في الحس ، وتتصل منه بالنفس .

وإني لأذكر الآن تلك الصورة التي ارتسمت في خيالي وأنا طفل أقرأ القرآن في المدرسة الأولية ، حين وصلت إلى هذه الآية .. ترى يبعد تصوري الآن كثيراً عن هذه الصورة الساذجة ؟ لا أظن ! فالاختلاف الذي طرأ هو مجرد إدراكي اليوم أن هذا مثل يُضرب ، لا حقيقة تشهد . وذلك إعجاز التعبير الذي تتقارب في إدراكه شتى المدارك ، وتصل في كل حالة إلى صورة حية ، مع اختلاف الأفهام .

٤ ـ ومما هو بسبيل من ذلك في غرض آخر غير هذا الغرض ، تلك الصورة التي رسمها للمسلمين قبل أن يُسلموا ، يوم أن كانوا معرَّضين لجهنم بما هم فيه من الكفر ، فقال :

﴿ واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَميعاً ولا تَفَرَّقوا ، واذكروا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُم ، إذ كُنْتُم أعْداءً ، فأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُم ، فأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ اخواناً ، وكُنْتُم على شفا حُفْرَةٍ مِنَ النارِ ، فأنقذكم منها ﴾ .

هكذا : « كنتم على شفا حفرة من النار » ، موشكين على الوقوع ، تكاد أقدامكم تزلّ فتهوون . وليس المهم لدينا ـ في هذا المجال ـ دقة التشبيه وصدقه ، إنما المهم أولاً هو هذه الصورة القلقة المتحركة الموشكة في الخيال على الزوال . ولو استطاعت ريشة مصوّر بالألوان أن تبرز هذه الحركة المتخيّلة في صورة صامتة لكانت براعة تحسب في عالم التصوير . والمصور يملك الريشة واللوحة والألوان ، وهنا ألفاظ فحسب يصوّر بها القرآن .

ثم ننظر إلى جمال التعبير من زاوية أخرى : إذ يرسم هذه

الصورة ، ثم يجعل هذه الحفرة من النار ، ويجعلهم على شفا منها ، فيطوي الحياة الدنيا كلها ـ وهي الفاصل بينهم وبين النار ـ ويجعلهم ـ وهم بعد أحياء ، وهم بعد في الدنيا ـ واقفين هذه الوقفة ، على شفا حفرة من النار ، حينما كانوا من الكفار !

٥ ـ وشبيهة بهذه الصورة صورة أخرى ، لمن يقيم بنيانه على غير التقوى :

﴿ أفَمَنْ أسَّسَ بُنْيانه على تَقْوىً مِنَ الله ورضوان خيرٌ ؟ أمْ مَنْ أسَّسَ بُنيانَهُ على شَفَا جُرُفٍ هارٍ ، فانهارَ به في نار جهنَّم ؟ ﴾ .

فهنا قد أكمل الحركة الأخيرة ، التي كانت متوقعة هناك : « فانهار به في نار جهنم » وبذلك طوى الحياة الدنيا كلها ، دون أن يذكر ولو كلمة « ثم » في موضع « الفاء » « فانهــار » لأن هذا المدى الطويل ، قصير قصير ، حتى لا ضرورة لهذا « الـتراخـي » القصير ! (وهذا فن من جمال العرض سيأتي تفصيله في فصل خاص) .

* * *

ومن بين الحالات النفسية التي يصوّرها القرآن ، ما يرسم « نموذجاً » إنسانياً واضحاً للعيان :

مثال ذلك « من يعبد الله على حرف » وقد تحدثنا عنها هناك ، فنزيد عليها هذه الأمثال :

١ ـ يريد أن يُشخِّص حالة العناد السخيف ، والمكابرة العمياء ، التي لا يجدي معها حجة ولا برهان ، فيبرز « نموذجاً إنسانياً » في هذه الكلمات :

﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء ، فظلوا فيه يَعرُجون[1] ، لقالوا : إنما سُكِّرَتْ أبصارُنا ، بل نحن قوم مسحورون !﴾ .

أو يقول :

﴿ ولو نزَّلنا عليكَ كتاباً في قِرْطاس ، فلمسوه بأيديهم ، لقال الذين كفروا : إنْ هذا إلا سحر مبين !﴾ .

٢ ــ ويريد أن يبين أن الإنسان لا يعرف ربه إلا في ساعة الضيق ، حتى إذا جاءه الفرج نسي الله الذي فرَّج عنه . ولكنه لا يقولها في مثل هذا النسق الذهني ، إنما يرسم صورة حافلة بالحركة المتجددة ، والمشاهد المتتابعة ، ويرسم في خلالها « نموذجاً إنسانياً » كثير التكرار في بني الإنسان :

﴿ هو الذي يُسَيِّركم في البَرِّ والبحْر ، حتى إذا كنتم في الفُلْكِ ، وجَرينَ بهم بريح طيِّبة ، وفرحوا بها ، جاءتها ريحٌ عاصِفٌ ، وجاءهمُ الموجُ من كُلِّ مكان ، وظنوا أنهم أُحيطَ بهم ، دعُوا الله مُخْلِصينَ لهُ الدينَ : لئن أنجانا مِن هذه لنكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرين ، فلما أنجاهم ، إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق ﴾ .

وهكذا تحيا الصورة وتتحرك ، وتموج وتضطرب ، وترتفع الأنفاس مع تماوج السفينة وتنخفض ؛ ثم تؤدي في النهاية ذلك المعنى المراد ، أبلغ أداء وأوفاه .

٣ ــ ويريد أن يُبرز حالة « نموذج » من الناس ظاهرهم يُغري ، وباطنهم يُؤذي . فيرسم لهم صورة كما يأتي :

---

(١) يصعدون .

﴿ ومنَ الناسِ مَنْ يُعْجِبكَ قوله في الحياة الدُّنيا ، ويُشْهِدُ اللهَ على ما في قلبه ، وهو ألَدُّ الخِصام ، وإذا تَولىَّ سَعَى في الأرضِ لِيُفْسِدَ فيها ويُهْلِكَ الحرْثَ والنَّسْل ، والله لا يُحبُّ الفساد ﴾ .

فيستعيض من الوصف الحركةَ والتصرف ، ويبرز المفارقة بين الظاهر والباطن ، في نسق من الصور المتحركة في النفس والخيال .

٤ ـ وفريق من الناس ضعيف العقيدة ، ضعيف العزيمة ، مستور الحال ، لا يتبيَّن ضعفه في فترة الرخاء ، فإذا جدَّ الجدُّ ، وجاء الشدُّ ، ظهر هذا الضعف على أتمه .. هؤلاء يصورهم نموذجاً واضحاً في هذه الكلمات :

﴿ ويقول الذينَ آمَنوا : لوْلا نُزِّلَتْ سورةٌ ! فإذا أُنْزِلتْ سورةٌ مُحْكَمَةٌ وذُكِرَ فيها القِتالُ ، رأيتَ الذين في قلوبهم مَرَضٌ يَنْظُرونَ إلَيكَ نَظَرَ المغْشيِّ عليه مِنَ الموت ! ﴾ .

ومنظر المغشيِّ عليه من الموت معهود ، فما هو إلا أن يذكر التعبير ، حتى تبرز صورتهم في الضمير ، مصحوبة بالسخرية والتحقير .

٥ ـ وقد يبرز هذا « النموذج » في حادثة مرويّة ، فيتجاوز الحادثة الخاصة ويخلد نموذجاً عامّاً :

﴿ ألم ترَ إلى الملأ مِن بَني إسرائيلَ من بعد موسى ، إذ قالوا لِنَبيٍّ لهم : ابْعَثْ لنا ملكاً نُقاتِلْ في سبيل الله . قال : هَلْ عَسيتُمْ إنْ كُتِبَ عليكمُ القتالُ ألاَّ تُقاتِلوا ؟ قالوا : وما لَنا ألاَّ نُقاتِلَ في

سبيل الله ، وقَدْ أُخرِجْنا مِنْ دِيارِنا وأبنائِنا ؟ فلمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القِتالُ تَوَلَّوْا إلاَّ قليلاً منهم ! ﴾ .

وفي هذا المثال يزيد على الضعف ، تلك اللجاجة في أيام السلم ، وإظهار الشجاعة والاستبسال ؛ ثم الخوَر والجبن ، عندما تحين ساعة النضال !

وليست هذه حادثة تقع مرّة وتمضي ، ولكنه نموذج مكرَّر في بني الإنسان ، لا يتقيَّد بالزمان والمكان .

* * *

وإلى هنا قصرنا الأمثلة على المعاني الذهنية ، والحالات النفسية ، والنماذج الإنسانية ، يخرجها التعبير القرآني صوراً شاخصة أو متحركة ، ويعدل بها عن التعبير المجرد إلى الرسم المصوّر . فلنأخذ الآن في ضرب الأمثلة على التصوير المشخص ، **لمشاهد الحوادث الواقعة** ، **والأمثال المضروبة** ، **والقصص المروية** ؛ فالطريقة فيها واحدة ، والشبه بينها قريب :

١ ــ ها هو ذا يتحدث عن « الهزيمة » فيرسم لها مشهداً كاملاً تبرز فيه الحركات الظاهرة والانفعالات المضمرة ، وتلتقي فيه الصورة الحسية بالصورة النفسية ، وكأنما الحادث معروض من جديد ، دون أن يُغفل منه قليل أو كثير :

﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنوا اذْكُروا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُم ، إذْ جاءَتكُمْ جُنودٌ ، فأرْسَلْنا عَلَيهِم رِيْحاً وجُنوداً لم تَرَوْها ، وكانَ اللهُ بما تَعْملونَ بصيراً . إذْ جاءُوكُم مِنْ فَوْقِكُم ومِنْ أسْفَلَ مِنْكُم ، وإذْ زاغَتِ الأبْصارُ ، وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَناجِرَ ، وتَظُنُّونَ باللهِ الظُّنونا . هُنالِكَ

ابْتُلِيَ المؤمِنونَ وزُلْزِلوا زِلْزالاً شديداً . وإذ يقول المنافقونَ والذينَ في قُلُوبِهم مَرَضٌ : ما وَعَدَنا الله ورسولهُ إلا غُروراً . وإذْ قالتْ طائِفَةٌ مِنْهُم : يا أهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لكُمْ فارْجِعوا . ويَسْتأْذِنُ فريقٌ منهم النبيَّ . يقولونَ : إنَّ بيوتنا عَوْرَةٌ ، وما هيَ بِعَوْرَةٍ ، إنْ يُريدونَ إلاَّ فراراً﴾ .

فأية حركة نفسية أو حسية من حركات الهزيمة ، وأية سمة ظاهرة أو مضمرة من سمات الموقف ، لم يبرزها هذا الشريط الدقيق المتحرك ، المساوق في حركته لحركة الموقف كله ؟

هؤلاء هم الأعداء يأتون المؤمنين من كل مكان ، وهذه هي الأبصار زائغة والنفوس ضائقة . وهؤلاء هم المؤمنون يُزلزَلون زلزالاً شديداً . وهؤلاء هم المنافقون ينبعثون بالفتنة والتخذيل . يقولون : « ما وعَدَنا اللهُ ورسولهُ إلا غروراً » ، ويقولون لأهل المدينة : لا بقاء لكم هنا . ارجعوا إلى بيوتكم فهي في خطر . وهؤلاء هم جماعة من ضعاف القلوب يقولون : إن بيوتنا مكشوفة ، وليست في حقيقتها مكشوفة : « إنْ يُريدون إلا فراراً » .

وهكذا لا تُفلتُ في الموقف حركة ولا سمة ، إلا وهي مسجَّلة ظاهرة ، كأنها شاخصة حاضرة .. تلك حادثة وقعت بالفعل . ولكن صورتها ترسم « الهزيمة » مطلقة من كل ملابسة ، وما يزيد عليها أو ينقص منها إلا جزئيات في الواقع ! أما الصورة النفسية فخالدة تتكرر في كل زمان ، حينما التقى جمعان ، وتعرض أحدهما للخذلان .

٢ ـ وقريب من هذه الصورة صورة أخرى للهزيمة أيضاً ،

وهي كذلك صورة باقية ، لا حادثة مفردة . وذلك حيث يقول :

﴿ ولقدْ صَدقَكُم اللهُ وَعْدَهُ إذْ تَحسُّونهم[1] بإذْنِهِ ، حتى إذا فَشِلْتُمْ وتنازَعْتُمْ في الأمر ، وعَصيتم من بعدِ ما أراكُمْ ما تُحِبُّونَ : منكم منْ يُريدُ الدُّنيا ومِنكُمْ مَنْ يُريدُ الآخِرَةَ ؛ ثمَّ صَرَفكُمْ عَنْهُم لِيَبْتَلِيَكُمْ ! ولقدْ عَفا عَنْكُم ، واللهُ ذو فَضلٍ على المؤمنِينَ . إذْ تُصْعِدونَ ولا تَلْوونَ على أحَدٍ ، والرَّسولُ يَدْعوكُمْ في أُخْراكُمْ ! فأثابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ ، لِكَي لا تَحْزَنوا على ما فاتَكُمْ ولا ما أصابَكُمْ ، والله خبيرٌ بما تَعْمَلونَ ؛ ثمَّ أنْزَلَ عليكُم مِنْ بَعْدِ الغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشى طائِفَةً مِنْكُم ، وطائِفَةٌ قد أهَمَّتْهُمْ أنْفسهم يظنونَ باللهِ غيرَ الحقِّ ظنَّ الجاهليةِ ، يقولونَ : هلْ لنا مِنَ الأمْرِ مِنْ شيءٍ ! قل : إنَّ الأمر كلهُ لله ، يخفونَ في أنفُسِهِم ما لا يُبْدونَ لَكَ ، يَقولونَ : لو كانَ لنا مِنَ الأمْرِ شيءٌ ما قُتِلْنا ها هُنا ﴾ !

ليخيل إليّ أنني أشهد المنظر اللحظة بكل من فيه وكل ما فيه !

° ° °

ثم نأخذ في عرض نماذج من الأمثال القصصية التي تضرب في القرآن :

١ ـ ها نحن أولاء أمام أصحاب الجنة ـ جنة الدنيا لا جنة الآخرة ـ وها هم أولاء يُبيِّتون في شأنها أمراً . لقد كان للفقراء حظ من ثمر هذه الجنة ، ولكن الورثة لا يشاءون . إنهم ليريدون

---

(١) تستأصلونهم بالقتل .

أن يستأثروا بها وحدهم ، وأن يحرموا أولئك المساكين حظهم . فلننظر كيف يصنعون :

﴿ إنّا بَلَوْناهُمْ كما بَلَوْنا أصحابَ الجنَّة ، إذ أقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِينَ ، ولا يَسْتَثْنون ﴾ .

لقد قرَّ رأيهم على أن يقطعوا ثمرها عند الصباح الباكر ، دون أن يستثنوا منه شيئاً للمساكين . فلندعهم على قرارهم ، ولننظر ماذا يقع الآن في بهمة الليل ؛ حيث يختفون هم ، ويخلو منهم المسرح . فماذا يرى النظارة ؟ هناك مفاجأة تتم خلسة ، وحركة خفية كحركة الأشباح في الظلام ! « فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم[1] » . وهم لا يشعرون .

والآن ها هم أولاء يتصايحون مبكرين ! وهم لا يدرون ماذا أصاب جنتهم في الظلام : « فَتنادَوْا مُصبحين . أن اغدُوا على حَرْثكم إن كنتم صارمين[2] فانطلقوا وهم يتخافتون . ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين » !

ليمسك النظارة ألسنتهم فلا ينبهوا أصحاب الجنة إلى ما أصاب جنتهم ؛ وليكتموا ضحكات السخرية التي تكاد تنبعث منهم ، وهم يشاهدون أصحاب الجنة المخدوعين ، يتنادون متخافتين ، خشية أن يدخلها عليهم مسكين ! ليكتموا ضحكات السخرية ! بل ليطلقوها ! فها هي ذي السخرية العظمى : « وَغَدَوْا على حَرْدٍ[3]

---

(١) كالمقطوعة الثمار .

(٢) قاطعين لثمرها ، أو قاطعين فيما تنوون .

(٣) منع وحرمان .

قادرين » أجل ! إنهم لقادرون الآن ، على المنع والحرمان ، حرمان أنفسهم على الأقل !

وها هم أولاء يفاجأون ، فليضحك النظارة كما يشاءون : « فلما رأوْها قالوا : إنا لَضالُّون » ما هذه جنتنا الموقَرَة بالثمار ، فقد ضللنا إليها الطريق !.. فلتتأكدوا يا جماعة !.. « بل نحن محرومون » .. وهذا هو الخبر اليقين !

والآن قد سُقط في أيديهم : « قال أوْسطهم : ألم أقل لكم : لوْلا تُسبحون ! » اي والله ! هلاَّ سبَّحتم الله واتقيتموه ؟ « قالوا : سبحان ربنا ، إنا كنا ظالمين » . الآن وبعد فوات الأوان !

وكما يتنصل كل شريك من التبعة عندما تسوء العاقبة ، ويتوجه باللوم إلى الآخرين ، ها هم أولاء يصنعون : « فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ! » .

ثم ها هم أولاء يتركون التلاوم ليعترفوا جميعاً بالخطيئة ، عسى أن يفيدهم الاعترافُ الغفران ، ويعوضهم من الجنة الضائعة جنة أخرى : « قالوا : يا ويلنا ! إنا كنا طاغين . عسى ربُّنا أن يُبْدِلَنا خيراً منها ، إنا إلى ربنا راغبون » !

٢ ـ والآن فإلى صاحب جنة أخرى ، بل صاحب جنتين أكبر من الأولى . إن له لقصة مع صاحب له ، ليس من ذوي الجنان ، ولكن من ذوي الإيمان . وكلاهما « نموذج إنساني » لطائفة من الناس : صاحب الجنتين نموذج للرجل الثري ، تذهله الثروة ، وتبطره النعمة ، فينسى القوة الكبرى ، التي تسيطر على أقدار الناس والحياة ، ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفنى ، فلن تخذله القوّة ولا الجاه . وصاحبه نموذج للرجل المؤمن المعتزّ بإيمانه ، الذاكر

لربه ، يرى النعمة دليلاً على المنعم ، موجبة لحمده وذكره ، لا لجحوده وكفره :

﴿ واضْرِبْ لهم مَثَلاً رَجُلَين : جَعَلْنا لأحَدِهما جنَّتَين مِن أعنابٍ ، وحَفَفْناهما بِنَخْل ، وجعَلْنا بينهما زَرْعاً . كِلْتا الجنَّتَين آتتْ أُكلها ، ولم تَظلم منه شيئاً ، وفَجَّرْنا خِلالهما نهراً ، وكان له ثمر ﴾ .

وبهذا ترتسم صورة الجنتين مكتملة ، في ازدهار وفخامة . وهذا هو المشهد الأول . فلننظر إلى المشهد الثاني :

﴿ فقالَ لصاحِبِهِ ـ وهوَ يُحاوره ـ : أنا أكْثَر منكَ مالاً وأعزُّ نَفَراً ﴾

ويبدو أنه قال قولته هذه وهما في الطريق إلى الجنتين ، أو وهما على الباب ، إذ جاء بعده :

﴿ ودَخَلَ جَنَّته وهو ظالِمٌ لِنَفْسِه . قالَ : ما أظُنُّ أنْ تَبيدَ هذه أبَداً ! وما أظُنُّ الساعَةَ قائمَةً ! ولَئِنْ رُدِدْتُ إلى ربي لأجدَنَّ خَيْراً منها مُنْقلباً ﴾ .

فها هو ذا في أوج زهوه وبطره ، وتعاليه وازدهائه . فماذا ترى يكون أثر هذا كله في نفس صاحبه الفقير ، الذي لا جنة له ولا مال ، ولا عصبة له ولا نفر ؟ إن صاحبه لمؤمن ، فما تُشعِرُهُ كل هذه المظاهر بالهوان ، وما تنسيه عزةَ ربه الديّان ، وما تغفله عن واجبه الصحيح ، في رد صاحبه البطر إلى جادّة الطريق ، ولو استدعى ذلك أن يجبهه بالتقريع ، وأن يذكره بمنشئه الصغير من التراب المهين :

﴿ قالَ لَهُ صاحبه ـ وهو يُحاوره ـ : أكَفَرْتَ بالذي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ، ثم مِنْ نُطْفَةٍ ، ثمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ؟ لكنَّ هو اللهُ ربِّي ، ولا أُشْرِكُ بِرَبِي أحَداً . ولَوْلا إذ دَخَلْتَ جَنَّتك قُلْتَ : ما شاءَ اللهُ ، لا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ . إنْ تَرَنِي أنا أقَلَّ مِنْكَ مالاً وولداً ، فعسَى ربِّي أن يُؤْتِيَن خَيْراً من جَنَّتِكَ ، ويُرْسِلَ علَيها حُسْباناً من السماء ، فتصبحَ صَعيداً زَلَقاً ، أو يُصْبحَ ماؤها غَوْراً ، فلنْ تَسْتَطيع له طلباً ﴾ .

وهنا ينتهي هذا المشهد بين الصاحبين : أحدهما منتفش كالديك ، ازدهاه ما في جنَّته من ازدهار ، والآخر موقن بالله ، مستعزّ بالإيمان ؛ يذكِّر صاحبه ويؤنِّبه ، ويُبصِّره بما كان يجب أن يصنع إذ رأى جنته . ويبدو أن صاحبه لم يستمع إليه ـ وهذا طبيعي في هذا الموقف ـ فهو يقسو عليه قسوة الغاضب لدينه ، ويدعو على جنته أن يرسل الله عليها الصواعق ، فتصبح جرداء ملساء ، تزل فيها القدم وتزلق ؛ أو أن يصبح ماؤها غائراً لا يستطيع أن يطلبه ، فضلاً على أن يستخرجه .. ثم يفترق الصاحبان وهما متغاضبان . فلننظر بعد ماذا يكون ؟

﴿ وأُحيطَ بثَمَره ، فأصْبحَ يُقلِّبُ كَفَّيْهِ على ما أنْفَقَ فيها ، وهيَ خاويَةٌ على عروشِها ، ويقولُ : يا لَيْتَني لم أُشْرك بربي أحَداً ﴾ ..

لقد استجاب الله دعوة الرجل المؤمن المتحدّى بلا ضرورة . فلنشهد صاحبنا شاخصاً يقلِّب كفَّيه على ما أنفق فيها ، وهي خاوية على عروشها ، ولندعه يندم : « يا ليتني لم أُشرك بربي أحداً » ولنسدل الستار على منظر الدمار والاستغفار .

* * *

والآن فلنعرض شطراً من **قصص حقيقية** ، بعدما عرضنا قصص الأمثال .

١ ـ لنعرض مشهداً من قصة إبراهيم ، وهو يبني الكعبة مع ابنه إسماعيل ، وكأنما نحن نشهدهما يبنيان ويدعوان الآن ، لا قبل اليوم بأجيال وأزمان .

﴿ وإذ يَرْفَعُ إبراهيمُ القواعِدَ من البيت وإسماعيل . ربَّنا تَقَبَّلْ منّا ، إنَّكَ أنْتَ السَّميعُ العَليمُ . رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ، ومِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسلمةً لَكَ ، وأرنا مناسِكَنا ، وتُبْ عَلَينا ، إنَّكَ أنتَ التَّوَّاب الرحيم . رَبَّنا وابْعَثْ فيهم رَسولاً منهم يَتْلو عليهم آياتِكَ ، ويُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ والحِكْمَةَ ، ويُزَكِّيهم . إنَّكَ أنتَ العزيزُ الحكيم ﴾ .

لقد انتهى الدعاء ، وانتهى المشهد ، وأسدل الستار .

هنا حركة عجيبة في الانتقال من الخبر إلى الدعاء ، هي التي أحيت المشهد وردته حاضراً . فالخبر : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل » كان كإنما هو الإشارة برفع الستار ليظهر المشهد : البيت ، وإبراهيم وإسماعيل ، يدعوان هذا الدعاء الطويل .

وكم في الانتقال هنا من الحكاية إلى الدعاء من إعجاز فني بارز ، يزيدُ وضوحاً لو فرضت استمرار الحكاية ، ورأيت كم كانت الصورة تنقص لو قيل : وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل يقولان : ربنا ... إلخ . إنها في هذه الصورة حكاية ، وفي الصورة القرآنية حياة . وهذا هو الفارق الكبير . إن الحياة في النصّ لتثب متحركة حاضرة . وسر الحركة كله في حذف لفظة واحدة .. وذلك هو الإعجاز .

٢ ـ ثم لنعرض مشهداً من قصة الطوفان : « وهي تجري بهم في موج كالجبال » . وفي هذه اللحظة الرهيبة ، تتنبَّه في نوح عاطفة الأبُوة ، فإن هناك إبناً له لم يؤمن ، وإنه ليعلم أنه مُغرَق مع المغرقين . ولكن ها هو ذا الموج يطغى ، فيتغلب « الإنسان » في نفس نوح على « النبي » ، ويروح في لهفة وضراعة ينادي إبنه جاهراً : « ونادى نوح ابنه – وكان في معزل – يا بنيّ اركب معنا ، ولا تكن مع الكافرين » . ولكن البنوَّة العاقة لا تحفل هذه الضراعة ؛ والفتوَّة العاتية لا ترى الخلاص إلا في فتوّتها : « قال : سآوي إلى جبل يعصمني من الماء » . ثم ها هي ذي الأبوة الملهوفة ترسل النداء الأخير : « قال : لا عاصمَ اليوم من أمر الله إلا من رَحم » . وفي لحظة تتغيَّر صفحة الموقف ، فها هي ذي الموجة العاتية تبتلع كل شيء « وحالَ بينهما الموجُ فكان من المغرقين » ...

إن السامع ليمسك أنفاسه في هذه اللحظات القصار ؛ « وهي تجري بهم في موج كالجبال » ونوح الوالد الملهوف يبعث بالنداء تلو النداء ؛ وابنه الفتى المغرور ، يأبى إجابة الدعاء ؛ والموجة القوية العاتية ، تحسم الموقف في لحظة سريعة خاطفة . وإن الهول هنا ليقاس بمداه في النفس الحية ـ بين الوالد والمولود ـ كما يقاس بمداه في الطبيعة ـ حيث يطغى الموج على الذرى والوديان . وإنهما لمتكافئان ، في الطبيعة الصامتة ، وفي نفس الإنسان .

° ° °

ثم لننتقل إلى **مشاهد القيامة** ، **وإلى صور النعيم والعذاب** ، فقد كان لها من التصوير الفني أوفى نصيب :

١ ـ ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدّاعِ إلى شيءٍ نُكُر ، خُشَّعاً أبْصارُهُمْ ،

يَخْرجونَ مِنَ الأَجْداثِ كأنَّهُم جَرادٌ مُنْتَشِر ، مُهْطعينَ إلى الدّاع ، يَقولُ الكافِرونَ : هذا يَومٌ عسِر ﴾ .

فهذا مشهد من مشاهد الحشر ، مختصر سريع ؛ ولكنه شاخص متحرك ، مكتمل السمات والحركات . هذه جموع خارجة من الأجداث في لحظة واحدة ، كأنها جراد منتشر (ومشهد الجراد المعهود يساعد على تصور هذا المنظر العجيب) وهذه الجموع تسرع في سيرها نحو الداعي ، دون أن تعرف لِمَ يدعوها ، فهو يدعوها « إلى شيء نُكر » لا تدريه . « خشعاً أبصارهم » وهذا يكمل الصورة ؛ ويمنحها السمة الأخيرة . وفي أثناء هذا التجمع والإسراع والخشوع « يقول الكافرون هذا يوم عسر » . فماذا بقي من المشهد لم يشخص بعد هذه الفقرات القصار ؟ وإن السامعين ليتخيلون اليوم النكر ، فإذا هو حشد من الصور . صورهم هم ـ وإنهم لمن المبعوثين ـ يتجلى فيها الهول الحي ، الذي يؤثر في نفس كل حيّ !

٢ ـ وهذا مشهد آخر من مشاهد الإسراع والخشوع ، أشد في النفس هولاً وأكمد في التصوير لوناً :

﴿ ولا تَحْسَبَنَّ اللهَ غافِلاً عَمّا يَعْمل الظّالمونَ . إنما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فيهِ الأَبْصارُ : مُهْطعِينَ ، مُقْنِعي رُؤوسِهِم ، لا يَرْتَدّ إليهم طَرْفهم ، وأفْئِدَتهم هَواء ﴾ .

أربع صور متتابعة متواكبة ،أو أربعة مشاهد لرواية واحدة ، يتلو بعضها بعضاً في الاستعراض ، فتتم بها صورة شاخصة في الخيال ، وهي صورة فريدة للفزع والخجل والرهبة والاستسلام ،

يجللها ظلٌ كئيب ساهم ، يكمد الأنفاس . وهي صورة ترسم كذلك في وسط حيّ : هؤلاء آدميون ، بينهم وبين المستمعين صلة الجنس المشترك ، والحس المتشابه ؛ فهي ترتسم في نفوسهم حية ، ويصل الشعور بها من هؤلاء إلى هؤلاء بالمشاركة الوجدانية وبالتخيل المحسوس. فإذا قرأها القارئ تمشت رعدة الهول في حناياه ، كأنما يلقاه !

٣ ـ ثم تأتي صورة الهول العظمى ، التي لا تغني الألفاظ عنها ، فلننقلها لتعبر عن نفسها :

﴿ يا أيُّها النَّاس اتَّقُوا ربَّكُمُ ، إنَّ زلزلَةَ السَّاعَةَ شيءٌ عظيم . يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كلُّ مُرْضِعَةٍ عمَّا أرْضَعَتْ ، وتَضَعُ كُلُّ ذات حَمْلٍ حَمْلَها ، وتَرَى النَّاس سُكارَى ، وما هم بسُكارى ؛ ولكنَّ عذاب الله شديد ﴾ .

مشهد حافل بكل مرضعة ذاهلة عما أرضعت ، تنظر ولا ترى ، وتتحرك ولا تعي ، وبكل حامل تسقط حملها ، للهول المروّع ينتابها ؛ وبالناس سكارى وما هم بسكارَى ، يتبدى السكر في نظراتهم الذاهلة ، وفي خطواتهم المترنحة . مشهد مزدحم بذلك الحشد المتماوج ، تكاد العين تبصره بينما الخيال يتملاه ، والهولُ الشاخص يذهله ، فلا يكاد يبلغ أقصاه . وهو هول حي لا يقاس بالحجم والضخامة ، ولكن بوقعه في النفوس الآدمية : المرضعات الذاهلات عما أرضعن ، والحوامل الملقيات حملهن ، والسكارى وما هم بسكارى «ولكن عذاب الله شديد» .

٤ ـ وإذا كانت الصور الثلاثة الماضية ترسم الهول ظاهراً للعيان ، فهناك صور لا يدركها إلا الوجدان :

﴿ لِكُلِّ امرئٍ منهم يومَئذٍ شَأْنٌ يُغْنيه ﴾ . ﴿ ولا يَسْأَلُ حَميمٌ حَميماً ﴾ .

إنه لا يوجد أخصر من هذا ولا أدق في تصوير اشتغال القلب والفكر بالهم الحاضر القاهر ، حتى لا موضعَ لسواه ، ولا تلفت ولا انتباه .

٥ ـ وهذا موقف آخر من مواقف البعث مفصَّل بعض الشيء ، ومؤلف من عدة مشاهد ، بين كل منها والآخر فجوة يملؤها الخيال :

﴿ ما يَنْظُرونَ إلاَّ صَيحَةً واحدَةً تأْخذهم ، وهُمْ يَخِصِّمونَ ؛ فلا يَسْتَطيعونَ تَوْصِيَةً ، ولا إلى أهلهم يَرْجعُونَ ﴾ .

فهذه هي الصيحة الأولى أخذتهم وهم يتجادلون ويتخاصمون ، فلم يستطيعوا حتى التوصية ، لأنها عجلت بهم إلى القبور .. ثم :

﴿ ونُفِخَ في الصُّور ، فإذا هُم مِنَ الأَجْداثِ إلى ربهم يَنْسلون . قالوا : يا وَيْلَنا ؛ مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا ؟ هذا ما وَعَدَ الرَّحْمٰنُ ، وصَدَقَ المُرْسَلُونَ ﴾ .

وهذه هي الصيحة الثانية ، وها هم أولاء يسرعون من القبور إلى ربهم ، وهم في ذعر ودهش ، يتساءلون : « مَن بعَثَنا مِن مرقدنا ؟ » ثم يفركون عيونهم فيتحققون : « هذا ما وعدَ الرحمن وصدق المرسلون » .. ثم :

﴿ إن كانَتْ إلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً ، فإذا هُم جَميعٌ لَدَيْنا مُحْضَرونَ ، فاليوم لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شيئاً ، ولا تُجْزَونَ إلاَّ ما كنتم تعملون ﴾ .

وهذه هي الصيحة الأخيرة : « فإذا هم جميع لدينا محضرون » .

ولقد حضروا فعلاً ، وارتسم المشهد ؛ وها هم أولاء يتلقون الخطاب ، على مرأى ومسمع ممن يقرأون الآن هذا الكتاب ! : « فاليومَ لا تُظلم نفس شيئاً ، ولا تُجْزَوْنَ إلا ما كنتم تعملون » .

٦ ـ وإذ تمَّ الحشر ، وابتدأ العرض ، فها نحن أولاء أمام مشهد لجماعة كانت في الدنيا متوادة متحابة ، وهي اليوم متناكرة متدابرة . كان بعضهم يُملي لبعض في الضلال ؛ وكان بعضهم يتعالى على المؤمنين ، ويهزأ من دعواهم في نعيم الآخرة .

ها هم أولاء يقتحمون النار فوجاً بعد فوج . هذا هو الفوج الأول . يُنقل إليه نبأ اقتحام الفوج الثاني : « هذا فوجٌ مقتحم معكم » فماذا يكون الجواب ؟ يكون : « لا مَرْحَباً بهم ، إنهم صالوا النار» ! فهل يسكت المشتومون ؟ كلا ! فها هم أولاء يردون : «قالوا : بل أنتم لا مرحباً بكم . أنتم قدّمتموه لنا ، فبئس القرار ! » وإذا دعوة جامعة : « قالوا : ربنا من قدّم لنا هذا فزده عذاباً ضِعفاً في النار » !

ثم ماذا ؟ ثم ها هم أولاء يفتقدون المؤمنين ، الذين كانوا يتعالَوْن عليهم في الدنيا ويظنون بهم شراً ، فلا يرونهم معهم مقتحمين : « وقالوا : ما لنا لا نرى رجالاً كنا نَعُدهم من الأشرار ؟ اتخذناهم سخرِيّاً ، أمْ زاغتْ عنهم الأبصارُ ؟ » ... « إن ذلك لحقٌّ تخاصُمُ أهل النار » . وإننا لنشهد اليوم هذا التخاصم كما لو كان حاضراً في العيان ! وإن كل نفس آدمية لتحس في حناياها وقع هذا المشهد وتتقيه ، وتحاذر ـ لو ينفع الحذر ـ أن تقع فيه !

* * *

تلك مشاهد للبعث والحشر ، وما يقع فيها من حوار بين الشركاء ، وتناكر بين الأصفياء . فلنعرض **صوراً من النعيم والعذاب** ، بعد الحوار والعتاب :

١ ـ ﴿ وسيقَ الذينَ كفَروا إلى جَهَنَّمَ زُمَراً ، حتى إذا جاءوها فُتِحَتْ أبوابُها ، وقالَ لهم خَزَنَتها : ألم يأْتِكُم رُسُلٌ منْكم ، يتْلون عليكم آياتِ ربِّكم ، ويُنذِرونكُم لِقاء يومكم هذا ؟ قالوا : بلى ! ولكن حقَّتْ كَلِمَةُ العذابِ على الكافِرينَ . قيل : ادخلوا أبْوابَ جَهنَّم خالدين فيها ، فبئس مثوى المتكبرين ﴾ .

﴿ وسِيْقَ الذينَ اتَّقوا ربهم إلى الجنَّةِ زُمَراً ، حتى إذا جاءوها ، وفتحتْ أبوابها وقال لهم خَزَنَتها : سلامٌ عَلَيكمْ ، طِبتُم فادخلوها خالِدين . وقالوا : الحمد لله الذي صَدَقَنا وَعْده ، وأورَثَنا الأرضَ نَتبَوَّأُ مِنَ الجنَّةِ حَيثُ نَشَاء ، فَنِعْمَ أجْر العاملينَ ﴾ .

وتكملة المشهد :

﴿ وتَرَى الملائِكَةَ حافِّينَ مِنْ حَوْل العَرْش ، يُسَبِّحونَ بِحَمْدِ ربهم ، وقُضِيَ بَيْنَهُم بالحَقِّ ، وقيلَ : الحَمْدُ لله رَبِّ العالمينَ ﴾ .

ونحسب أن المشهد بارز واضح ، منسق الخطوات ، متقابل الجزئيات ، لا يحتاج منا إلى توضيح أو بيان . فلنتابع خطوات الفريقين إلى ما خلف الجدران !

٢ ـ ﴿ إنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّوم طَعامُ الأثيم ، كالمُهْل يَغْلي في

البُطُونِ ، كَغَلْيِ الحَميمِ . خُذُوهُ فاعْتلوهُ إلى سَوَاءِ الجحيمِ ؛ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأسِهِ مِنْ عَذابِ الحَميمِ : ذُقْ ، إنَّكَ أنْتَ العَزيزُ الكَريمُ ! إنَّ هذا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرونَ ! ﴾ .

﴿ إنَّ المُتَّقِينَ في مَقَامٍ أمينٍ . في جَنَّاتٍ وعُيونٍ . يَلبسونَ مِنْ سُنْدُسٍ وإسْتَبْرَقٍ مُتقابلِينَ ، كذلكَ وزَوَّجْناهُم بِحُورٍ عِينٍ ، يَدْعُونَ فيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ آمِنينَ ، لا يَذوقونَ فيها المَوْتَ إلاَّ المَوْتَةَ الأولى ، ووقاهُمْ عَذابَ الجحيم ﴾ .

٣ ـ ونختم مشاهد القيامة هنا ، بهذا المشهد المتعدد المناظر ، المتنوع المشاهد ، المتفرد في طريقة العرض والحوار :

﴿ ونادَى أصْحابُ الجَنَّةِ أصْحابَ النَّارِ ، أنْ قَدْ وجدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقّاً ، فهلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبّكُمْ حَقّاً ؟ قالوا : نَعَم ! فَأذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهم : أنْ لَعْنَةُ اللهِ على الظالمينَ ، الَّذينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ اللهِ ، وَيَبْغُونَها عِوَجاً ، وَهُمْ بالآخِرَةِ كافِرونَ ﴾ .

﴿ وبينهما حِجابٌ ، وعلى الأعْرافِ رِجالٌ يعْرِفونَ كُلاًّ بِسيماهم . ونادَوْا أصحابَ الجَنَّة : أنْ سَلامٌ عَلَيْكُم ، لم يَدْخُلوها وهُمْ يَطْمَعونَ . وإذا صُرِفَتْ أبصَارُهُم تِلقاءَ أصحابِ النّار قالوا : ربَّنا لا تجعَلنا مَعَ القَوْمِ الظالمِينَ ﴾ .

﴿ ونادَى أصْحابُ الأعرافِ رِجالاً يَعْرِفونهم بسيماهم ، قالوا : ما أغنى عَنْكُم جَمْعكم وما كُنْتُم تَسْتَكْبِرونَ . أهؤلاء الذينَ

أَقْسَمْتُمْ : لا يَنالهم الله برحْمَةٍ ؟ ادخُلوا الجنَّةَ لا خَوْفَ عَلَيْكُمْ ولا أَنْتُمْ تَحْزَنونَ .

﴿ ونادَى أصحابُ النارِ أصحابَ الجنَّة : أنْ أفيضُوا عَلَينا مِنَ الماءِ أو مِمَّا رَزَقَكُم الله . قالوا : إنَّ اللهَ حَرَّمهُما على الكافرينَ ﴾ .

فها نحن أولاء أمام مشاهد يتلو بعضها بعضاً .

ها نحن أولاء أمام المؤمنين في الجنة ، والكافرين في النار . ينادي الأولون الآخرين : « قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ » ـ وفي هذا السؤال من التهكم المرّ ما فيه ـ فيجيء الجواب من هناك « نعم » ! حيث لا مجال لنكران أو محال . وعندئذ يؤذّن بينهما مؤذّن : « أن لعنةُ الله على الظالمين » .

ثم نحن أولاء أمام الأعراف ـ الفاصلة بين الجنة والنار ـ وعليها رجال يعرفون هؤلاء وهؤلاء ؛ فهم يتوجهون إلى أصحاب الجنة بالترحيب والسلام ، ويتوجهون إلى أصحاب النار بالتبكيت والإيلام : « أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ؟ » انظروا أين هم الآن . إنهم في الجنة يتلقون التكريم !

وأخيراً ها هم أولاء أصحاب النار يستغيثون ، طالبين من أصحاب الجنة أن يُفيضوا عليهم من الماء أو مما رزقهم الله ، فلديهم من كل شيء فيض غزير ، فليفيضوا منه على الملهوفين . ولكن الجواب هو المعذرة والتذكير : « إن الله حرَّمهما على الكافرين » .

تلك من صور القيامة ، ومن صور الحوار فيها والخصام ، ومن صور النعيم فيها والعذاب . فهل كان القارئ في أثناء استعراضها

يحس أن هذا كله آتٍ في المستقبل البعيد ؟ أم يحس أنه واقع في الحاضر المشهود ؟

أما أنا فقد نسيت نفسي ؛ ونسيت أني أستعرض هذه المشاهد في ثوبها الفني ؛ وحسبتني أشهدها في الواقع لا في الخيال . وذلك أثر الإعجاز في العرض والتشخيص ، وهو إعجاز يزيد قيمته أنه ـ كما قلت مراراً ـ يعتمد على الألفاظ وحدها في هذا التصوير .

* * *

وبعد ، فقد كان من حق هذا الفصل أن ينتهي إلى هذا الحد . ولكن هناك غرضاً من أغراض القرآن يبدو بطبيعته بعيداً عن الأسلوب التصويري ، لأنه منطق وجدل ودعوة إلى الدين ، كان يتبادر إلى الفهم أن يكون الأسلوب الذهني هو الذي يتبع فيه ؛ فاستخدام الأسلوب التصويري ـ حتى في هذا الغرض ـ له دلالته الخاصة على أن التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن ـ وهذه هي القضية التي نعرضها في هذا الفصل ـ فلا عجب أن نلم بهذه الظاهرة الأخيرة ، ونضرب من الجدل التصويري بعض الأمثال . وان كان لهذا الجدل فصل خاص سيجيء في أواخر الكتاب .

١ ـ هذه هي الصورة الأولى : مشهد من مشاهد الطبيعة الصامتة الخالدة ، يلفت النظر إليه دليلاً على قدرة الله :

﴿ الَّذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاواتٍ طِباقاً . ما تَرَى في خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ . فَارْجعِ البَصَرَ ، هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ؟ ثُمَّ ارْجعِ البَصَرَ كَرَّتَينِ ، يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ البَصَرُ خاسِئاً وهُوَ حَسِيرٌ ﴾ .

هذه لوحة طبيعية منسقة يوجه إليها البصر ، لينقل البصر ما

يراه إلى النفس ، ليقع في النفس ما يقع من الأثر . لتؤمن بقدرة الله «الذي خلق سبع سماوات طباقاً» وهي لوحة معروضة في كل حين . ولكنك تقرأ هذه الآيات ، فتلتفت إليها كأنما تعرض أول مرة في هذا الوجود . وتلك طريقة القرآن في كل ما يوجه إليه النظر من مشاهد الطبيعة ، ومشاهد الحياة في جميع المناسبات .

٢ ـ وهذه صورة من مشاهد الطبيعة الصامتة كذلك ، ولكنها في هذه المرة معروضة في الأرض لا في السماء :

﴿وفي الأرْض قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ ، وجَنَّاتٌ مِنْ أعْنابٍ ، وَزَرْعٌ ، ونَخيلٌ صِنْوانٌ وغَيْرُ صِنْوان ، يُسْقى بماءٍ واحِدٍ ، ونُفَضِّلُ بَعْضها على بَعْضٍ في الأُكُلِ﴾ .

فهذا المشهد قديم مكرور ، تمر عليه العيون في غفلة والنفوس ، ولكنه يعرض هنا كأنه جديد ؛ وإنه لكفيل حين تتملاه العين أن يوقع في النفس تأثراً وجدانياً خاصّاً . فهذه القطع المتجاورات من الأرض مختلفة في النبات . لا بل إن النوع الواحد من النبات ليختلف في الأشكال ، فمزدوج ومنفرد ، وجميعه يسقى بماء واحد ، ولكن تختلف طعومه في الأكل .. وأيّاً ما كانت هذه الملاحظات ، فردها الأول إلى المشاهدة : مشاهدة هذه اللوحة الطبيعية التي يوجه إليها الأنظار ، لتراها بالبداهة الملهمة والحس البصير ، بعد أن تتملاها الأبصار .

٣ ـ وهذا منظر من مناظر الطبيعة المتحركة في الجو ، يعرضه خطوة خطوة ، وفي كل خطوة مشهد :

﴿ اللهُ الذي يُرْسِلُ الرياحَ ، فَتُثيرُ سَحَاباً ، فيَبْسطه في السماءِ

كيفَ يَشاء ، ويَجْعَلهُ كِسْفاً ، فَتَرى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِن خِلالِهِ ، فإذا أصابَ بهِ مَن يَشاء مِنْ عِبادِهِ إذا هُم يَسْتَبْشِرونَ ، وإنْ كانوا مِنْ قَبْلُ أنْ يُنْزِلَ عَلَيهم مِن قبله لَمُبْلِسينَ . فانظر إلى آثارِ رَحْمَة اللهِ كَيْفَ يحيي الأرْضَ بَعْدَ مَوْتها . إنَّ ذلك لمحيي المَوْتى ، وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ ﴾ .

هكذا لوحة بعد لوحة : إرسال الرياح . إثارة السحاب . بسطه في السماء . جعله متراكماً . خروج المطر من خلاله . نزول المطر . استبشار من يصيبهم بعد أن كانوا يائسين . إحياء الأرض بعد موتها .

لينتقل من هذه المشاهد المتتابعة بعد استعراضها للعين والخيال ، وبعد تركها تؤثر في النفس على مهل ، إلى : «إن ذلك لَمُحْيي الموتى ، وهو على كل شيء قدير» ، فيجيء هذا التقرير ، في أنسب الأوقات للتقرير .

٤ ـ ولئن كان المشهد الثالث في الجواء ، فالمشهد الرابع في الأرضين ، وهو من ذلك المشهد بسبيل :

﴿ ألَمْ تَرَ أنَّ اللهَ أنْزَلَ مِنَ السماء ماءً فَسَلَكَهُ يَنابيعَ في الأرضِ ؛ ثمَّ يُخْرِجُ به زَرعاً مُخْتَلِفاً ألوانه ؛ ثمَّ يَهيجُ فتَراهُ مُصْفَرّاً ؛ ثمَّ يجعلهُ حُطاماً . إنَّ في ذلِكَ لَذِكْرى لأولي الألباب ﴾ .

فهذا مشهد من مشاهد الأرض كذلك متعدد الخطوات ، وهو يعرض في بطء وتفصيل ، وتترك كل خطوة للعين مدة كافية للتأمل ، وللنفس مدة كافية للتأثر . هذا هو الماء يُنزَل من السماء ، فيسلَك ينابيع للري . ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه . ثم يهيج هذا

الزرع وينضج فتراه مصفراً . ثم ييبس فيصير حطاماً . و « ثم » في كل مرة تعطي هذه « المهلة » للعين والنفس ، لتملي المشهد المعروض قبل طيّه ، وعرض المشهد التالي (وذلك فن من تناسق العرض سيأتي تفصيله في الفصل الخاص به) .

٥ ـ وفي الجو مشاهد أخرى حية . فهناك الطير التي تطير باسطة أجنحتها ، صافة أقدامها ، ثم تقبض أجنحتها كذلك عند الهبوط :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إلى الطَّيرِ فَوْقهم صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ، ما يُمْسِكُهُنَّ إلاَّ الرَّحْمنُ ﴾ .

إنه مشهد واحد ذو منظرين . منظر الطير باسطات أجنحتها صافات أرجلها ، ومنظرها كذلك قابضات . وهي صورة حية متحركة ، يراها الناس كل لحظة ، فيمرون بها غافلين ، فهو يلفت إليها أنظارهم ، ليروها بالحس الشاعر المتأثر ، دليلاً على قدرته ورحمته .

٦ ـ وفي الأرض مشهد آخر متكرر ، يمر به الناس غافلين كذلك ، وفي تأمله وتتبع حركته الوئيدة التي تكاد تتم في الخيال ـ وإن كانت معروضة في العيان ـ ما يلمس النفس ، ويؤثر في الوجدان ، ويتيح الفرصة لألوان شتى من التأملات . ذلك منظر الظل الذي تلقيه الأجرام فيبدو ساكناً ، وهو يتحرك ببطء لطيف :

﴿ أَلَمْ تَرَ إلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظلّ ، ولَوْ شاءَ لجعَلَهُ ساكناً ، ثمَّ جَعَلْنا الشَّمْسَ عليهِ دَليلاً ، ثمَّ قَبَضْناهُ إلَينا قَبْضاً يَسيراً ﴾ .

وفي هذا المشهد جمال طبيعي يغري الخيال بالجولان ، ويملي للخواطر في الهيمان . وكم في المشاهد المألوفة المكرورة ما يبدو جديداً ، كأنما تتملاه العين أول مرة ، حين تتجه إليه بالحس الشاعر المتفتح ، والعين المتيقظة للألوان .

٧ ـ وفي الأرض مشاهد أخرى لعل من أشدها أثراً في الحس والنفس تلك الرسوم الدوارس ، والربوع الخوالي ، وما تخيّله للحس من صور الحياة الغابرة ، ومن أشباح الأحياء الداثرة . فهي مشاهد للعين في الظاهر ، وللنفس في الضمير . والقرآن يوجه إليها النظر ، ثم يرد الخيال إلى الحياة الغابرة فيها ، الداثرة منها :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيروا في الأَرْض ، فَيَنْظُروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِم ؟ كانوا أَشَدَّ منهم قُوَّةً ، وأثاروا الأَرْضَ ، وعَمَرُوها أَكْثَر مما عَمَرُوها ، وجاءتهم رُسُلهم بالبَيِّنات ، فما كانَ الله ليظلمهم ، ولٰكِنْ كانوا أَنْفُسهم يَظْلِمونَ ﴾ .

* * *

التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن ، وهو القاعدة الأولى فيه للبيان ، وهو الطريقة التي يتناول بها جميع الأغراض ، وهو الخصيصة التي لا يخطئها الباحث في جميع الأجزاء .

وهذا الفصل هو مصداق هذا الكلام .

التخييل الحسي والتجسيم

حينما نقول : إن التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن ، والقاعدة الأولى فيه للبيان ؛ لا نكون قد انتهينا من الحديث عن هذه الظاهرة الشاملة . فإن وراء ذلك بقية تستحق أن نفرد لها هذا الفصل الخاص .

فعلى أية قاعدة يقوم هذا التصوير ؟

لقد ألمعنا إلى شيء من ذلك في مفتتح الفصل السابق ، حينما قلنا : « إنه يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية ، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية ، كما يعبر بها عن الحادث المحسوس ، والمشهد المنظور ؛ ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها ، فيمنحها الحياة الشاخصة ، أو الحركة المتجددة ؛ فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة ، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ، وإذا النموذج الإنساني شاخص حيّ . فأما الحوادث والمشاهد ، والقصص والمناظر ، فيردها شاخصة حاضرة ، فيها الحياة ، وفيها الحركة ، فإذا أضاف إليها الحوار ، فقد استوت لها كل عناصر التخييل » .

وكل ما تقدم من الأمثلة في الفصل السابق يصلح برهاناً على هذه الظاهرة ، وإن تكن سياقته في ذلك الفصل كانت سريعة لمجرد البرهنة على أن التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن . ولكننا في هذا الفصل لا نكتفي بالإحالة على تلك الأمثلة ، فالقرآن

بين أيدينا حافل بالأمثلة الجديدة . ونحن نختار منها هنا بعض ما له دلالة خاصة على هذه الطريقة المعينة : ظاهرة التخييل الحسي والتجسيم في ذلك التصوير .

قليل من صور القرآن هو الذي يعرض صامتاً ساكناً ـ لغرض فني يقتضي الصمت والسكون ـ أما أغلب الصور ففيه حركة مضمرة أو ظاهرة ، حركة يرتفع بها نبض الحياة ، وتعلو بها حرارتها . وهذه الحركة ليست مقصورة على مشاهد القصص والحوادث ، ولا على مشاهد القيامة ، ولا صور النعيم والعذاب ، أو صور البرهنة والجدل . بل إنها لتلحظ كذلك في مواضع أخرى لا ينتظر أن تلحظ فيها .

ويجب أن ننبه إلى نوع هذه الحركة ، فهي حركة حيَّة مما تنبض به الحياة الظاهرة للعيان ، أو الحياة المضمرة في الوجدان . هذه الحركة هي التي نسميها « التخييل الحسي » ، وهي التي يسير عليها التصوير في القرآن لبث الحياة في شتى الصور ، مع اختلاف الشيات والألوان .

وظاهرة أخرى تتضح في تصوير القرآن وهي « التجسيم » : تجسيم المعنويات المجردة ، وإبرازها أجساماً أو محسوسات على العموم . وإنه ليصل في هذا إلى مدى بعيد ، حتى ليعبر به في مواضع حساسة جد الحساسية ، يحرص الدين الإسلامي على تجريدها كل التجريد ، كالذات الإلٓهية وصفاتها . ولهذا دلالته الحاسمة ، أكثر من كل دلالة أخرى ، على أن طريقة « التجسيم » هي الأسلوب المفضل في تصوير القرآن ، مع الاحتراس والتنبيه إلى خطورة التجسيم في الأوهام .

والآن نأخذ في ضرب الأمثال .

* * *

١ ـ لون من ألوان «التخييل» يمكن أن نسميه «التشخيص» يتمثل في خلع الحياة على المواد الجامدة ، والظواهر الطبيعية ، والانفعالات الوجدانية . هذه الحياة التي قد ترتقى فتصبح حياة إنسانية ، تشمل المواد والظواهر والانفعالات ؛ وتهب لهذه الأشياء كلها عواطف آدمية ، وخلجات إنسانية ، تشارك بها الآدميين ، وتأخذ منهم وتعطي ؛ وتتبدى لهم في شتى الملابسات ؛ وتجعلهم يحسون الحياة في كل شيء تقع عليه العين ، أو يتلبس به الحس ، فيأنسون بهذا الوجود أو يرهبونه ، في توفز وحساسية وإرهاف .

هذا هو الصبح يتنفس : «والصبح إذا تنفَّس» . فيخيّل إليك هذه الحياة الوديعة الهادئة التي تنفرج عنها ثناياه ، وهو يتنفس ، فتتنفس معه الحياة ، ويدب النشاط في الأحياء ، على وجه الأرض والسماء .

وهذا هو الليل يسرع في طلب النهار ، فلا يستطيع له دركاً : «يُغشي الليل النهارَ يطلبه حثيثاً» . ويدور الخيال مع هذه الدورة الدائبة ، التي لا نهاية لها ولا ابتداء .

أو هذا هو الليل يسري : «والليل إذا يَسر» . فتحس سريانه في هذا الكون العريض ، وتأنس بهذا الساري على هينة واتئاد !

وهاتان هما الأرض والسماء عاقلتين ، يوجه إليهما الخطاب ، فتسرعان بالجواب :

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إلى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ، فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ : ائتِيَا طَوْعاً أَوْ كرهاً . قَالَتَا : أَتَيْنَا طَائِعين ﴾ .

والخيال شاخص إلى الأرض والسماء ، تُدعيان وتجيبان الدعاء .
وهذه هي الشمس والقمر والليل والنهار في سباق دائم ولكن :

﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغي لها أنْ تُدْرِكَ القَمَرَ ، ولا اللَّيلُ سابقُ النهارِ ﴾ .

وإنه لسباق جبّار ، لا يني أو يفتر في ليل أو نهار .
وهذه هي الأرض «هامدة» مرة و«خاشعة» مرة ، ينزل عليها الماء فتهتز وتحيا :

﴿ وتَرَى ٱلأَرْضَ هَامِدَةً ، فإذَا أَنزَلْنَا عَلَيْها ٱلمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، وَأَنبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ .

﴿ وَمِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خاشِعَةً ، فَإِذَا أنزلْنَا عَلَيْها الماء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ .

وهكذا تستحيل الأرض الجامدة ، كائناً حيّاً بلمسة واحدة في لفظة واحدة .
وهذه جهنم . جهنم النهمة المتغيّظة التي لا يفلت منها أحد ، ولا تشبع بأحد ! جهنم التي تدعو مَن كانوا يُدعوْن إلى الهدى ويدبرون ، وهم لدعوتها على الرغم منهم يجيبون ! جهنم التي ترى المجرمين من بعيد فتتغيَّظ وتفور ! :

﴿ يَوْمَ نَقولُ لِجَهَنَّمَ : هَل امْتَلأْتِ ؟ وتقولُ : هَلْ مِنْ مَزِيد ؟ ﴾ .
﴿ إذا رَأَتْهُمْ مِن مكانٍ بَعيدٍ سَمِعوا لها تَغَيُّظاً وزَفيراً ﴾ . ﴿ وإذا أُلْقُوا فيها سَمِعوا لها شَهيقاً وهيَ تَفورُ ، تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ ﴾ .

﴿ إنها لَظَى ، نَزّاعَةً لِلشَّوى ، تَدْعُو مَنْ أدْبَرَ وتَوَلَّى ، وجَمَعَ فَأوْعَى ﴾ .

وهذا هو الظل الذي يلجأ إليه المجرمون : « وظلٍّ مِن يَحموم . لا باردٍ ولا كريم » . ففي نفسه كزازة وضيق ، لا يحسن استقبالهم ، ولا يهش لهم هشاشة الكريم ، فهو ليس « لا بارد » فقط ، ولكن كذلك « ولا كريم » !

وهذه هي الرياح لواقح : « وأرسلنا الرياح لواقح » بما تحمل من ماء . ولكن التعبير عنها أكسبها حياة ، تلقح وتنتج !

وهذا هو الغضب ، أو هذا هو الروع، أو هذه هي البشرى ، تهيج وتسكن ، وتوحي وتسكت ، وتجيء وتذهب :

﴿ ولما سَكَتَ عَنْ مُوسى الغَضَبُ أخَذَ الألْواح ﴾ . ﴿ ولما ذَهَبَ عَنْ إبْراهيمَ الرَّوْعُ وجاءَتْهُ البُشْرى يجادلنا في قوم لُوط ﴾ ...

٢ ـ ولون من ألوان « التخييل » يتمثل في تلك الصوَر المتحركة التي يعبر بها عن حالة من الحالات أو معنى من المعاني . فصورة الذي يعبد الله على حرف « فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه » . وصورة المسلمين قبل أن يسلموا ، وهم « على شفا حفرة من النار » . وصورة الذي « أسّس بنيانه على شفا جُرف هارٍ فانهار به في نار جهنم » . كلها صور تخيل للحس حركة متوقعة في كل لحظة ، وتتم هذه الحركة في الصورة الأخيرة ، كما قلنا في فصل « التصوير الفني » .

وقريب من هذه الصور في التخييل صورة ولوج الجمل في سم الخياط . الموعد المضروب لدخول الكافرين الجنة بعد عمر

طويل . فالخيال يظل عاكفاً على تمثل هذه الحركة العجيبة ، التي لا تتم ولا تقف ما تابعها الخيال !

والصورة التي تخيلها الآية :

﴿ قُلْ لَوْ كانَ البحرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبي لَنَفَدَ البَحر قبلَ أنْ تَنفد كلمات ربي ولوْ جئْنا بمثلِهِ مَدَداً ﴾ .

فالخيال يظل يتصور تلك الحركة الدائبة : حركة الامتداد بماء البحر لكتابة كلمات الله ؛ في غير ما توقف ولا انتهاء ، إلا أن ينتهي البحر بالنفاد !

وشبيه بهذه الصورة ما تخيّله للحس هذه الآية :

﴿ فمن زُحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾ .

والآية : ﴿ وما هو بمُزَحزِحه من العذاب أن يُعمَّر ﴾ .

فلفظة الزحزحة ذاتها تخيل حركتها المعهودة (وهذا فن خاص سيأتي عنه الكلام) . وهذه الحركة تخيل الموقف على شفا النار ، ماثلاً للخيال والأبصار !

٣ ـ ولون من ألوان « التخييل » يتمثل في الحركة المتخيلة ، التي تلقيها في النفس بعض التعبيرات مثل : « وقَدِمنا إلى ما عملوا من عمل ، فجعلناه هباءً منثوراً » . وقد سجلنا منها في فصل « التصوير الفني » صورة الهباء المنثور ، التي هي صورة حسّيّة لإضاعة الأعمال . فالآن تلفتنا فيها لفظة « فقَدِمنا » ذلك أنها تخيل للحس حركة القدوم التي سبقت نثر العمل كالهباء . وهذا التخييل يتوارى بكل تأكيد لو قيل : وجعلنا عملهم هباءً منثوراً . حيث كانت

تنفرد حركة النثر وصورة الهباء ، دون الحركة التي تسبقها : حركة القدوم .

ومثلها : « قل : أندْعو من دون الله ما لا ينفعُنا ولا يضرُّنا ونُرَدُّ على أعقابنا » . فكلمات « نرد على أعقابنا » تخيل حركة حسيَّة للارتداد في موضع الارتداد المعنوي ، وتمنح الصورة حياة محسوسة .

ومن هذا القبيل : « ولا تتَّبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين » في موضع : لا تطيعوا الشيطان فإن كلمتيّ : تتبعوا ، وخطوات ، تخيِّلان حركة خاصة ، هي حركة الشيطان يخطو والناس وراءه يتبعون خطواته . وهي صورة حين تجسَّم هكذا تبدو عجيبة من الآدميين ، وبينهم وبين الشيطان الذي يسيرون وراءه ، ما أخرج أباهم من الجنة !

وكذلك : « واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان » . باختلاف يسير ، وهو أن الشيطان في هذه المرة هو الذي تبع هذا الضال ليغويه : « فكان من الغاوين » !

ومن هذا الوادي : « ولا تَقْفُ ما ليس لك به عِلم » فحركة الاقتفاء تتهيأ للذهن ، ويتمثلها الخيال ، بالجسم والأقدام ، لا بمجرد الذهن والجنان .

٤ ـ ولون من ألوان « التخييل » يتمثل في تلك الحركات السريعة المتتابعة التي عرضنا منها مثالاً في الفصل السابق ، صورة الذي يشرك بالله « فكأنَّما خرَّ من السماء فتخطفه الطير ، أو تهوي به الريح في مكان سحيق » .

وشبيه بها في سرعتها وتعدد مناظرها تلك الحركة المتخيلة في قوله :

﴿ مَنْ كانَ يَظُنُّ أنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ في الدُّنيا والآخِرَة ، فَلْيَمْدُدْ بِسَببٍ إلى السماء ثم لِيَقْطعْ ، فَلْيَنْظُرْ : هَلْ يُذْهِبَنَ كيدُهُ ما يغيظُ ؟ ﴾ .

وتلك صورة عجيبة ، فمن يئس من نصرة الله لنبيّه ، وضاق صدره ، وبلغ حنقه على هذه الحال مبلغاً لا يطيقه ، فليحاول أن يغيّر من هذه الحال ما استطاع ، ما دام لا يصبر ، ولا ينتظر وعد الله بالنصر .. ليمددْ إلى السماء بحبل يتعلق به ليصعد عليه ، فإذا لم يُجده هذا ، فليقطع هذا الحبل الممدود ، ثم لينظرْ : هل أفلح تدبيره هذا في إذهاب ما يغيظه ! لينظر ، إن كان قد بقي فيه شيء ينظر ، بعد قطع حبله الممدود ، وبعد السقطة التي يترقبها الخيال !

ومن هذا القبيل ـ مع شيء من التحوير والتلطيف يناسب المخاطب هنا ، وهو النبي صلى الله عليه وسلم ـ وقد عزَّ عليه إعراض المشركين ، وتمنى لو يستطيع هدايتهم للحق ، وإتيانهم بالمعجزة التي يطلبون :

﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِن اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِي نَفَقاً في ٱلأَرْضِ أَوْ سُلَّماً في السَّمَاءِ ، فَتَأْتِيهم بِآيَةٍ !﴾.

٥ ـ ولون من « التخييل » يتمثل في الحركة الممنوحة لما من شأنه السكون كقوله : « واشتعل الرأس شيباً » فحركة الاشتعال هنا تخيل للشيب في الرأس حركة كحركة اشتعال النار في الهشيم ، فيها حياة وجمال ، كما أسلفنا .

* * *

وأما « التجسيم » فقد وردت له أمثلة كثيرة في فصل « التصوير الفني » كذلك . ومنه كل التشبيهات التي جيء بها لإحالة المعاني

والحالات صوراً وهيئات . نذكر منها :

﴿ مَثَل الذينَ كَفَروا بربهم أعمالهم كرَمادٍ اشتَدَّتْ بهِ الرِّيحُ في يَوْمٍ عاصِفٍ ﴾ و ﴿ يـا أيُّها الذينَ آمَنوا لا تُبْطِلوا صَدَقاتكُم بالمَنِّ والأذى كالذي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ الناس ولا يُؤمن بالله واليومِ الآخر ، فمثله كمَثَل صَفْوانٍ عليهِ تُراب ﴾ . و ﴿ مَثَلُ الذينَ يُنْفِقونَ أموالهم ابتغاءَ مَرْضاةِ الله ، وتثبيتاً مِنْ أنْفُسِهِم ، كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ ... ﴾ ... إلخ

ومن هذا النوع :

﴿ ألَمْ تَرَ كيفَ ضَرَبَ الله مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ، أصلُها ثابتٌ وَفَرْعـها في السماءِ ، تُؤتي أكُلها كُلَّ حينٍ بإذْنِ ربها ، ويَضْرِب الله الأمثالَ ... ومَثَل كَلِمَة خَبيثة كشجَرَةٍ خَبيثَةٍ ، اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْق الأرضِ ما لها مِن قَرارٍ ﴾ .

ولكن الذي نعنيه هنا بالتجسيم ، ليس هو التشبيه بمحسوس ، فهذا كثير معتاد ، إنما نعني لوناً جديداً هو تجسيم المعنويات ، لا على وجه التشبيه والتمثيل ، بل على وجه التصيير والتحويل .

١ ـ يقول :

﴿ يَـوْمَ تَـجِدُ كُلَّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْـرٍ مُحْضَرا ، وما عَمِلَتْ مِنْ سوءٍ ، تَوَدُّ لَوْ أنَّ بينها وبَيْنه أمَداً بَعيداً ﴾ . أو ﴿ ووَجَدوا ما عَمِلوا حاضِراً ، ولا يَظْلِمُ ربّكَ أحَداً ﴾ . أو ﴿ وما تُقَدِّموا لأنْفُسِكُم مِن خَيْرٍ تَجِدوه عندَ الله ﴾ .

فيجعل كأن هذا العمل المعنوي مادة محسوسة . تُحضر (على وجه التجسيم) أو تَحضر هي (على وجه التشخيص) أو توجد عند الله كأنها وديعة تُسلَّم هنا فتتسلَّم هناك .

وقريب من هذا تجسيم الذنوب كأنها أحمال (تحمل على الظهور زيادة في التجسيم) : «وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم». «ولا تزرُ وَازرَةٌ وِزْرَ أخرى» .

ومن تجسيم المعنويات أمثال : «وتزوَّدُوا فإن خيرَ الزاد التقوى» فالتقوى زاد . أو «صبغةَ الله . ومن أحسنُ من الله صبغة ؟» فدين الله صبغة مُعْلَمة . أو «يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلْم كافة» فالسلم مما يُدخل فيه . أو «وذرُوا ظاهرَ الإثم وباطنه» فالإثم مما له ظاهر وباطن . إلى آخر هذا النحو من الإستعارات .

٢ ـ ويحدث عن حالة نفسية معنوية هي حالة التضايق والضجر والحرج . فيجسمها كحركة جثمانية :

﴿ ... وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا ، حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رَحُبتْ ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أنْ لا ملجأ من الله إلا إليه ﴾ .

فالأرضُ تضيق عليهم ، ونفوسهم تضيق بهم كما تضيق الأرض ؛ ويستحيل الضيق المعنوي في هذا التصوير ضيقاً حسّياً أوضح وأوقع ؛ وتتجسَّم حالة هؤلاء الذين تخلَّفوا عن الغزو مع الرسول ، فأحسّوا بهذا الضيق الخانق ، وندموا على تخلُّفهم ذلك الندم المحرج ، حتى لا يجدون لهم ملجأً ولا مفراً ، ولا يطيقون راحة ، إلى أن قبِل الله توبتهم[1] .

---

(١) الثلاثة هم : كعب بن مالك ، وهلال بن أميّة ، ومرارة بن الربيع .

ومثله : ﴿ وأنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إذ القُلوبُ لَدَى الحناجِرِ كاظِمينَ ، ما للظالمينَ من حميم ولا شفيع يُطاع ﴾ .

فالقلوب كأنما تفارق مواضعها وتبلغ الحناجر حقّاً من شدّة الضيق .

ومنه : ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم ، وأنتم حينئذ تنظرون ﴾ . كأنما الروح شيء مجسّم ، يبلغ الحلقوم في حركة محسوسة .

ومنه : ﴿ إلا الـذين يصِلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاقٌ ، أو جاءوكم حَصِرتْ صدورُهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومَهم ﴾ . أي ضاقت صدورهم من الحيرة والحرج ، بين أن يقاتلوكم انتصاراً لقومهم ، أو يقاتلوا قومهم انتصاراً لكم .

٣ ـ ويصف حالة عقلية أو معنوية ؛ وهي حالة عدم الإستفادة مما يسمعه بعضهم من الهدى ، وكأنهم لم يسمعوا به ، أو يتصلوا اتصالاً ما . فيجعل كأنما هناك حواجز مادية تفصل بينهم وبينه . مثل :

﴿ إنهم عَن السَّمْعِ لمعْزولونَ ﴾ . أو ﴿ وجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهمْ أكِنَّةً [١] أنْ يَفْقَهوهُ وفي آذانِهِمْ وَقْراً [٢] ﴾ . أو ﴿ أفلا يَتَدَبَّرونَ القُرآنَ ؟ أمْ على قُلوبٍ أقْفالُها ؟ ﴾ . أو ﴿ إنّا جَعَلْنا في أعْناقِهِمْ أغْلالاً فهِيَ إلى الأذْقانِ فهُمْ مُقْمَحُونَ [٣] ، وجَعَلْنا مِن بَين أيديهم

---

(١) أغطية .

(٢) الصمم وأصله الثقل .

(٣) مرفوعو الرأس اضطراراً .

سَدّاً ، ومِنْ خَلْفِهم سَدّاً ، فأَغْشَيناهُمْ فهُم لا يُبْصِرونَ ﴾ . أو ﴿ خَتَمَ الله على قلوبهِم وعلى سَمْعهم ، وعلى أبْصارِهِم غِشاوَةٌ ﴾ . أو ﴿ الذينَ كانتْ أعْيُنهم في غِطاءٍ عَنْ ذِكْري ﴾ .

وكلها تجسّم هذه الحواجز المعنوية ، كأنما هي موانع حسية ، لأنها في هذه الصورة أوقع وأظهر .

٤ ـ ويكون الوصف حسياً بطبيعته ، فيختار عن الوصف هيئة تجسمه . كقوله : « يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم » في مكان : يأتيهم من كل جانب ، أو يحيط بهم . لأن هيئة الغشيان من فوق ومن تحت أدخل في الحسية من الوصف بالإحاطة . ومثله : « إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم » و« ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » ...

ومن هذا النوع : « كأنما أغشِيَت وجوههم قِطَعاً من الليل مظلماً » فهذا السواد الذي أصاب وجوههم ليس لوناً ولا صبغة ، وإنما هو قطعة من الليل المظلم غشّيت بها وجوههم !

٥ ـ ومن « التجسيم » وصف المعنوي بمحسوس : كوصف العذاب بأنه غليظ « ومن ورائهم عذاب غليظ » . واليوم بأنه ثقيل . « ويَذَرُون وراءهم يوماً ثقيلاً » .

فينتقل العذاب من معنى مجرد إلى شيء ذي غلظ وسمك ؛ وينتقل اليوم من زمنٍ لا يمسك إلى شيء ذي كثافة ووزن !

٦ ـ وضرب الأمثلة على المعنوي بمحسوس ، كقوله : « ما جعل الله لرَجل من قلبين في جوفه » لبيان أن القلب الإنساني لا

يتّسع لاتجاهين . ومثل : «ولا تكونوا كالتي نقضَتْ غزْلها ـ من بعد قوة ـ أنكاثاً[1] » لبيان العبث في نقض العهد بعد المعاهدة . ومثل : «ولا يغتب بعضكم بعضاً . أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً ؟ » لتفظيع الغيبة ، حتى لكأنما يأكل الأخ لحم أخيه الميت !

٧ ـ ثم لما كان هذا التجسيم خطة عامة ، صوّرَ الحساب في الآخرة كما لو كان وزناً مجسماً للحسنات والسيئات :

﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ﴾ . ﴿ فأما من ثقلت موازينه ... وأما من خفت موازينه ﴾ . ﴿ وإن كان مثقال حبة من خَـرْدَل أتينـا بها ﴾ . ﴿ ولا يُظلمون فتيلاً ﴾ . ﴿ ولا يُظلمون نقيراً ﴾ .

وكل ذلك تمشياً مع تجسيم الميزان .

* * *

وكثيراً ما يجتمع التخييل والتجسيم في المثال الواحد من القرآن ، فيصور المعنوي المجرد جسماً محسوساً ، ويخيِّل حركة لهذا الجسم أو حوله من إشعاع التعبير . وفي الأمثلة السابقة نماذج من هذا ؛ ولكنا نعرض هذه الظاهرة في أمثلة جديدة ؛ فلدينا وفر من الأمثلة على كل قاعدة !

١ ـ من ذلك :

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بالحَقِّ على الباطِلِ ، فيدمغُهُ ، فإذا هُوَ زاهِقٌ ﴾ .

﴿ وقَذَفَ في قُلوبهم الرُّعْب ﴾ . ﴿ وألْقَينا بَينَهم العَداوة والبغضاء

---

(١) طاقات حلّ فتلها .

إلى يوم القيامَة ﴾ . ﴿ ثم أنزَلَ الله سَكِينَتَهُ على رَسولِهِ وعلى المؤمنين ﴾ . ﴿ واخفِضْ لهما جَناحَ الذُّلِّ مِن الرَّحْمَةِ ﴾ ...

فكأنما الحق قذيفة خاطفة تصيب الباطل فتزهقه . وكأنما الرعب قذيفة سريعة تنفذ في القلوب لفورها . وكأنما العداوة والبغضاء مادة ثقيلة ، تلقى بينهم ، فتبقى إلى يوم القيامة . وكأنما السكينة مادة مثبتة تنزل على رسول الله وعلى المؤمنين . وكأنما للذل جناح يُخفض من الرحمة بالوالدين .

وفي كل مثال من هذه يجتمع التجسيم ـ بإحالة المعنى جسماً ـ مع التخييل بحركة هذا الجسم المفروضة .

٢ ـ ومن ذلك : « بلى من كسبَ سيئة وأحاطت به خطيئتُه » و « ألا في الفتنة سقطوا » . فبعد أن تصبح الخطيئة شيئاً مادياً ، تتحرك حركة الإحاطة ، وبعد أن تصبح الفتنة لجة ، يتحركون هم بالسقوط فيها .

٣ ـ ومنه : « ولا تَلبِسوا الحق بالباطل » . « فاصْدَعْ بما تؤْمَرُ » . ففي المثال الأول يصبح الحق والباطل مادتين تستر إحداهما بالأخرى . وفي المثال الثاني يصبح ما أمر به مادة يشق بها ويصدع ، دلالة على القوة والنفاذ .

٤ ـ ومنه :

﴿ اللهُ وليُّ الذينَ آمنُوا يُخْرِجهُمْ مِنَ الظُلماتِ إلى النــور ، والذينَ كفَروا أولياؤُهم الطَّاغوتُ : يخرجونهم منَ النُّورِ إلى الظلمات ﴾ ﴿ فمَن يَكْفُر بالطَّاغوتِ ويُؤمِن باللهِ ، فَقَد استَمْسَكَ بالعُرْوةِ الوُثقَى ﴾ .

في المثال الأول يستحيل الهدى والضلال نوراً وظلمة ، ثم تبدأ عملية الإخراج المتخيلة . وفي المثال الثاني يصبح الإيمان عروة ، ثم تبدأ الحركة المتخيلة في الاستمساك بها . فتؤدي هذه الصور المجسّمة المتحركة إلى تمثل أوضح وأرسخ للمعنى الخيالي المجرد .

* * *

بهذه الطريقة المفضلة في التعبير عن المعاني المجردة ، سار الأسلوب القرآني في أخص شأن يوجب فيه التجريد المطلق ، والتنزيه الكامل : فقال :

﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أيْديهم ﴾ . ﴿ وكانَ عَرْشُهُ على الماءِ ﴾ . ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السماوات والأرض ﴾ . ﴿ ثم اسْتَوى على العَرْش ﴾ . ﴿ ثمَّ استَوَى إلى السماء وهيَ دُخان ﴾ . ﴿ والأرضُ جميعاً قَبْضَته يوم القيامَة والسماوات مَطويّات بيمينه ﴾ . ﴿ وما رَمَيْتَ إذْ رَمَيْت ولْكِنَّ اللهَ رَمَى ﴾ . ﴿ والله يقبض ويبسُط ﴾ . ﴿ وجاءَ رَبُّكَ والملَكُ صَفّاً صَفّاً ﴾ . ﴿ وقالَتِ اليهود : يَد الله مَغْلولَةٌ . غُلَّتْ أيديهم ولُعِنُوا بما قالوا ، بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتان ﴾ . ﴿ إني مُتَوفِيك ورافِعُكَ إليَّ ﴾ ... إلخ .

وثار ما ثار من الجدل حول هذه الكلمات ، حينما أصبح الجدل صناعة ، والكلام زينة . وإن هي إلا جارية على نسق متبع في التعبير ، يرمي إلى توضيح المعاني المجردة وتثبيتها ؛ ويجري على سنن مطرد ، لا تخلف فيه ولا عوج . سنن التخييل الحسي والتجسيم في كل عمل من أعمال التصوير .

ولكن اتباع هذا السنن في هذا الموضع بالذات ، قاطع في الدلالة ـ كما قلنا ـ على أن هذه الطريقة في القرآن أساسية في التصوير ؛ كما أن « التصوير هو القاعدة الأولى في التعبير » .

التناسق الفني

حينما نقول : إن التصوير هو القاعدة الأساسية في أسلوب القرآن ، وإن التخييل والتجسيم هما الظاهرتان البارزتان في هذا التصوير ، لا نكون قد بلغنا المدى في بيان الخصائص القرآنية بصفة عامة ، ولا خصائص التصوير القرآني بصفة خاصة . ووراء هذا وذاك آفاق أخرى يبلغ إليها النسق القرآني ؛ وبها تقويمه الصحيح من ناحية الأداء الفني .

هنالك التناسق الذي يبلغ الذروة في تصوير القرآن .

والتناسق ألوان ودرجات . ومن هذه الألوان ما تنبه إليه بعض الباحثين في بلاغة القرآن ؛ ومنها ما لم يمسسه أحد منهم حتى الآن .

١ ـ منها ذلك التنسيق في تأليف العبارات ، بتخير الألفاظ ، ثم نظمها في نسق خاص ، يبلغ في الفصاحة أرقى درجاتها . وقد أكثروا من القول في هذا اللون ، وبلغوا غاية مداه ؛ بل تجاوزوا الصحيح منه ، إلى التمحل الذي لا ضرورة له !

٢ ـ ومنها ذلك الإيقاع الموسيقي الناشئ من تخيّر الألفاظ ونظمها في نسق خاص . ومع أن هذه الظاهرة واضحة جدّ الوضوح في القرآن ، وعميقة كل العمق في بنائه الفني ؛ فإن حديثهم عنها لم يتجاوز ذلك الإيقاع الظاهريّ ؛ ولم يرتق إلى إدراك التعدد في الأساليب الموسيقية ، وتناسق ذلك كله مع الجوّ الذي تطلق فيه هذه الموسيقى ، ووظيفتها التي تؤديها في كل سياق .

٣ ـ ومنها تلك النكت البلاغية التي تنبَّه لها الكثيرون ؛ من التعقيبات المتفقة مع السياق ، كأن تجيء الفاصلة : « وهو على كل شيء قدير » بعد كلام يثبت القدرة ، والفاصلة : « إن الله عليم بذات الصدور » بعد كلام في وادي العلم المستور ... وكأن يعبر بالإسم الموصول لتكون جملة الصلة بياناً لعلة الجزاء ، مثل : « إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتَّح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط » ... وكأن يعبر بلفظ « الرب » في مواضع التربية والتعليم مثل : « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علَّم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » ؛ بينما يعبر بلفظ « الله » في مواضع التأليه والتعظيم مثل : « إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام » ... وكما يظهر اسم الجلالة أو يضمر لغرض يقتضيه السياق . وكما يقدم أو يؤخر ، ويصل أو يفصل ، ويطلق أو يقصر ، ويستفهم أو يقرر ... إلى آخر المباحث البلاغية المعروفة ... وفيهم من يعد هذا أقصى مظاهر البلاغة في تعبير القرآن !

٤ ـ ومنها ذلك التسلسل المعنوي بين الأغراض في سياق الآيات ، والتناسب في الانتقال من غرض إلى غرض . وبعضهم يتمحل لهذا التناسق تمحلاً لا ضرورة له ، حتى ليصل إلى حد من التكلف ، ليس القرآن في حاجة إلى شيء منه .

٥ ـ ولعل أعلى نوع من التناسق تنبهوا إليه هو هذا التناسق النفسي بين الخطوات المتدرجة في بعض النصوص ، والخطوات النفسية التي تصاحبها ، كالمثل الذي أخذناه من « الزمخشري »

عن الفاتحة ، في فصل « كيف فهم القرآن » .

ومع أن الخصائص التي طرقوها حقيقية وقيّمة ، فإنها لا تزال أولى مظاهر التناسق التي يلمحها الباحث في القرآن ؛ ووراءها آفاق أخرى لم يتعرضوا لها أصلاً ، فيما عدا ظاهرة الإيقاع الموسيقي ، فهي أحد هذه الآفاق العالية . ولكنهم كما قلت ، وقفوا عند مظاهرها الخارجية .

ولما كان التصوير في القرآن مسألة لم يعرضوا لها قط ، بوصفها أساساً للتعبير القرآني جملة ، فقد بقي التناسق الفني في هذا « التصوير » بعيداً عن آفاق بحثهم بطبيعة الحال .

وإذ كان قصدنا من هذا الكتاب ، هو أن نستعرض الآفاق الجديدة ، لا أن نكرر الاتجاهات التي اهتدى إليها الباحثون ، فإننا سنترك تفصيل القول في هذه الاتجاهات ـ مع اعتقادنا أن كل ما كتب فيها قابل للعرض في ضوء جديد ، للتقدم فيه خطوات بعيدة بعد آخر خطوة وقف عندها الأسلاف .

وسنكتفي في هذا الصدد بالنموذج الذي عرضناه للتناسق الداخلي بين المعاني والأهداف في « سورة العلق » ـ السورة الأولى ـ في فصل « منبع السحر في القرآن » . فهذا النموذج صورة مما يتجه إليه البحث المجدد في التسلسل الفكري والتناسق النفسي ، بين سياق القرآن .

ثم نشير مجرد إشارة إلى التناسق المعنوي والنفسي بين القصص التي يعرضها القرآن والسياق الذي يعرضها فيه ، وانسجام عرضها في هذا السياق مع الغرض الديني والمظهر الفني سواء بسواء (والمثال على هذا اللون من التناسق سيأتي في فصل « القصة في القرآن »)

ومثل القصص في هذا اللون من التناسق سائرُ ما يعرض من مشاهد القيامة ، وصور النعيم والعذاب ، والصور التي تساق في معرض الجدال ، فهو يعرض منسجماً مع الوسط الذي يعرض فيه ، ويؤدي الغرض النفسي الذي يرمي إليه .

* * *

ولكن هذا كله إنما ينتهي إلى تناسق المعاني والأغراض . والبحث في هذا النطاق مهما دق وارتفع يبقى في معزل عن أجمل وأبدع وسائل القرآن في التعبير ، وهو التصوير .

ولما كانت نقلة بعيدة أن نقفز من هذه السطوح المستوية إلى تلك القمم الشامخة ، فإننا سنختار أن نرقى إلى هذه الآفاق خطوة بعد أخرى ؛ حتى نتطلع إلى قممها البعيدة .

١ ـ هناك المواضع التي يتناسق فيها التعبير مع الحالة المراد تصويرها ؛ فيساعد على إكمال معالم الصورة الحسية أو المعنوية . وهذه خطوة مشتركة بين التعبير للتعبير ، والتعبير للتصوير ، فهي مفرق الطريق بين السطوح المستوية والقمم المتدرجة !

مثال ذلك : « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » فإن « الدواب » تطلق عادة على الحيوان ـ وإن كانت تشمل الإنسان فيما تشمل لأنه يدب على الأرض ـ ولكن شمولها هذا للإنسان ، ليس هو الذي يتبادر إلى الذهن ، لأن للعادة حكمها في الاستعمال . فاختيار كلمة « الدواب » هنا ، ثم تجسيم الحالة التي تمنعهم من الانتفاع بالهدى بوصفهم « الصم البكم » كلاهما يكمل صورة الغفلة والحيوانية ، التي يريد أن يرسمها لهؤلاء الذين لا يؤمنون لأنهم « لا يعقلون » .

ومن هذا النحو : « والـذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والنار مثوىً لهم » فقـد رسم لهم بهذا التشبيه صورة دقيقة : إنهم يأكلون ويتمتعون غافلين عن الجزاء الذي ينتظرهم ، كما تأكل الأنعام وتمرح ، غافلة عن شفرة القصاب ، أو غافلة عما سوى الطعام والشراب .

ومثال ذلك : « نساؤكم حرْثٌ لكم ، فأتوا حرثكم أنَّى شئتم » . وفي هذا التعبير ألوان من التناسق الظاهر والمضمر ، ومن لطف الكناية عن ملابسات دقيقة . وأدق ما فيه هو ذلك التشابه بين صلة الزارع بحرثه وصلة الزوج بزوجه في هذا المجال الخاص . وبين ذلك النبت الذي يخرجه الحرث ، وذلك النبت الذي تخرجه الزوج ؛ وما في كليهما من تكثير وعمران وفلاح . وكل هذه الصور تنطوي تحت استعارة في بضع كلمات .

٢ ـ وقد يستقل لفظ واحد ـ لا عبارة كاملة ـ برسم صورة شاخصة ـ لا بمجرد المساعدة على إكمال معالم صورة ـ . وهذه خطوة أخرى في تناسق التصوير ، أبعد من الخطوة الأولى ، وأقرب إلى قمة جديدة في التناسق . خطوة يزيد من قيمتها أن لفظاً مفرداً هو الذي يرسم الصورة ، تارة بجرسه الذي يلقيه في الأذن ، وتارة بظله الذي يلقيه في الخيال ، وتارة بالجرس والظل جميعاً .

تسمع الأذن كلمة « اثَّاقَلتم » في قوله : « يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم : انفروا في سبيل الله ، اثَّاقلتم إلى الأرض ؟ » فيتصور الخيال ذلك الجسم المُثَّاقل ، يرفعه الرافعون في جهد ، فيسقط من أيديهم في ثِقَل . إن في هذه الكلمة « طنّاً » على الأقل من الأثقال ! ولو أنك قلت : تثاقلتم ، لخف الجرس ، ولضاع

الأثر المنشود ، ولتوارت الصورة المطلوبة التي رسمها هذا اللفظ ، واستقل برسمها .

وتقرأ : «وإنَّ منكم لمن لَيُبَطِّئن» فترتسم صورة التبطئة في جرس العبارة كلها ــ وفي جرس «ليبطئن» خاصة . وإن اللسان ليكاد يتعثر ، وهو يتخبط فيها ، حتى يصل ببطء إلى نهايتها !

وتتلو حكاية قول هود : «أرأيتم إن كنت على بيِّنة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعُمِّيت عليكم . أنُلْزِمكموها وأنتم لها كارهون ؟» فتحس أن كلمة «أنلزمكموها» تصور جو الإكراه بإدماج كل هذه الضمائر في النطق ، وشد بعضها إلى بعض ، كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون ، ويشدون إليه وهم منه نافرون !

وهكذا يبدو لون من التناسق أعلى من البلاغة الظاهرية ، وأرفع من الفصاحة اللفظية ، اللتين يحسبهما بعض الباحثين في القرآن ــ قديماً وحديثاً ــ أعظم مزايا القرآن ! .

وتسمع كلمة : «يصْطرخون» في الآية :

﴿ والذينَ كَفَروا لهم نارُ جهنَّمَ ، لا يُقْضَى عليهِم فيَموتوا ، ولا يُخَفَّفُ عنهم مِن عذابها . كذلِكَ نجزي كُلَّ كَفور . وهُمْ يَصْطَرخونَ فيها : رَبَّنا أخرِجْنا نَعْمَل صَالِحاً غَيْرَ الذي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ .

فيخيِّل إليك جرسُها الغليظ ، غلظَ الصراخ المختلط المتجاوب من كل مكان ، المنبعث من حناجر مكتظة بالأصوات الخشنة ؛ كما تُلقِي إليك ظلَّ الإهمال لهذا الاصطراخ الذي لا يجد من يهتم به أو يلبيه . وتلمح من وراء ذلك كله صورة ذلك العذاب الغليظ الذي هم فيه يصطرخون .

وحين يستقل لفظ واحد بهذه الصور كلها يكون ذلك فناً من التناسق الرفيع .

ومثلها كلمة « عُتُلّ » في تمثيل الغليظ الجافي المتنطع : « عُتُلّ بعد ذلك زنيم » .

فإذا سمعت : « وما هو بمزَحزحه من العذاب أن يُعمَّر » صورت لك كلمة « بمزحزحه » ـ المقدمة في التعبير على الفاعل لإبرازها ـ صورة الزحزحة المعروفة كاملة متحركة ، من وراء هذه اللفظة المفردة .

وكذلك قوله : « فكُبكبوا فيها هم والغاوون وجنودُ إبليس أجمعون » . فكلمة « كبكبوا » يحدث جرسها صوت الحركة التي تتم بها .

وحقيقة إن وضع هاتين اللفظتين اللغوي هو الذي يمنحهما هذه الصورة ـ وليس هو استعمال القرآن الخاص لهما ، كما هو الشأن في الكلمات الماضية ، التي اشتقها خاصة أو استعملها أول مرة ـ ولكن اختيارهما في مكانيهما يحسب بلا شك في بلاغة التعبير .

ومن الأوصاف التي اشتقها القرآن ليوم القيامة : « الصَّاخَّة » و « الطَّامَّة » . والصاخة لفظة تكاد تخرق صماخ الأذن في ثقلها وعنف جرسها ، وشقه للهواء شقاً ، حتى يصل إلى الأذن صاخاً مُلِحّاً . والطامة لفظة ذات دويّ وطنين ، تخيّل إليك بجرسها المدوّي أنها تطم وتعم ، كالطوفان يغمر كل شيء ويطويه .

ضع هذه الألفاظ بجوار ذلك اللفظ المشرق الرشيق « تنفس » « والصبح إذا تنفس » تجد الإعجاز في اختيار الألفاظ لمواضعها ،

ونهوض هذه الألفاظ برسم الصور على اختلافها .

ومثلها التعبير عن النوم بالنعاس ، وعن التنويم بغشية النعاس : « إذ يُغشِّيكم النعاس أمَنَة منه » تجد جو النعاس الرقيق اللطيف ، وكأنه غشاء شفيف ، يغشى الحواس في لطف ولين : « أمَنَة منه » فالجو كله أمن ودعة وهدوء .

ونوع آخر من تصوير الألفاظ بجرسها يبدو في صورة الناس :

﴿ قُلْ أعوذُ بِرَبِّ النَّاس ، مَلِكِ الناس ، إلٰهِ الناس ، مِنْ شَرِّ الوَسْواسِ الخَنَّاس ، الـــذي يُوَسْوِسُ في صُدورِ الناس ، مِنَ الجِنَّةِ والنَّاسِ ﴾ .

اقرأها متوالية تجد صوتك يحدث « وسوسة » كاملة تناسب جو السورة . جو وسوسة « الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس » .

ونوع من هذا ـ ولكن فيه عنه اختلافاً ـ ذلك قوله : « كبُرَت كلمةً تخرجُ من أفواههم . إن يقولون إلا كذباً » فالمطلوب هنا هو تفظيع ما قالوا من أن الله اتخذ ولداً ، وتكبير هذه الفرية بكل طريقة . فقال : « كبرت » وأضمر الفاعل ؛ ثم جعل هذه الكلمة تمييزاً منكراً ، ليكون في الإضمار والتنكير معنى الاستنكار والتكبير « كبرتْ كلمةً » ثم جعلها تخرج من أفواههم خروجاً كأنها رمية من غير رام « تخرج من أفواههم » وتنسيقاً لجو التكبير كله جاءت كلمة « أفواههم » . وإنك لتحتاج في نطقها أن تفتح فاك بالواو الممدودة ، وأن تخرج هاءين متواليتين من الحلق في عسر ومشقة ، قبل أن تطبق « فاهك » على الميم الأخيرة !

وهناك نوع من الألفاظ يرسم صورة الموضوع ، ولكن لا بجرسه الذي يلقيه في الأذن ، بل بظله الذي يلقيه في الخيال ـ وللألفاظ كما للعبارات ظلال خاصة يلحظها الحس البصير ، حينما يوجه إليها انتباهه ، وحينما يستدعي صورة مدلولها الحسية .

مثال ذلك : « واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها » فالظل الذي تلقيه كلمة « انسلخ » يرسم صورة عنيفة للتملص من هذه الآيات ، لأن الانسلاخ حركة حسية قوية .

ومثله : « فأصبح في المدينة خائفاً يترقب » فلفظة « يترقب » ترسم هيئة الحذر المتلفت . (ولا نغفل هنا أنه خائف يترقب « في المدينة » موضع الأمن والاطمئنان عادة ، وإن كان هذا خاصّاً بالتعبير كله . ولكن العبارة هنا تبرز قيمة اللفظ المصوِّر للفزع في موطن الأمان !) .

ومن هذا الوادي كل النماذج التي عرضناها في فصل « التخييل الحسي والتجسيم » عن « التخييل » . فالظلال التي تلقيها التعبيرات هناك من هذا القبيل .

وقد يشترك الجرس والظل في لفظ واحد مثل « يوم يُدَعُّون إلى نار جهنم دَعّاً » فلفظ الدَّعّ يصور مدلوله بجرسه وظله جميعاً . ومما يلاحظ هنا أن « الدَّع » هو الدفع في الظهور بعنف ، وهذا الدفع في كثير من الأحيان يجعل المدفوع يخرج صوتاً غير إرادي فيه عين ساكنة هكذا : « أعْ » وهو في جرسه أقرب ما يكون إلى جرس « الدَّعْ » !

ومثله : « خذوه فاعْتِلُوه إلى سَواء الجحيم » فالعَتْل جرس في الأذن وظل في الخيال ، يؤديان المدلول للحس والوجدان .

ونستطيع أن نضيف إلى هذا الباب ألفاظاً مما ذكرنا هناك في الألفاظ الدالة بجرسها ، مثل « النعاس » و « التنفس » و « الطامة » . فلها كذلك ظلال بجانب ما لها من جرس . والتفرقة في الواقع عسيرة ، لأن الفوارق دقيقة لطيفة .

إنما تلتقي جميعاً عند تصوير الألفاظ للمدلولات ، لا من قبيل الدلالة المعنوية فحسب ، ولكن من قبيل الطريقة التصويرية التخييلية ، وهو ما يعنينا خاصة في هذا المقام .

٣ ـ وهناك تلك المقابلات الدقيقة بين الصور التي ترسمها التعبيرات (والتقابل طريقة من طرق التصوير وطريقة من طرق التلحين . والتعبير القرآني يكثر من استخدامها في تنسيق صوره التي يرسمها بالألفاظ على نحو دقيق) .

من ذلك هاتان الصورتان السريعتان للبثّ والجمع في قوله :

﴿ ومن آياته خَلْقُ السماوات والأرض وما بثَّ فيهما من دابة ، وهو على جَمْعهم ، إذا يشاء قديرٌ ﴾ .

فصورة بث الدواب ، وصورة جمعها ، تلتقيان في سطر ، بينما الخيال نفسه يكاد يستغرق مدى أطول في تصورهما : واحدة بعد الأخرى .

ومن ذلك الصورتان اللتان يعرضهما لإماتة الأحياء وإحياء الموتى في قوله :

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِن قَبْلِهِمْ مِنَ القُرون يَمْشونَ في مَساكِنِهم ؟ إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ . أفَلاَ يَسْمَعونَ ؟ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الماء إلى الأرْض الجُرُز فَنُخْرِجُ به زَرْعاً تَأكُلُ منه أنْعامُهُم وأنْفُسهم . أفَلا يُبْصِرونَ ؟ ﴾ .

في ومضة عين نقلهم من القرى المهلكة الداثرة بعد الحياة والعمران ، إلى الأرض الحية الممرعة بعد الموت والإجداب . فالتقابل هنا بين حالتين وحالتين في الواقع لا بين حالة وحالة .

هذه المقابلة تكاد تضطرد في صور النعيم والعذاب في الآخرة ، وهي كثيرة جداً في القرآن ، فنكتفي هنا بأمثلة منها .

في وسط الهول الذي ترسم صورته هذه الفقرات :

﴿ كَلاَّ إذا دُكَّتِ الأرضُ دَكّاً دَكّاً ، وجاءَ رَبُّكَ والمَلَكُ صَفّاً صَفّاً ، وجيءَ يَوْمَئِذٍ بجهَنَّمَ . يومَئذٍ يتذكَّر الإنسانُ ، وأَنَّى لَهُ الذِكرى ، يقولُ : يا لَيْتَني قَدَّمْتُ لحياتي . فَيَومَئذٍ لا يُعَذِّبُ عَذابَهُ أَحَدٌ ولا يُوثِقُ وثاقَهُ أحَدٌ ﴾ .

في وسط هذا الروع الذي يبثّه ذلك العرض العسكري ـ الذي تشترك فيه جهنم ـ بموسيقاه العسكرية المنتظمة الدقات ، المنبعثة من البناء اللفظي الشديد الأسر ، وبين العذاب الفذ والوثاق النموذجي .. يقال لمن آمن :

﴿ يا أَيَّتُها النَّفْسُ المطْمَئِنَّةُ ، ارْجِعي إلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً ، فادْخُلي في عِبادِي وادْخُلي جَنَّتي ﴾ .

هكذا في عطف ولطف : « يا أيتها » وفي روحانية وتكريم : « يا أيتها النفس » . « المطمئنة » في وسط هذا الروع . « ارجعي إلى ربك » بما بينك وبينه من صلة وإضافة . « راضية مرضية » بهذا الانسجام الذي يغمر الجو كله بالرضى والتعاطف . « فادخلي في عبادي » ممتزجة بهم متوادة معهم . « وادخلي جنتي » المضافة لي .

والموسيقى حول المشهد مطمئنة متموجة رخية . في مقابل تلك الموسيقى القوية العسكرية .

ذلك نموذج من المقابلة النفسية بين الكافرين والمؤمنين ، فلنعرض نموذجاً للعذاب الحسي والنعيم المادي ، متقابلين أيضاً :

﴿ هَلْ أتاكَ حَديثُ الغاشِيَةِ ؟ وُجوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ ، عامِلَةٌ ناصِبَةٌ ، تَصْلىٰ ناراً حَامِيَةً ، تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ [1] ، لَيْسَ لهمْ طَعامٌ إلاَّ مِنْ ضَريعٍ [2] ، لا يُسْمِنُ ولا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴾ .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ، لِسَعْيِهَا راضِيَةٌ ، في جَنَّةٍ عالِيَةٍ ، لا تَسْمَعُ فيها لاغِيَةً ، فيها عَيْنٌ جارِيَةٌ ، فيها سُرُرٌ مَرْفوعَةٌ ، وأكْوابٌ مَوْضوعَةٌ ، ونَمارِقُ مَصْفوفَةٌ ، وزَرابيُّ مَبْثوثَةٌ ﴾ .

فهنا تقابل في جو العذاب وجو النعيم ، وفي كل جزئية من الجزئيات هنا وهناك . ومثل هذا كثير .

٤ ـ وهناك نوع من التقابل ، ولكن لا بين صورتين حاضرتين كما هو الحال هنا [3] ، بل بين صورتين : إحداهما حاضرة الآن ، والأخرى ماضية في الزمان . حيث يعمل الخيال في استحضار هذه الصورة الأخيرة ليقابلها بالصورة المنظورة .

من ذلك :

﴿ خلَق الإنسانَ من نُطفة ، فإذا هو خَصيم مُبين ﴾ .

---

(١) شديدة الحرارة .

(٢) يابس (الشبرق) وهو شوك ترعاه الإبل ما دام رطباً .

(٣) هما حاضرتان في الخيال وإن كانتا من صور القيامة الآجلة .

فالصورة الحاضرة هنا هي صورة الإنسان «الخصيم المبين» والصورة الماضية هي صورة النطفة الحقيرة . وبين الصورتين مسافة بعيدة يراد إبرازها لبيان هذه المفارقة في تصرف الإنسان . ولهذا جعل الصورتين متقابلتين ، وأغفل المراحل بينهما ، لتؤدي المفارقةُ الواضحة هذا الغرض الخاص . بالتقابل التخييلي بين حال وحال .

ومنه قوله :

﴿ وذَرْني والمكذّبين – أولي النّعْمةَ – ومَهِّلْهم قليلاً . إنَّ لَدَيْنا أنْكالاً وجحيماً وطعاماً ذا غُصَّة ، وعذاباً أليماً ﴾ .

فالمقابلة هنا بين صورة «أولي النعمة» الحاضرة ، وصورة الطعام ذي الغصة المتخيَّلة ، لها قيمتها الفنية بجانب قيمتها الدينية .

ومنه :

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ، الَّذي جَمَعَ مالاً وَعَدَّدَهُ ، يَحْسَبُ أنَّ مَالَهُ أخْلَدَهُ . كَلاَّ ! لَيُنْبَذَنَّ في الحُطَمَةِ ، ومَا أدْرَاكَ ما الحُطَمَةُ ، نارُ اللهِ المُوقَدَةُ ، الَّتي تَطَّلِعُ على الأفْئِدَةِ ، إنَّها عَلَيْهِم مُؤْصَدَةٌ ، في عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ .

فصورة الهمزة اللمزة الذي يهزأ بالناس ويلمزهم ، والذي جمع مالاً وعدده ، صورة هذا المتعالي الساخر ، تقابلها صورة «المنبوذ» والمنبوذ في «الحُطَمَة» التي تحطم كل ما يلقى إليها ، فتحطم كبرياءه وقوته وجاهه ، وهي النار «تطَّلع» على فؤاده ، الذي ينبعث منه الهمز واللمز ، ويخفي فيه التعاظم والكبرياء . وتكملة لصورة المنبوذ المحطم المهمل : هذه الحطمة مقفلة عليه لا ينقذه منها أحد ، ولا يسأل عنه فيها أحد .

ومثلها :

﴿ وأصْحابُ الشِّمالِ . ما أصْحاب الشِّمال ! في سَمُومٍ وحَميمٍ . وظِلٍّ مِنْ يَحْمومٍ . لا بارد ولا كريم . إنهم كانوا قَبْل ذلك مُتْرَفين ﴾ .

فالسموم والحميم ، والظل الذي ليس له من الظل إلا اسمه ، لأنه « من يحموم » « لا بارد ولا كريم » .. صورة هذا الشظف تقابل صورة الترف : « إنهم كانوا قبل ذلك مترفين » .

وهنا موضع تأمل لطيف في هذا التصوير وفيما يماثله : فهؤلاء المتحدَّث عنهم يعيشون في الدنيا الحاضرة ، وصورة الترف هي الصورة القريبة . أما ما ينتظرهم من السموم والحميم والشظف فهو الصورة البعيدة . ولكن التصوير هنا لفرط حيويته يخيِّل للقارئ أن الدنيا قد طويت ، وأنهم الآن هناك ؛ وأن صورة الترف قد طويت كذلك ، وصورة الشظف قد عرضت . وأنهم الآن يُذَكَّرون في وسط السموم والحميم ، بأنهم « كانوا قبل ذلك مترفين » ! وذلك من عجائب التخييل . ولكنه النسق المتَّبع غالباً في القرآن ، والذي يلبي طلبة الفن والدين في آن : يلبي طلبة الفن في قوة الإحياء ، حتى لينسى المشاهد أن هذا مثل يُضرب ، ويحس أنه حاضر يشهد ؛ ويلبي طلبة الدين ، لأن الإحساس بالمغيَّب حاضراً مما يلمس الوجدان ، ويهيئ لدعوة الإيمان .

ومن هذا النحو :

﴿ خُذُوهُ فاعْتِلُوهُ إلى سَواءِ الجَحيم ، ثمَّ صُبُّوا فَوقَ رأْسِهِ من عذاب الحميم . ذُقْ ، إنَّكَ أنْتَ العَزيزُ الكريمُ ﴾ .

ومن نماذج المقابلة تلك الصورة :

﴿ كَلاَّ إذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ وقِيلَ : مَنْ راقٍ ، وظَنَّ أَنَّهُ الفِراقُ ، والتَفَّتِ السَّاقُ بالسَّاق ، إلى ربِّكَ يَوْمَئذٍ المسَاقُ . فلا صَدَّقَ ولا صَلَّى ، ولٰكِنْ كَذَّبَ وتَوَلَّى ، ثمَّ ذَهَبَ إلى أهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴾ .

وقد سار فيها على النسق الذي تحدثنا عنه آنفاً ، فجعل الصورة الثانية هي الماضية التي انطوت وانطوت معها الدنيا ، والصورة الأولى هي الحاضرة التي يعانيها ولا يخلص منها . ليرى هذا الذي التفَّت منه الساق بالساق من الهول والرعب ، أو من الداء والألم ، وبلغت روحه التراقيَ ، وتساءل من تساءل : ألا منْ رَاقٍ يرقيه ويرفع عنه هذه الحال ـ كما يُرْقَى المصروعون والممسوسون ـ وظنَّ أنه مفارق أهله هؤلاء .. ليرى صورته هذه ويستحضر صورته الأخرى ، يوم أن كذَّب وتولى وذهب إلى أهله يتمطَّى . إنه سيستعرض الصورتين ، ولكن بعد فوات الأوان ، فلقد : « التفَّت الساق بالساق » ولا وقت هناك ، فإن « إلى ربك يومئذ المساق » .

* * *

وبعد ، فنحن نستطيع أن نغفل كل ما ذكرناه آنفاَ ، وما ذكره غيرنا من ألوان التناسق في القرآن ، لنرقى إلى ألوان أخرى من التناسق الفني ، لم نتعرض لها حتى الآن ؛ فتكون هذه الألوان الأخرى حسب الكتاب كله في التناسق والانسجام !

١ ـ قلنا : إن في القرآن إيقاعاً موسيقياً متعدد الأنواع ، يتناسق

مع الجو ويؤدي وظيفة أساسية في البيان[١] .

ولما كانت هذه الموسيقى القرآنية إشعاعاً للنظم الخاص في كل موضع ، وتابعة لقصر الفواصل وطولها ، كما هي تابعة لانسجام الحروف في الكلمة المفردة ، ولانسجام الألفاظ في الفاصلة الواحدة .. فإننا نؤثر أن نتحدث عن هذه الظواهر كلها مجتمعة .

جاء في القرآن الكريم : «وما علمناه الشعر ـ وما ينبغي له ـ إنْ هو إلا ذكرٌ وقرآن مبين» .

وجاء فيه حكاية عن كفار العرب : «بل افتراه . بل هو شاعر» .

وصدق القرآن الكريم ، فليس هذا النسق شعراً . ولكن العرب كذلك لم يكونوا مجانين ولا جاهلين بخصائص الشعر ، يوم قالوا عن هذا النسق العالي : إنه شعر !

لقد راع خيالهم بما فيه من تصوير بارع ؛ وسحر وجدانهم بما فيه من منطق ساحر ؛ وأخذ أسماعهم بما فيه من إيقاع جميل . وتلك خصائص الشعر الأساسية ، إذا نحن أغفلنا القافية والتفاعيل .

على أن النسق القرآني قد جمع بين مزايا النثر والشعر جميعاً . فقد أعفي التعبير من قيود القافية الموحدة والتفعيلات التامة ؛ فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة . وأخذ في الوقت ذاته من الشعر الموسيقى الداخلية ، والفواصل المتقاربة في الوزن التي تغني عن التفاعيل ؛ والتقفية المتقاربة التي تغني عن القوافي ؛

---

(١) تفضّل الموسيقي المبدع الأستاذ «محمد حسن الشجاعي» بمراجعة هذا الجزء الخاص بالموسيقى في القرآن . وكان له الفضل في ضبط بعض المصطلحات الفنية الموسيقية .

وضم ذلك إلى الخصائص التي ذكرنا ، فنشأ النثر والنظم جميعاً[1] .

وحينما تلا الإنسان القرآن أحسَّ بذلك الإيقاع الداخلي في سياقه ؛ يبرز بروزاً واضحاً في السور القصار ، والفواصل السريعة ، ومواضع التصوير والتشخيص بصفة عامة ؛ ويتوارى قليلاً أو كثيراً في السور الطوال ، حتى تنفرد الدقة دونه في آيات التشريع . ولكنه ـ على كل حال ـ ملحوظ دائماً في بناء النظم القرآني .

وها نحن أولاء نتلو سورة النجم مثلاً :

﴿ والنَّجْمِ إذا هَوَىٰ ، ما ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وما غَوَىٰ ، وما يَنْطِقُ عَنِ الهوَىٰ ، إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ، عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوَىٰ ، ذو مِرَّةٍ فاسْتَوَىٰ ، وهُوَ بالأُفُقِ الأعْلَىٰ ، ثمَّ دَنا فَتَدَلَّى ، فكانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أو أدْنَىٰ ، فَأَوْحَىٰ إلى عَبْدِهِ ما أوحَىٰ ، ما كَذَبَ الفُؤادُ ما رَأىٰ ، أفَتمَارُونَهُ على ما يَرَىٰ ؟ ولَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أخرى ، عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهىٰ ، عِنْدَها جَنَّةُ المأْوىٰ ، إذْ يَغْشَى السِّدْرَة ما يَغْشَى ، ما زاغَ البصَرُ وما طَغَى ، لَقَدْ رأى مِن آياتِ رَبِّه الكبرىٰ ، أفَرَأيْتُمُ اللاَّتَ والعُزَّىٰ ، ومَنَاةَ الثالِثَةَ الأُخْرَى ؟ ألَكُمُ الذَّكَرُ ولَهُ الأُنْثَىٰ ؟ تِلكَ إذَنْ قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ! ﴾ .

هذه فواصل متساوية في الوزن تقريباً - على نظام غير نظام

---

(١) يقول الدكتور طه حسين : إن القرآن ليس شعراً وليس نثراً . إنما هو قرآن ! ولسنا في حاجة إلى هذا اللعب بالعبارات ، فالقرآن نثر متى احتكمنا للاصطلاحات العربية كما ينبغي . ولكنه نوع ممتاز مبدع من النثر الفني الجميل المتفرد .

الشعر العربي – متحدة في حرف التقفية تماماً ، ذات إيقاع موسيقي متحد تبعاً لهذا وذلك ، وتبعاً لأمر آخر لا يظهر ظهور الوزن والقافية ، لأنه ينبعث من تآلف الحروف في الكلمات ، وتناسق الكلمات في الجمل ؛ ومرده إلى الحس الداخلي والإدراك الموسيقي ، الذي يفرق بين إيقاع موسيقي وإيقاع ، ولو اتحدت الفواصل والأوزان .

والإيقاع الموسيقي هنا متوسط الزمن تبعاً لتوسط الجملة الموسيقية في الطول ، متحد تبعاً لتوحد الأسلوب الموسيقي ، مسترسل الرويّ كجو الحديث الذي يشبه التسلسل القصصي . وهذا كله ملحوظ . وفي بعض الفواصل يبدو ذلك جليّاً مثل : « أفرأيتم اللاتَ والعُزّى ، ومناة الثالثة الأخرى » . فلو أنك قلت : أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة ، لاختلت القافية ، ولتأثر الإيقاع . وكذلك في قوله : « ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك – إذن – قسمة ضيزى » فلو قلت : ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك قسمة ضيزى ، لاختل الإيقاع المستقيم بكلمة « إذن » .

ولا يعني هذا أن كلمة « الأخرى » وكلمة « إذن » زائدتان لمجرد القافية أو الوزن ، فهما ضروريتان في السياق لنكت معنوية خاصة . وتلك ميزة فنية أخرى : أن تأتي اللفظة لتؤدي معنى السياق ، وتؤدي تناسباً في الإيقاع ، دون أن يطغى هذا على ذاك ، أو يخضع النظم للضرورات .

ملاحظة اتزان الإيقاع في الآيات والفواصل تبدو واضحة في كل موضع على نحو ما ذكرنا أو قريباً من هذه الدقة الكبرى . ودليل ذلك أن يُعدَل في التعبير عن الصورة القياسية للكلمة إلى

صورة خاصة ، أو أن يُبنى النسق على نحو يختل إذا قدمت أو أخرت فيه ، أو عدلت في النظم أي تعديل .

مثال الحالة الأولى حكاية قول إبراهيم :

﴿ قالَ : أفرَأيْتُمُ ما تَعبُدون ، أنتم وآباؤكُمُ الأقْدَمونَ ، فإنهم عَدوٌّ لي إلاَّ ربّ العالمينَ ، الذي خَلَقَني فَهُوَ يهدين ، والذي هُوَ يُطْعِمُني ويَسْقِين ، وإذا مَرضتُ فهو يشْفين ، والذي يُميتني ثم يُحْيين ، والذي أطْمَعُ أن يَغْفِرَ لي خَطيئتي يوم الدِّين ... ﴾ .

فقد خُطفتْ ياء المتكلم في « يهدين ويسقين ويشفين ويحيين » محافظة على حرف القافية مع « تعبدون ، والأقدمون ، والدين ... » . ومثله خطف الياء الأصلية في الكلمة ، نحو : « والفجر . وليال عشر . والشفع والوَتر . والليل إذا يسر ، هل في ذلك قسَم لذي حِجر ؟ » . فياء « يسري » حذفت قصداً للإنسجام مع « الفجر ، وعشر ، والوتر ، وحجر ... » .

ومثل :

﴿ يوم يدعو الداع إلى شيء نُكُر ، خُشعاً أبصارُهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر ، مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾ .

فإذا أنت لم تخطف الياء في «الداع» أحسست ما يشبه الكسر في وزن الشعر .

ومثله :

﴿ ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً ﴾ .

فلومددت ياء نبغي كما هو القياس لاختل الوزن نوعاً من الإختلال .

ومثل هذا يقع عند زيادة هاء السكت على ياء الكلمة أو ياء المتكلم في مثل :

﴿ وأمّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ ، وما أدراكَ ما هِيَهْ ، نارٌ حامية ﴾ .

ومثل :

﴿ فأمَّا مَنْ أوتِيَ كتابهُ بيَمِينِهِ ، فيقول : هاؤمُ اقرَأوا كِتابِيَهْ ، إنيِّ ظَنَنْتُ أنيِّ مُلاق حِسابِيَهْ ، فهو في عيشةٍ راضية ... ﴾ .

ومثال الحالة الثانية : ألا يكون هناك عدول عن صيغة قياسية ومع ذلك تلحظ الموسيقى الكامنة في التركيب ، والتي تختل لو غيرت نظامه مثل :

﴿ ذكْرُ رحمة ربك عبدَه زكريا ، إذ نادى ربه نداءً خفياً ، قال : رب إني وَهَنَ العظمُ مني واشتعل الرأس شيباً ، ولم أكن بدعائك رب شقيّاً ﴾ .

فلو حاولت مثلاً أن تغير فقط وضع كلمة « منّي » فتجعلها سابقة لكلمة « العظم » : قال رب إني وهن مني العظم . لأحسست بما يشبه الكسر في وزن الشعر ؛ ذلك أنها تتوازن مع « إني » في صدر الفقرة هكذا : « قال رب إني » « وهن العظم مني » .

على أن هناك نوعاً من الموسيقى الداخلية يلحظ ولا يشرح ـ كما أسلفنا ـ وهو كامن في نسيج اللفظة المفردة ، وتركيب الجملة الواحدة . وهو يدرك بحاسة خفية ، وهبة لدنية .

وهكذا تتبدى تلك الموسيقى الداخلية في بناء التعبير القرآني ،

موزونة بميزان شديد الحساسية ، تمليه أخفّ الحركات والاهتزازات ، ولو لم يكن شعراً ، ولو لم يتقيد بقيود الشعر الكثيرة ، التي تحد من الحرية الكاملة في التعبير الدقيق عن القصد المطلوب .

* * *

يتنوع نظام الفواصل والقوافي ، كما تتعدد ألوان الإيقاع الموسيقي ، فهل يجري ذلك على سنن خاصة ، ويؤدي إلى أهداف مقصودة ؟

ننظر في هذا الأفق الخاص من آفاق التناسق الموسيقى ، بعد أن ثبت وجود هذه الموسيقى .

أما نظام الفواصل والقوافي ، فقد لاحظنا أنه يتنوع في السور المختلفة ، وقد يتنوع في السورة الواحدة .

فأما تنوعه في السور فيختلف بالقياس إلى الفواصل بين الطول والتوسط والقصر ، وهو أشبه باختلاف بحور الشعر في الديوان الواحد . وقصارى ما يقال فيه : إن الفواصل تقصر غالباً في السور القصار ، وأنها تتوسط أو تطول في السور المتوسطة والطوال . وبالقياس إلى حرف القافية ، يشتد التماثل والتشابه في السور القصيرة ويقل غالباً في السور الطويلة . وتغلب قافية النون والميم وقبلهما ياء أو واو على جميع القوافي في سور القرآن . وذلك مع تعدد الأساليب الموسيقية ولو تشابهت القوافي في السور المختلفة(١) .

وأما تنوع هذا النظام في السورة الواحدة ، فقد لاحظنا في مرات كثيرة أن الفاصلة والقافية ، لا تتغيران لمجرد التنويع . وقد

---

(١) الأسلوب الموسيقي هنا يتبع طول الفاصلة وقصرها ، ومواضع الإيقاع فيها ، كما يتبع طريقة بنائها اللفظي من حيث السهولة والخشونة ... إلخ .

تبين لنا في بعض المواضع سر هذا التغير ، وخفي علينا السر في مواضع أخرى ، فلم نرد أن نتمحل له لنثبت أنه ظاهرة عامة ، كالتصوير ، والتخييل ، والتجسيم ، والإيقاع .

فمن المواضع التي لاحظنا فيها أن تغير نظام الفاصلة والقافية يعني شيئاً خاصاً ما جاء في سورة مريم . فالسورة تبدأ بقصة زكريا ويحيى ؛ وتليها قصة مريم وعيسى ، وتسير الفاصلة والقافية هكذا :

﴿ ذِكرُ رَحْمة رَبِّكَ عَبدهُ زكَريا ، إذ نادَى ربّه نداءً خَفِيّاً ، قال : ربِّ إني وَهَنَ العظْمُ مِنّي واشْتعَلَ الرأسُ شَيباً ؛ ولم أكُنْ بِدُعائِكَ ربِّ شَقِيّاً ﴾ ... إلخ

﴿ واذكُر في الكتابِ مَريمَ إذ انْتَبَذَتْ من أهلِها مكاناً شَرْقِيّاً ، فاتخذَتْ مِنْ دونهم حِجاباً ، فأرْسَلْنا إليها روحَنا فتَمَثَّلَ لها بَشَراً سَوِيّاً ، قالَت : إني أعوذُ بالرَّحْمٰن مِنكَ إنْ كُنتَ تَقيّاً » .. إلخ

إلى أن تنتهي القصتان على رَويّ واحد . وفجأة يتغيَّر هذا النسق بعد آخر فقرة في قصة عيسى على النحو التالي :

﴿ قالَ إنيَّ عَبْدُ الله آتانيَ الكتابَ وجَعَلَني نَبيّاً ، وجَعَلَني مُبارَكاً أينَما كُنْتُ وأوصاني بالصَّلاةِ والزَّكاة ما دُمْتُ حَيّاً ، وبرّاً بوالِدتي ولم يجعَلْني جبّاراً شَقِيّاً ، والسَّلامُ عَليَّ يَوْمَ وُلِدْتُ ويَومَ أموتُ ويومَ أُبْعَثُ حيّاً .. ذلكَ عيسى بنُ مَرْيم قوْلَ الحَقّ الذي فيهِ يَمْتَرونَ ، ما كانَ لِلّهِ أن يَتَّخِذَ مِن ولدٍ سُبْحانَهُ إذا قَضَى أمْراً فإنما يَقولُ لَهُ : كُنْ فَيَكون ، وإن الله ربي وربّكم فاعْبُدوهُ ، هذا

صِراطٌ مُسْتَقيمٌ . فاخْتَلَفَ الأحْزابُ من بَينِهِمْ ، فَوَيْلٌ لِلذِينَ كَفَروا مِنْ مَشْهَدِ يومٍ عَظيمٍ ... إلخ ﴾ .

وهكذا يتغير نظام الفاصلة فتطول ، ويتغير نظام القافية فتصبح بحرف النون أو بحرف الميم وقبلهما مد طويل . وكأنما هو في هذه الآيات الأخيرة يصدر حكماً بعد نهاية القصة ، مستمداً منها . ولهجة الحكم تقتضي أسلوباً موسيقياً غير أسلوب الاستعراض . وتقتضي إيقاعاً قوياً رصيناً ، بدل إيقاع القصة الرضي المسترسل ، وكأنما لهذا السبب كان التغيير .

ونحن نستأنس في هذا الاستنباط بملاحظة أخرى . ذلك أنه بمجرد الانتهاء من إصدار هذا الحكم وإلقاء ذلك القرار ، عاد إلى النظام الأول في القافية والفاصلة ، لأنه عاد إلى قصص جديد ، على النحو التالي :

﴿ فاخْتَلَفَ الأحزابُ مِنْ بَينِهم ، فَوَيْلٌ لِلذينَ كَفروا مِنْ مَشْهَدِ يَومٍ عظيمٍ . أَسْمِعْ بِهم وأَبْصِر يومَ يَأْتونَنا . لٰكِنِ الظالمونَ اليَومَ في ضَلالٍ مُبينٍ ، وأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ إذْ قُضِيَ الأَمْرُ وهم في غَفْلَةٍ وهم لا يُؤمِنونَ ، إنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأرضَ ومَنْ عليها وإلينا يُرْجَعونَ .. واذكُر في الكِتابِ إبراهيمَ إنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نبيّاً ، إذ قالَ لأبيهِ يا أبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ ولا يُغْني عنكَ شيئاً . يا أبَتِ إني أخافُ أن يمسّكَ عَذابٌ من الرَّحمٰنِ فتكونَ للشيطانِ ولِيّاً ... ﴾ إلخ .

وفي سورة « النبأ » بدأت السورة بقافية النون والميم :

﴿ عمَّ يتساءلون ؟ عن النبأ العظيم الذي هُم فيه مختلفون . كلا سيعلمون . ثم كلا سيعلمون ﴾ .

فلما انتهى من هذا التقرير ، وبدأ نسقاً معنوياً جديداً ـ نسق الجدل بدل التقرير ـ تغيّر النظام هكذا :

﴿ ثم كلاَّ سَيَعْلَمُونَ .. ألم نجعل الأرض مهاداً ، والجبالَ أوتاداً ، وخلقناكم أزواجاً ، وجعلنا نومكم سُباتاً ، وجعَلْنا الليلَ لباساً وجَعَلْنا النهار معاشاً ... ﴾

وفي «آل عمران» سارت السورة على القافية الغالبة حتى قرب النهاية ، فلما بدأ دعاء من طائفة من المؤمنين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، تغيرت الفاصلة هكذا :

﴿ ربّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً سُبْحانَكَ ، فَقِنا عَذابَ النَّار . ربّنا إنَّكَ مَن تُدْخِلِ النارَ فقد أخزَيْتَهُ ، وما للظالمينَ من أنصار .. ﴾ الخ

وقد وقعت لنا مثل هذه الملاحظات في مواضع أخرى كثيرة ؛ ولكننا لم نستطع لها تفسيراً مطرداً في جميع مواضع التغيير ، فآثرنا أن نشير إليها ، بمقدار ما اتضح لنا من سرها . وفيما عرضناه منها ما يكفي .

فأما تنوع أسلوب الموسيقى وإيقاعها بتنوع الأجواء التي تطلق فيها ؛ فلدينا ما نعتمد عليه في الجزم بأنه يتبع نظاماً خاصاً ، وينسجم مع الجو العام باطراد لا يستثنى .

وقد نحتاج في ضبط هذه الفروق وتوضيحها إلى قواعد موسيقية خاصة ، وإلى اصطلاحات في الموسيقى لا يتهيأ العلم بها لكل قارئ ،

ولا لنا نحن أيضاً . ولكننا نحسب المسألة أيسر من ذلك إذا نحن اخترنا ألواناً متباعدة ، وأساليب متباينة من هذه الموسيقى .

في سورة النازعات أسلوبان موسيقيان ، وإيقاعان ينسجمان مع جوين فيهما تمام الانسجام .

أولهما يظهر في هذه المقطوعة ، السريعة الحركة ، القصيرة الموجة ، القوية المبنى ، تنسجم مع جو مكهرب ، سريع النبض ، شديد الارتجاف، على النحو التالي :

﴿ والنَّازعاتِ غَرْقاً ، والنَّاشِطاتِ نَشْطاً ، والسابِحاتِ سَبْحاً ، فالسابِقاتِ سَبْقاً ، فالمدَبِّرات أمراً . يومَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ، تَتْبَعُها الرَّادِفَةُ ، قلوبٌ يومئذٍ واجفَةٌ ، أبصارُها خاشِعَةٌ ، يَقولونَ : أئنَّا لَمَرْدودونَ في الحافِرَة . إئذا كُنَّا عِظاما نَخِرَةً ؟ قالوا : تلكَ إذنْ كَرَّةٌ خاسِرَةٌ . فإنما هيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ ، فإذا هُمْ بالسَّاهِرَةِ ﴾ .

والثاني يظهر في هذه المقطوعة ، الوانية الحركة ، الرخية الموجة ، المتوسطة الطول ، تنسجم مع الجو القصصي الذي يلي مباشرة في السورة حديثَ الكرة الخاسرة ، والزجرة الواحدة ، وحديث الساهرة ، على النحو التالي :

﴿ هَلْ أتاكَ حديثُ موسى ، إذ ناداهُ ربُّهُ بالوادي المقدَّسِ طُوىً . إذهَبْ إلى فرعونَ إنَّه طَغَىٰ . فَقُلْ : هَلْ لَكَ إلى أنْ تَزَكَّىٰ ؟ وأهْدِيَكَ إلى رَبِّكَ فتخْشىٰ ؟ ﴾ ... إلخ .

أظن أننا لسنا في حاجة إلى قواعد موسيقية ، ولا إلى اصطلاحات فنية ، لندرك الفرق بين الأسلوبين والإيقاعين ، فهو واضح لا

يخفى ، وهو كذلك منسجم في كل حالة مع الجو الذي تطلق فيه الموسيقى . ولهذه الموسيقى وظيفة أساسية في مصاحبة المشهد المعروض ، في المرتين الأولى والأخرى .

فلنستمع إلى نوع ثالث من هذه الموسيقى . إنها موسيقى الدعاء المتموجة الرخية الطويلة الخاشعة :

﴿ ربّنا ما خلَقْتَ هذا باطِلاً سُبحانَكَ ، فَقِنا عذابَ النار . ربّنا إنَّكَ مَنْ تُدْخل النارَ فقد أخْزَيْتَهُ ، وما للظالِمينَ من أنصار ﴾ ... ﴿ ربّنا وآتِنا ما وَعَدْتَنا على رسلك ولا تُخزِنا يوم القيامَة ، إنَّكَ لا تُخْلِفُ الميعاد ﴾

أو دعاء آخر :

﴿ ربّنا إنَّكَ تعْلَمُ ما نُخْفِي وما نُعْلِنُ ، وما يَخْفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء . الحمدُ لله الذي وَهَبَ لي عَلى الكِبَرِ إسماعيلَ وإسْحاقَ . إنَّ ربي لَسَميعُ الدُّعاء . ربِّ اجْعَلْني مُقيمَ الصلاة ومن ذُرِّيَّتي ، ربَّنا وتَقبَّل دُعاء . ربَّنا اغْفِر لي ولِوالِدَيَّ وللمؤمنين يومَ يقومُ الحساب ﴾ .

ولسنا كذلك في حاجة إلى قواعد واصطلاحات لنحس أن هذا أسلوب غير الأسلوبين السابقين . منسجم مع الدعاء كل الانسجام ، بالتطريب والتموج والاسترسال .

ثم نخاطر فنلقي بلون من الموسيقى المتموجة الطويلة الموجة ـ ولكنه لون آخر تماماً ـ نخاطر فنلقيه هنا اعتماداً على وضوح الفارق بينه وبين اللون الذي مضى .

إن التكوين الموسيقي للجملة هنا يزيد على التموج العمقَ والسعةَ ، وفيه كذلك هول وشجى . إنها موسيقى الطوفان :

﴿ وهيَ تَجْري بهم في مَوْجٍ كالجبال . ونادى نوح ابنه وكانَ في معزلٍ : يا بنيّ اركَبْ مَعَنا ولا تكُنْ مع الكافرينَ . قال : سآوي إلى جَبَلٍ يَعْصِمُني من الماء . قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلاّ منْ رَحِمَ ، وحالَ بينهما الموج فكانَ مِنَ المغرقين ﴾ .

إن التكوين الموسيقي للجملة ليذهب طولاً وعرضاً في عمق وارتفاع ، ليشترك في رسم الهول العريض العميق . والمدّات المتوالية المتنوعة في التكوين اللفظي للآية تساعد في إكمال الإيقاع وتكوينه واتساقه مع جو المشهد الرهيب العميق .

ونخاطر مرة أخرى ، فنعرض لوناً ثالثاً لتموج الموسيقى ، مع اختلاف تموجها واتجاهها :

﴿ يا أيتها النَّفسُ المُطْمَئِنَّةُ ؛ ارجِعي إلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّة ؛ فادْخُلي في عِبادي ، وادْخُلي جَنَّتي ﴾ .

فليرتل القارئ هذه الآيات بصوت مسموع ، ليدرك تلك الموسيقى الرخية المتماوجة . إنها تشبه الموجة الرخية في ارتفاعها لقمتها وانبساطها إلى نهايتها ؛ في هدوء واطمئنان ، يتفقان مع جو الطمأنينة في المشهد كله . ولعل لتوازن المد إلى أعلى بالألف ، وإلى أسفل بالياء على التوالي ، شأناً في هذا التموج ، ولكنه ليس كل الشأن ، فهو يفسر الأوزان لا الألحان . يفسر الاتزان الخارجي في النغمة لا الروح الداخلي فيها . ذلك الروح مرده إلى خصائص غامضة في

جرس الحروف والكلمات ، يدركه من يقرأ التعبير القرآني في حساسية وإرهاف .

فلنكتف بهذا البيان الممكن ، حتى لا نقحم أنفسنا في خضمّ الاصطلاحات !

* * *

ثم نرقى إلى أفق آخر من آفاق التناسق الفني ، في التصوير القرآني .

قلنا : إن القرآن يرسم صوراً ويعرض مشاهد ، فينبغي أن نقول : إن هذه المشاهد وتلك الصور ، يتوافر لها أدق مظاهر التناسق الفني في ماء الصورة ، وجو المشهد ، وتقسيم الأجزاء ، وتوزيعها في الرقعة المعروضة(١) .

وقد ألمعنا إلى شيء من هذا في فصل « التصوير الفني » عند استعراض صورة الذي ينفق ماله رئاء الناس ، وصورة الصفوان عليه تراب ؛ مع صورة الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ، وصورة الجنة فوق الربوة ... وما بين هذه الصور جميعاً من توازن في الأجزاء وتقابل في الأوضاع .

هذا اللون من التناسق ، هو مفتاح الطريق إلى التناسق الذي نعنيه هنا بالذات .

والذي نعنيه هو :

أولاً : ما يسمى « بوحدة الرسم » . وحتى المبتدئون في القواعد يعرفون شيئاً عن هذه الوحدة ، فلسنا في حاجة إلى شرحها . ويكفي

---

(١) تفضل الأستاذ الفنان « ضياء الدين محمد » مفتش الرسم بوزارة المعارف بمراجعة هذا القسم الخاص بتناسق التصوير .

أن نقول : إن القواعد الأولية للرسم تحتم أن تكون هناك وحدة بين أجزاء الصورة ، فلا تتنافر جزئياتها .

وثانياً : توزيع أجزاء الصورة ــ بعد تناسبها ــ على الرقعة بنسب معينة حتى لا يزحم بعضها بعضاً ، ولا تفقد تناسقها في مجموعها .

وثالثاً : اللون الذي ترسم به ، والتدرج في الظلال ، بما يحقق الجو العام المتسق مع الفكرة والموضوع .

والتصوير بالألون يلاحظ هذا التناسق كما يلاحظه « التوزيع » في المشاهد المسرحية والسينمائية . والتصوير في القرآن يقوم على أساسه ، وإن كانت وسيلته الوحيدة هي الألفاظ ؛ وبذلك يسمو الإعجاز فيه على تلك المحاولات :

١ ــ خذ سورة من السور الصغيرة التي ربما يحسب البعض أنها شبيهة بسجع الكهان أو حكمة السجاع . خذ سورة « الفلق » .

فما الجو المراد إطلاقه فيها ؟ إنه جو التعويذة ، بما فيه من خفاء وهيمنة وغموض وإبهام . فاسمع :

﴿ قُلْ أعوذُ بِرَبِّ الفَلَق . مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ . ومِن شَرِّ غاسِقٍ إذا وَقَبَ . ومن شَرِّ النَّفَّاثاتِ في العُقَدِ . ومِنْ شَرِّ حاسِدٍ إذا حَسَدَ ﴾ .

فما الفلق الذي يستعيذ بربه ؟ نختار من معانيه الكثيرة معنى الفجر ، لأنه أنسب في الاستعاذة به من ظلام ما سيأتي : مما خلق ، ومن الغاسق ، والنفاثات ، والحسد . ولأن فيه إبهاماً خاصاً سنعلم حكمته بعد قليل .

يعوذ برب الفجر « من شر ما خلق » هكذا بالتنكير وبما الموصولة الشاملة . وفي هذا التنكير والشمول يتحقق الغموض والظلام

المعنوي في العموم . « ومن شر غاسق إذا وقب » الليل حين يدخل ظلامه إلى كل شيء ، ويمسي مرهوباً مخوفاً . « ومن شر النفاثات في العقد » وجو النفث في العقد من الساحرات والكواهن كله رهبة وخفاء وظلام ، بل هن لا ينفثن غالباً إلا في الظلام . « ومن شر حاسد إذا حسد » والحسد انفعال باطني مطمور في ظلام النفس ، غامض كذلك مرهوب .

الجو كله ظلام ورهبة ، وخفاء وغموض . وهو يستعيذ من هذا الظلام بالله ، والله رب كل شيء . فلمَ خصصه هنا « برب الفلق » ؟ لينسجم مع جو الصورة كلها ، ويشترك فيه . ولقد كان المتبادر إلى الذهن أن يعوذ من الظلام برب النور ، ولكن الذهن هنا ليس المحكم ، إنما المحكم هو حاسة التصوير الدقيقة . فالنور يكشف الغموض المرهوب ، ولا يتسق مع جو الغسق والنفث في العقد ، ولا مع جو الحسد . و« الفلق » يؤدي معنى النور من الوجهة الذهنية ثم يتسق مع الجو العام من الوجهة التصويرية ، وهو مرحلة قبل سطوع النور ، تجمع بين النور والظلمة ، ولها جوها الغامض المسحور .

ثم ما هي أجزاء الصورة هنا أو محتويات المشهد ؟

هي من ناحية : « الفلق » و « الغاسق » مشهدان من مشاهد الطبيعة . ومن ناحية : « النفاثات في العقد » و « حاسد إذا حسد » مخلوقان آدميان .

وهي من ناحية : « الفلق » و « الغاسق » مشهدان متقابلان في الزمان . ومن ناحية : « النفاثات » و « الحاسد » جنسان متقابلان في الإنسان .

وهذه الأجزاء موزعة على الرقعة توزيعاً متناسقاً ، متقابلة في اللوحة ذلك التقابل الدقيق ، وكلها ذات لون واحد ، فهي أشياء غامضة مرهوبة ، يلفها الغموض والظلام . والجو العام قائم على أساس هذه الوحدة في الأجزاء والألوان .

ليس في هذا البيان شيء من التمحل ، وليست هذه الدقة كلها بلا هدف ، وليس هذا الهدف حلية عابرة . فالمسألة ليست مسألة ألفاظ أو تقابلات ذهنية . إنما هي مسألة لوحة وجو وتنسيق ، وتقابلات تصويرية تعدّ فناً رفيعاً في التصوير ، وهي إعجاز إذا أداه مجرد التعبير .

٢ ـ عبر القرآن عن الأرض قبل نزول المطر ، وقبل تفتحها بالنبات ؛ مرة بأنها « هامدة » ومرة بأنها « خاشعة » . وقد يفهم البعض أن هذا مجرد تنويع في التعبير . فلننظر كيف وردت هاتان الصورتان :

لقد وردتا في سياقين مختلفين على هذا النحو :

« أ » وردت « هامدة » في هذا السياق :

﴿ يا أيُّها الناس : إنْ كُنتمْ في رَيْبٍ مِنَ البَعْثِ ، فإنَّا خَلَقْناكُم مِنْ تُرابٍ ، ثمَّ من نُطْفَةٍ ، ثمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ، ثمَّ مِن مُضْغَة مُخلقةٍ وغير مخلقة . لِنُبَيِّنَ لكُم . ونُقِرُّ في الأرحامِ ما نشاء إلى أجلٍ مُسَمَّى ، ثم نُخرجكُم طِفلاً ، ثم لتبلغوا أشدّكم ؛ ومنكم مَنْ يُتَوفَّى ، ومنكم مَن يُرَدُّ إلى أرذَلِ العُمُر ، لِكي لا يَعْلَم من بَعْدِ عِلْمٍ شيئاً . وتَرَى الأرضَ هامِدَة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، وأنْبَتَتْ من كُلِّ زَوْجٍ بَهيجٍ ﴾ .

« ب » ووردت « خاشعة » في هذا السياق :

﴿ ومن آياتهِ الليلُ والنهارُ والشمسُ والقمرُ . لا تَسجدوا للشمسِ ولا للقمر ، واسجدوا لله الذي خَلَقهنَّ ، إن كُنتم إيّاهُ تَعبدونَ . فإن اسْتَكبروا فالذينَ عِنْدَ ربّكَ يُسَبِّحونَ لهُ بالليلِ والنهار وهم لا يَسْأَمونَ . ومن آياتِهِ أنّكَ ترى الأرضَ خاشِعَةً ، فإذا أنزَلْنا عليها الماء اهْتَزّتْ وَرَبَتْ ﴾ .

وعند التأمل السريع في هذين السياقين ، يتبين وجه التناسق في « هامدة » و « خاشعة » . إن الجو في السياق الأول جو بعث وإحياء وإخراج ؛ فما يتسق معه تصوير الأرض بأنها « هامدة » ثم تهتز وتربو ، وتنبت من كل زوج بهيج .

وإن الجو في السياق الثاني هو جو عبادة وخشوع وسجود ؛ يتسق معه تصوير الأرض بأنها « خاشعة » فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت .

ثم لا يزيد على الاهتزاز والإرباء هنا ، الإنباتَ والإخراج كما زاد هناك ، لأنه لا محل لهما في جو العبادة والسجود . ولم تجئْ « اهتزت وربت » هنا للغرض الذي جاءتا من أجله هناك . إنهما هنا تخيلان حركة للأرض بعد خشوعها ، وهذه الحركة هي المقصودة هنا ، لأن كل ما في المشهد يتحرك حركة العبادة ، فلم يكن من المناسب أن تبقى الأرض وحدها خاشعة ساكنة ، فاهتزت لتشارك العابدين المتحركين في المشهد حركتهم ، ولكي لا يبقى جزء من أجزاء المشهد ساكناً وكل الأجزاء تتحرك من حوله . وهذا لون من الدقة في تناسق الحركة المتخيلة ، يسمو على كل تقدير .

ويحسن أن نلاحظ أن الهمود والخشوع يتحدان في المعنى العام ، ويستدل بهما في الآيتين على قدرة الخالق على البعث ، فما هما إلا سكون أو خمود ، تعقبه الحركة والحياة ؛ فلو كان المقصود هو مجرد أداء المعنى الذهني ، لما كانت هناك ضرورة لهذا التنويع . ولكن التعبير القرآني لا يرمي إلى مجرد أداء المعنى الذهني ، إنما يريد الصورة كذلك ؛ والصورة تقتضي هذا التنويع ، ليتّم التناسق مع الأجزاء الأخرى في اللوحة ، أو في المشهد المعروض .

ودلالة هذا التنويع حاسمة في أن « التصوير » عنصر أساسي في أسلوب القرآن ، وأن التعبير لا ينتهي إلى أداء المعنى الذهني مجرداً ، إنما ينبض بطبيعته بصورة حيَّة للمعاني ، تختلف هذه الاختلافات الدقيقة اللطيفة ، حسب اختلاف الأجزاء والألوان .

ثم لننظر الآن في « وحدة الرسم » في كل من الصورتين ، وفي أجزاء الصورة كذلك .

وحدة الصورة الأولى هي : مخلوقات حية تخرج من الموت ، أو مشاهد حياة . والأجزاء هي : نطفة تدرج في مراحلها المعروفة ، ونبتة تصير زوجاً بهيجاً . وهي تراب ميت تخرج منه تلك النطفة ، وأرض هامدة تخرج منها هذه النبتة . والجو العام ، هو جو الإحياء المرتسم من هذه الأجزاء .

ووحدة الصورة الثانية هي : مخلوقات طبيعية عابدة ، أو مشاهد طبيعية . والأجزاء هي : الليل والنهار ، والشمس والقمر والأرض خاشعة لله .. تموج فيها وتتصل بها جماعتان من الأحياء مختلفتا النوع متحدتا المظهر : جماعة من الناس تستكبر عن العبادة ؛ وجماعة من الملائكة تعبد بالليل والنهار . والجو العام هو جو العبادة

المرتسم من هذه الأجزاء .

وهكذا تتناسق الجزئيات مع الجو العام ؛ وتتحد جزئيات الصورة الواحدة تحقيقاً لوحدة الرسم ؛ وتوزع الأجزاء في الرقعة بهذا النظام العجيب .

٣ ـ عرض القرآن في مواضع مختلفة كثيراً من صور النعمة التي أفاءها الله على الإنسان ؛ وفي كل موضع كان يعرض مجموعة من النعم ، متسقة « الوحدة » على هذا النحو الذي نعرضه في موضعين للتمثيل :

(أ) ﴿ واللهُ جعلَ لكُم من بيوتِكُم سَكَناً ، وجَعَلَ لكم من جُلودِ الأنْعام بيوتاً تَسْتَخِفُّونَها يومَ ظَعْنِكُم ويومَ إقامَتِكُم ، ومن أصوافِها وأوبارها وأشْعَارها أثاثاً ومتاعاً إلى حينٍ ﴾ .

﴿ واللهُ جَعَلَ لكم مما خَلَقَ ظِلالاً ؛ وجَعَلَ لكم من الجبال أكناناً ؛ وجَعَلَ لكُم سرابيلَ تَقيكُم الحرَّ وسرابيلَ تَقيكُم بأْسَكُم . كذلك يُتِم نِعمَته عليكُم لَعَلَّكم تُسْلِمونَ ﴾ .

(ب) ﴿ وإنَّ لكُم في الأنْعام لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مما في بُطونِها مِن بَين فَرْثٍ ودَمٍ ـ لَبَناً خالِصاً سائِغاً لِلشَّاربينَ ﴾ .

﴿ ومِن ثمراتِ النَّخيل والأعْنابِ ، تَتَّخذونَ منه سكراً ورزقاً حَسَناً . إنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يَعْقِلونَ ﴾ .

﴿ وأوحَى رَبُّك إلى النَّحْلِ : أن اتَّخِذي مِنَ الجبال بيوتاً ، ومن الشَّجَرِ ، ومما يَعْرشونَ ؛ ثم كُلي من كُلِّ الثَّمَرات ، فاسْلُكي

سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً ، يَخرُجُ من بُطونِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ ألوانُهُ ، فيه شِفاءٌ لِلنّاس . إنَّ في ذلكَ لآيَةً لِقوْمٍ يتفكَّرون ﴾ .

يلاحظ في هذين السياقين أن الأنعام مذكورة فيهما على السواء . فلننظر من أي الجوانب عرضت في كل سياق ، ولماذا عُرض هذا الجانب هنا ، وذلك الجانب هناك :

« أ » السياق الأول يرسم صورة للبيوت ، والأكنان ، والظلال ، والسرابيل ، وكلها مما يُلاذُ به ، أو يُحتمى ، أو يُستظل ، أو يُستتر . ولأن هذا هو « وحدة الرسم » عرض من « الأنعام » الجانبَ الذي يتفق مع هذه الوحدة . عَرَض الجلود التي تتخذ بيوتاً تُستخف يوم الظعن ، والأصواف والأوبار والأشعار التي تتخذ أردية وأثاثاً .. والمنظر كله منظر أبنية وأردية وظلال .

« ب » والسياق الثاني يرسم مشهداً لاستخراج الأشربة : السكر الذي يستخرج من الثمار ، والعسل الذي يخرج من النحل . ولأن هذه هي « وحدة الرسم » عرض من الأنعام الجانب الذي يناسب الأشربة . عرض اللبن السائغ للشاربين .

ولم تقف دقة التنسيق عند وحدة المنظر العامة ، بل تمشت إلى دقائق الجزئيات : فهذا السكر يستخلص من الثمرات ، المخالفة في هيئتها وطبيعتها للسكر ؛ وهذا العسل يستصفى من الأزهار ، المخالفة في هيئتها وطبيعتها للعسل ؛ وهذا اللبن يستخرج من بين فرث[1] ودم ، المخالفين في هيئتهما وطبيعتهما للبن ؛ فهي كلها

(١) الغذاء المهضوم في الأمعاء .

تستحيل من أشياء أخرى . ثم المنظر كله منظر زراعي حيواني فيه حياة .

ألا إنه الإبداع هنا في وحدة الأجزاء ودقة التصوير ، وتناسق الإخراج . ومثل هذه اللمسات الدقيقة التي تستوعب دقائق الجزئيات كثير في القرآن ، نكتفي منه بهذه الأمثلة ، ونضيف إليها المثال التالي لما له من دلالة خاصة :

٤ ـ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ . يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ . فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ .

فالصورة صورة مبايعة بالأيدي ، ولتنسيق الجو كله ، جعل « يد الله فوق أيديهم » واستخدم هذا التجسيم في موضع التجريد المطلق ، والتنزيه الخالص .

وعلماء البلاغة يسمون مثل هذا : « مراعاة النظير » ويعنون منه الجانب اللفظي ، لأنهم لم يحاولوا أن يلحظوا جانب التصوير ؛ ونحن نأخذ تعبيرهم نفسه « مراعاة النظير » ونعني به جانب التناسق الفني في الصورة ، للمحافظة على « وحدة الرسم » وعلى جو المشهد ، وعلى الانسجام العام .

ولكن القرآن لا يستخدم في التصوير هذه « اللمسات الدقيقة » وحدها ، إنما يستخدم كذلك « اللمسات العريضة » (ونحن نعبر بلغة التصوير ، لأننا في الواقع أمام تصوير قبل التعبير) . هذه اللمسات العريضة قد تجمع بين السماء والأرض في نظام ؛ وبين مشاهد الطبيعة ومشاهد الحياة في سياق . حيث تتسع رقعة الصورة

لهذا كله ، على أساس من « الوحدة الكبيرة » بدل « الوحدة الصغيرة ».

١ ـ من ذلك :

﴿ أفلا يَنْظُرونَ إلى الإبل كَيْفَ خُلِقَتْ ، وإلى السماء كيفَ رُفِعَتْ ، وإلى الجبال كيف نُصِبَتْ ، وإلى الأرْض كيفَ سُطِحَتْ ﴾ ؟

فهذه ريشة تجمع بين السماء والأرض والجبال والجمال ، في مشهد واحد ، حدوده تلك الآفاق الوسيعة ، من الحياة والطبيعة ؛ والملحوظ هنا هو « الضخامة » وما تلقيه في الحس من استهوال ؛ والأجزاء موزعة بين الاتجاه الأفقي في السماء المرفوعة والأرض المبسوطة ، والاتجاه الرأسي بينهما في الجبال المنصوبة والإبل الصاعدة السنام . وهذه دقة تأخذها عين المصور المبدع ، في الأشكال والأحجام.

ومما يلاحظ هنا بعين المصور كذلك أن لوحة طبيعية قاعدتاها السماء والأرض ، لا يبرز فيها من الجماد إلا الجبال ، ولا يبرز فيها من الأحياء إلا الجمال ، أو ما هو في حجم الجمال ، والجمل هو الحيوان المناسب ، لأنه أليف الصحراء الفسيحة التي تحدها السماء والجبال !

٢ ـ ومن هذا النحو ـ مع تغيير في مواضع اللمسات ـ :

﴿ ولَقَدْ جَعَلنا في السماء بُروجاً ، وزَيَّنَّاها للنَّاظِرينَ ، وحَفِظْناها من كُلِّ شيطانٍ رَجيمٍ ، إلاَّ مَن اسْتَرَقَ السمعَ ، فأتْبعهُ شهاب مُبينٌ ، والأرض مَدَدْناها ، وألْقَينا فيها رَواسيَ ، وأنْبتْنا فيها مِن كُلِّ شيءٍ مَوزونٍ ، وجَعَلْنا لَكُمْ فيها مَعايشَ ، ومَن لستم له برازقين ﴾ .

في السماء « بروج » ضخمة ، وشهب تنقض على المردة . وفي الأرض الممدودة رواس راسخة ، ونبت « موزون » (لا « بهيج » لطيف !) وفي الأرض كذلك « معايش » بهذا الجمع والتكثير ، وفيها من لا يرزقه الناس ، بهذا التهويل والإضمار ... وكلها مشاهد وحْدتها الضخامة الحسية أو المعنوية .

٣ ـ وقد تتسع الرقعة ويتطاول المدى ، وتَعرض اللمسات . ولكنها تدق في النهاية حتى تتناول الجزئيات :

مثال ذلك :

﴿ إنَّ اللهَ عنده عِلْمُ الساعَة ، ويُنَزِّل الغَيْثَ ، ويَعْلَمُ ما في الأرحام ، وما تَدْري نَفْسٌ ماذا تَكْسِبُ غداً ، وما تَدري نَفْسٌ بأيِّ أرض تموتُ . إنَّ الله عليمٌ خبيرٌ ﴾ .

فهذه رقعة فسيحة في الزمان والمكان ، وفي الحاضر والواقع ، والمستقبل المنظور والغيب السحيق ، وفي خواطر النفس ووثبات الخيال : ما بين الساعة البعيدة المدى ، والغيث البعيد المصدر ، وما في الأرحام الخافي بلفظه وحقيقته عن العيان ، والرزق في الغد وهو قريب في الزمان مغيب في المجهول ، وموضع الموت والدفن وهو مبعد في الظنون .

إنها رقعة فسيحة الآماد والأرجاء . ولكن اللمسات العريضة بعد أن تتناولها من أقطارها ، تدق في أطرافها ، وتجمع هذه الأطراف كلها عند نقطة الغيب المجهول ، وتقف بها جميعاً أمام كوة صغيرة مغلقة ، لو انفتح منها سَمّ الخياط ، لاستوى القريب خلفها بالبعيد ، ولانكشف القاصي منها والدان .

* * *

ثم نرقى إلى أفق آخر من آفاق التناسق الفني ، في التصوير القرآني .

إن التناسق إلى هنا كان في الصورة أو المشهد ، وكان على أتمه وأوفاه في الجزئيات وفي الجو العام . ولكن الإبداع المعجز لا يقف هنا . إنه في بعض الأحيان يضع إطاراً للصورة ، أو نطاقاً للمشهد ، فينسق الإطار والنطاق مع الصورة والمشهد ، ثم يطلق من حولهما الإيقاع الموسيقي الذي يناسب هذا كله ، فيبلغ من ذلك ما يعبر عنه النموذج :

١ ـ ﴿ والضُّحَىٰ . واللَّيلِ إذا سَجَىٰ ، ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ ومَا قَلى ، ولَلآخِرَةُ خيْرٌ لَكَ مِنَ الأولىٰ ، ولَسَوفَ يُعْطيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى . أَلَمْ يَجدْكَ يَتيماً فآوَىٰ ووَجَدَكَ ضالاً فَهَدَىٰ ، ووَجَدَكَ عائِلاً فأَغْنىٰ . فأَمَّا اليتيمَ فلا تَقْهَرْ ، وأمَّا السائِلَ فلا تَنْهَرْ ، وأمَّا بنِعْمَةِ ربِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ .

لقد أطلق التعبير جوّاً من الحنان اللطيف ، والرحمة الوديعة ، والرضاء الشامل ، والشجى الشفيف : « ما ودّعك ربُّك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى » ثم : « ألم يجدك يتيماً فآوى ، ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلاً فأغنى ؟ » . ذلك الحنان ، وتلك الرحمة ، وذاك الرضاء ، وهذا الشجى تنسرب كلها من خلال النظم اللطيف العبارة ، الرقيق اللفظ ؛ ومن هذه الموسيقى السارية في التعبير ، الموسيقى الرتيبة الحركات ، الوئيدة الخطوات ، الرقيقة الأصداء ، الشجية الإيقاع .. فلما أراد إطاراً لهذا الحنان اللطيف ، ولهذه الرحمة الوديعة ، ولهذا

الرضى الشامل ، ولهذا الشجى الشفيف ، جعل الإطار من الضحى الرائق ، ومن الليل الساجي . أصفى آنين من آونة الليل والنهار ، وأشف آنين تسري فيهما التأملات . وساقهما في اللفظ المناسب ، فالليل هو « الليل إذا سجى » لا الليل على إطلاقه بوحشته وظلامه ، الليل الساجي الذي يرق ويصفو ، وتغشاه سحابة رقيقة من الشجى الشفيف ، كجو اليتم والعيلة ، ثم ينكشف ويُجلي ، ويعقبه الضحى الرائق ، مع « ما ودّعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى » فتلتئم ألوان الصورة مع ألوان الإطار ، ويتم التناسق والإتساق .

٢ ـ والآن استمع إلى موسيقى أخرى ، وانظر إلى إطار آخر ، لصورة تقابل هذه الصورة :

﴿ والعادِياتِ ضَبْحاً ، فالموريات قَدْحاً ، فالْمُغيرات صُبْحاً ، فَأَثَرْنَ بهِ نَقْعاً ، فوسَطْنَ بهِ جَمْعاً . إنَّ الإنسانَ لِرَبِّهِ لَكَنودٌ ، وإنَّهُ على ذلكَ لَشَهيدٌ ، وإنَّهُ لِحُبِّ الخَيرِ لَشَديدٌ ، أفَلاَ يَعْلَمُ إذا بعْثِرَ مَا في القُبور ، وحُصِّلَ ما في الصُّدور . إنَّ ربهم بهمْ يَومَئذٍ لَخَبيرٌ ﴾ .

إن الموسيقى هنا لشبيهة بموسيقى « النازعات » التي أسلفنا . بل هي أشد وأعنف ، وفيها خشونة ودمدمة وفرقعة . وهي تناسب الجو الصاخب المعفر الذي تنشئه القبور المبعثرة ، والصدور المحصل ما فيها بقوّة . وجو الجحود وشدة الأثرة .. فلما أراد لهذا كله إطاراً مناسباً ، اختاره من الجو الصاخب المعفر كذلك ، تثيره الخيل الضابحة بأصواتها ، القادحة بحوافرها ، المغيرة مع الصباح ، المثيرة

للغبار ؛ فكان الإطار من الصورة ، والصورة من الإطار ، لدقة التنسيق وجمال الاختيار .

٣ ـ هذا وذلك إطاران لكل منهما لون خاص ، أو لونان لأن للصورة بداخله لوناً واحداً أو لونين متقاربين . ولكن قد يكون للإطار أكثر من لون محدد ، لأن الصورة التي بداخله كذلك ، كما في سورة الليل :

﴿ واللَّيلِ إذا يَغْشىٰ ، والنهارِ إذا تَجَلَّىٰ ، وما خَلَقَ الذَّكَرَ والأُنْثىٰ . إنَّ سَعْيَكُم لَشَتَّى : فأمَّا مَن أعْطىٰ واتَّقىٰ ، وصَدَّقَ بالحُسْنىٰ ، فسَنُيَسِّرُهُ لِليُسْرى . وأمّا مَنْ بَخِلَ واسْتَغْنَى ، وكَذَّبَ بالحُسْنى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلعُسْرى ، وما يُغني عنه ماله إذا تَرَدَّى . إنَّ علينا للهُدى ، وإنَّ لنا للآخِرَةَ والأولى ؛ فأَنْذَرْتُكُم ناراً تَلظَّى ، لا يَصْلاها إلاَّ الأشْقىٰ ، الذي كَذَّبَ وتَوَلَّى ، وسَيُجَنَّبها الأتْقىٰ ، الذي يؤتِي مالـه يَـتَـزَكَّى ، وما لأحَدٍ عِنده من نِعْمَةٍ تُـجْزىٰ ، إلاَّ ابتِغاءَ وجْه ربِّه الأعلى ، ولَسَوفَ يَرْضَىٰ ﴾ .

فهنا صورة فيها الأسود والأبيض . فيها « من أعطى واتقى » و « من بخل واستغنى » . وفيها من ييسر لليسرى ، ومن ييسر للعسرى . وفيها الأشقى الذي يصلى النار الكبرى ، والأتقى الذي سوف يرضى .

وفي الإطار كذلك الأسود والابيض . فيه : الليل إذا يغشى ـ في هذه المرة ـ لا (الليل إذا سجى) وفيه النهار إذا تجلى ، المقابل تماماً لليل إذا يغشى . وهنا : الذكر والأنثى المتقابلان في النوع

والخلقة .. فذلك إطار مناسب للصورة التي يضمها .

أما الموسيقى المصاحبة ، فهي أخشن وأعلى من موسيقى « الضحى والليل إذا سجى » ولكنها ليست عنيفة ولا قاسية ، لأن الجو للسرد والبيان ، أكثر مما هو للهول والتحذير .

وذلك من بدائع التناسق بلا جدال .

* * *

ثم نرقى إلى أفق آخر من آفاق التناسق الفني في القرآن .

فالتصوير القرآني حين ينتهي من تناسق الألوان والأجزاء في الصورة أو المشهد ، وحين يطلق حولها الموسيقى المكملة للجو ، لا ينتهي عند هذه الآفاق في تناسق الإخراج . إن هناك خطوة وراء هذا كله ، ضرورية للتناسق ، وضرورية لتأثير المشهد ، وللكمال الفني فيه . تلك هي المدة المقررة لبقاء المشهد معروضاً على الأنظار في الخيال . والتناسق القرآني يلحظ هذا ويؤديه أرفع أداء .

بعض المشاهد يمر سريعاً خاطفاً ، يكاد يخطف البصر لسرعته ، ويكاد الخيال نفسه لا يلاحقه . وبعض المشاهد يطول ويطول ، حتى ليخيل للمرء في بعض الأحيان أنه لن يزول . وبعض هذه المشاهد الطويلة حافل بالحركة ، وبعضها شاخص لا يريم . وكل أولئك يتم تحقيقاً لغرض خاص في المشهد ، يتسق مع الغرض العام للقرآن ، ويتم به التناسق في الإخراج أبدع التمام .

وللقصر وسائل مختلفة ، وللطول وسائل شتى ، يؤدي كل منها الغرض ، ويناسب جو المشهد . وهذه خطوة أخرى في ذلك الأفق الجديد ..

والآن إلى النماذج ، ففيها وحدها بلاغ .

١ ـ يريد أن يصور للناس قصر هذه الحياة الدنيا التي تلهيهم عن الآخرة . فيخرج القصر في هذه الصورة :

﴿ واضْرب لهم مَثَلَ الحياة الدُّنيا ، كماءٍ أنزَلْناهُ مِنَ السماءِ ، فاختَلَطَ به نباتُ الأرض ، فأصْبَحَ هشيماً تَذْروهُ الرياحُ ﴾ .

وانتهى شريط الحياة كله في هذه الجمل القصار ، وفي هذه المشاهد الثلاثة المتتابعة :

﴿ ماء أنزَلناهُ مِنَ السماء ﴾ فـ ﴿ اختَلَط به نبات الأرض ﴾ فـ ﴿ أصْبَحَ هشيماً تَذْروهُ الرياحُ ﴾ .

ألا ما أقصرها حياة !

ومع هذا فقد عرض أطوار النبات كلها لم ينقص منها شيئاً ـ إلا الأطوار الثانوية ـ عرض الماء الذي يسبقه ، ويختلط بالأرض فتنبته ؛ وعرض نضجه ، وعرض تذريته . فماذا بقي من حياة النبات إلا الأطوار الثانوية ؟

لقد اجتمعت لهذا التعبير كل عناصر الصدق والدقة والجمال : الصدق في عرض أطوار النبات ، فلم ينقص شيئاً منها لتحقيق الغرض الديني . والدقة لأنه حقق غرض الصورة كاملاً . والجمال لأن سرعتها الخاطفة مما ينشط له الخيال .

وقد استُخدِم النسق اللفظي في تقصير عرض المشهد كما استخدمت وسائل العرض الفنية لهذا الغرض . فهذا « التعقيب » الذي تمثله هذه « الفاء » في تتابع المراحل ، يتفق مع طريقة العرض السريعة . ثم هذا الماء النازل لا تختلط به الأرض فتنبت ، بل يختلط به نبات الأرض مباشرة ، وهذه حقيقة ، ولكنها حقيقة تعرض

في الوضع الخاص الذي يحقق السرعة المطلوبة .

٢ ـ ومثل هذا النص نص آخر في المعنى والإتجاه ؛ ولكنه يختلف في حلقة منه ، ليؤدي غرضاً آخر مع هذا الغرض السابق :

﴿ اعلموا أنما الحياةُ الدُّنيا لَعِبٌ ، ولهْوٌ ، وزينَةٌ ، وتَفاخرٌ بينكم ، وتَكاثرٌ في الأموالِ والأولادِ . كَمَثَل غَيْثٍ أعْجَبَ الكُفَّارَ نباته ، ثمَّ يهيج فتراهُ مُصْفَرّاً ، ثم يكونُ حطاماً ﴾ .

فالصورة المعروضة لقصر الحياة متحدة تقريباً مع الصورة الأولى ، ولعل هذا يخيل للبعض أن هناك تكراراً كاملاً ؛ ولكن الواقع أن هناك اختلافاً دقيقاً . إنه أطال عرض شريط الحياة الدنيا ـ كما يراه الكفار ـ فهي لعب ، ولهو ، وزينة وتفاخر بينكم ، وتكاثر في الأموال والأولاد . ليقول : إن هذا الذي تعجبون به كله ، وهذا الذي تستطيلون أمده ، إنما هو في حقيقته قصير زائل ، كذلك الغيث الذي يعجب الكفارَ نباته ، ثم يهيج فتراه مصفراً ، ثم يكون حطاماً .

وذلك من دقائق الصور المكررة في القرآن . وفي كل تكرار صورة تختلف اختلافاً يسيراً أو كبيراً ، وتنفي وهْمَ التكرار بلا قصد إلا التكرار . وإن يكن للتكرار غرضه في صدد الدعوة . ولكنه مع هذا يسير مع الجمال الفني بالتنويع الدقيق الملحوظ .

٣ ـ في المثالين السابقين كان الاختصار بحذف المراحل الثانوية . فهذا مثال آخر يعرض قصر الحياة على النحو نفسه ، مع زيادة في الاختصار ، فيمسك بطرفيّ الحياة ويجمعهما في

ومضة خاطفة . ولكنه في الوقت ذاته يخيل هيئة الطول فيما بين الطرفين :

﴿ ألهاكم التكاثُرُ . حتى زرتم المقابرَ ﴾ فهذه الصورة : من جانب تصوّر قصر الحياة فما كادت تبدأ بالتكاثر ، حتى انتهت بالمقابر ـ وذلك أقصر ما تصوّر به فترة الحياة ، في اللفظ والخيال ـ ولكنها من طرف خفيّ ، قد عرضت امتداد اللهو طول الحياة من مبدئها إلى منتهاها ، وساعدت كلمة « حتى » على بروز الامتداد ؛ فخيلت للنفس أن هؤلاء القوم لجوا في اللهو أمداً طويلاً . وذلك من عجائب التخييل ، فغرض قصر الحياة ، وغرض طول اللهو فيها ، كلاهما مقصود من التعبير ، وكلاهما تحقق في هذا النص القصير .

٤ ـ وفي هذا الاتجاه ـ مع تغير في الغرض ـ يرد النص الآتي :

﴿ كيفَ تَكْفُرونَ باللهِ ، وكُنْتُمْ أمواتاً فأحياكُمْ ثُمَّ يُميتُكُم ، ثمَّ يُحْييكُم ، ثم إليه تُرْجَعونَ ﴾ ؟

في أربع مقاطع قصيرة لفقرة واحدة ، عرض قصة الخلق من قبل ظهورها بمرحلة ، إلى بعد انتهائها بمرحلة ، الموت الذي سبق الحياة . فالحياة . فالموت الذي تختم به الحياة . فالحياة بعد الوفاة .

والموت الذي سبق الحياة آزال ، والحياة التي تلته آماد ، والموت الذي يعقبها آباد .. تنطوي جميعاً في ألفاظ ، ليعرض جانب السرعة ؛ ولكن يمتد بها الخيال في الاستعراض ، ليقول : إن هذه الآماد الطويلة كلها ، قصيرة في يد القوّة الكبرى .

إنه هنا يصوّر القدرة القادرة ، التي تقول للشيء : « كن فيكون » والسرعة مما يزيد وضوح القدرة ـ ولا سيما إذا طوت هذه الآماد المتطاولة في غمضة ـ فكيف تكفرون بالله إذن ، وهو الذي يملك أموركم كلها من قبل ومن بعد « ثم إليه ترجعون » .

وتكملة لهذه السرعة تأتي الآية التالية :

﴿ هو الذي خَلَقَ لكُم ما في الأرض جميعاً ، ثم استْوى إلى السماءِ ، فَسَوَّاهُنَّ سبع سمٰواتٍ ﴾ .

هكذا في ومضة « خلق لكم ما في الأرض جميعاً » وفي ومضة « استوى إلى السماء فسوّاهنّ سبع سماوات » وخَلْقُ ما في الأرض ، أو شيء مما خلقَ في الأرض يستغرق في مواضع أخرى آيات طوالاً ، حينما يريد التفصيل والتطويل .

٥ ـ وإلى هنا كان القصر باختصار المراحل أو إدماجها . فالآن نعرض مثالاً آخر يأتي القصر فيه من لمسات الريشة السريعة العنيفة اللمسات . هذه الريشة المعجزة التي تخط لمسة هنا ولمسة هناك ، ثم تطوي اللوحة كلها ، كأنها ما عرضت قط . فما يكاد الخيال يتلفت ليراها حتى يفتقدها فلا يلقاها :

﴿ ومَنْ يُشْرِكْ بالله فكأنما خرَّ مِنَ السماء ، فتخطفه الطيرُ ، أو تَهوي به الريحُ في مكانٍ سَحيقٍ ﴾ .

انظر : لقد خرَّ من السماء ، انظر : لقد خطفته الطير . انظر : لقد هوت به الريح في مكان سحيق . انظر : لقد اختفى المسرح ومن فيه !

ولِمَ هذه السرعة الخاطفة ؟ لئلا يتوهم أحد أن لمن يشرك بالله

منبتاً ، أو وجوداً ، أو قراراً ، أو امتداداً ، مهما يبلغ من الحسب والقوّة والجاه والبنين ؛ إنما يأتي في ومضة من المجهول ، ليذهب في ومضة إلى المجهول !!!

والآن فإلى المشاهد المطولة :

١ ـ لقد رأينا قصة الماء الذي ينزل من السماء فيختلط به نبات الأرض ، فيصبح هشيماً تذروه الرياح ، لقد عرضت هناك في ومضات خاطفات . فلننظر كيف يُعرض قسم منها على مهل وفي تؤدة :

﴿ اللهُ الذي يُرْسِلُ الرياحَ فتثيرِ سَحاباً ، فيبْسطُه في السماءِ كيفَ يشاءُ ، ويجعله كِسفاً ، فترَى الوَدْقَ يخرجُ من خلالِهِ . فإذا أصابَ به مَنْ يَشاءُ من عبادِهِ إذا هم يَسْتَبشِرون ﴾ .

هكذا ، القسم الأول وحده الخاص بوصول الماء إلى الأرض ، يستغرق هذه الفقرات ، ويعرض في هذه المراحل . فالرياح تثور ، فتثير السحب في السماء ـ كما يشاء الله ـ فيتراكم هذا السحاب ، فيخرج منه المطر ، فينزل المطر من السماء ، فيستبشر به من ينزل عليهم بعد أن كانوا يائسين .

فلننظر كيف يعرض القسم الثاني بعد وصول الماء :

﴿ أَلَمْ تَرَ أنَّ اللهَ أنزَلَ مِنَ السماءِ ماءً ، فَسَلَكهُ ينابيعَ في الأرضِ ؛ ثم يُخرجُ به زَرْعاً مختلِفاً ألوانه ؛ ثم يهيجُ فتراهُ مُصْفَرّاً ، ثم يجعلهُ حُطاماً ﴾ .

هكذا ، في تراخ بـ «ثم» ، وفي تمهل وبطء . فالماء ينزل فلا

يختلط بالأرض ولا بنبات الأرض ؛ إنما يُسلك ينابيع . « ثم » « يخرج به زرعاً » ـ وفي الوقت فسحة لتملي ألوان الزرع المختلفة الألوان ـ « ثم » « يهيج فتراه مصفراً » ـ وفي الوقت مهلة لتراه ـ « ثم » « يجعله حطاماً » . « يجعله ! » وهناك « أصبح هشيماً » أو « يكون حطاماً » كأنما يصبح بنفسه ، أو يكون بلا مصيرٍ ولا فاعل ! وهنا جعله « حطاماً » ثم بقي على هذه الهيئة . وهناك « تذروه الرياح » فلا يبقى له أثر !

إنه هنا في معرض بيان النعم الإلٰهية ؛ فبطء عرضها ، ولُبث صورها ، وتَمَلٍّي مشاهدها ، أجدر بالموقف ؛ ولهذا تستمتع بكل هذا الوقت الطويل !

٢ ـ وصورة أخرى للزرع يشبه به محمداً والذين معه :

﴿ ... ذلك مثلهم في التوراةِ . ومثلهمْ في الإنْجيل كَزَرْعٍ أخْرَجَ شَطْأَهُ[1] ، فَآزَرَهُ ، فاسْتَغْلَظَ ، فاسْتَوَى على سوقهِ ، يُعْجِبُ الزّرّاعَ لِيَغيظَ بهم الكُفارَ ﴾ .

فماذا ترى في هذا الزرع ؟ إنه لا يصبح هشيماً مطلقاً ، ولا تذروه الرياح أبداً . إنه ليخيل إليك أنه ثابت هنا في مكانه ، قارٌّ في منبته ، خالد في موضعه . ومدة العرض هنا دائمة ، والمنظر ثابت ، حتى تتحول عنه العين ، ولا يتحول هو عن العين . وذلك هو الهدف المقصود . وهذا الثبات طريقة من طرق التطويل .

ومن الدقائق اللطيفة هنا ، أن الصورة العامة تسير على طريقة

---

(١) فراخه .

الإطالة ـ كما أسلفنا ـ ولكن الأجزاء الأولى منها تم في سرعة متعاقبة : « كزرع أخرج شطأه » فـ « آزره » فـ « استغلظ » فـ « استوى على سوقه » فقد تم الغلظ والاستواء في مدى قصير . ثم ثبت بعد ذلك وقرّ . إن الإسراع الأول مقصود كالاستقرار الأخير في تصوير حال المسلمين ، يتم نموهم ، ثم يستقرّ وضعهم أبداً .

٣ ـ والحياة هناك كانت تطوى في غمضة عين ، من مبدئها إلى منتهاها ، فلننظر كيف تطول هنا في معرض الإطالة .

إن مرحلة واحدة من مراحل حياة آدمية مفردة ، من بين حيوات كثيرة ، تستغرق مثل هذا الفراغ :

﴿ ولَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طينٍ ؛ ثمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً في قَرارٍ مَكينٍ ؛ ثمَّ خَلَقْنا النُّطْفة عَلَقَةً ، فَخَلَقْنا العَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنا المُضْغَةَ عِظَاماً ، فَكَسَوْنا العِظامَ لَحْماً ؛ ثم أنْشأْناهُ خَلْقاً آخرَ ؛ فتبارَكَ الله أحسن الخالِقين ﴾ .

مرحلة الجنين وحدها ، من حياة آدمية لا الحياة كلها ، تستغرق هذا الفراغ ، وتُعرض بهذا التفصيل ، وتُذكر فيها جميع الخطوات .. لأنها معروضة للعبرة ، وللتأثير الوجداني ، ولبيان دقة العلم الإلهي . فحينئذ يحسن ولا شك التطويل .

٤ ـ ومن بين المشاهد التي يطول عرضها ـ أحياناً ـ مشاهد العذاب في يوم القيامة . فبعد تشخيص المشهد كأنه حاضر ، وتنسيق أجزائه كأنه مشهود ، يطول عرضه ليلمس الحس ويوقظ الخيال ، ويتسرب الخوف والتأثر إلى أعماق النفس وقرارة الوجدان .

ولإطالة العرض هنا وسائل شتى نعرض منها بعض النماذج .

ومشاهد القيامة هي أكثر المشاهد تنوعاً في القرآن ، حتى هممت أن أفرد لها فصلاً خاصّاً لولا تضخم الكتاب [١].

«أ» مرة تكون الإطالة باللفظ المخيل للتكرار ، مثل :

﴿ إنَّ الذينَ كَفَروا بآياتِنا سَوفَ نُصليهم ناراً ، كُلَّما نَضِجَتْ جُلودُهم بَدَّلْناهُم جُلوداً غيرَها ليذوقوا العَذاب ﴾ .

فالخيال هنا يظل يستعرض المشهد المروّع ، ويكرر العملية المفزعة ؛ وكلما زاد فزعاً وارتياعاً ، زاد إقبالاً على التكرار . ذلك أن الهول يشد إليه النفس ويوثقها ، كلما همت منه بالفرار !

«ب» ومرة تكون الإطالة بالنسق اللفظي ، كالتفصيل بعد الإجمال ، مع عرض الأجزاء بالتفصيل ، مثل :

﴿ والذينَ يَكْنِزونَ الذَّهَبَ والفضةَ ، ولا يُنْفِقونَها في سبيل الله ، فبَشِّرهُم بِعَذابٍ أليمٍ : يومَ يُحمى عليها في نار جَهنَّم ، فتُكوَى بها جباههم ، وجنوبُهم ، وظهورهم .. هذا ما كَنَزْتُم لأَنْفُسِكُم فذوقوا ما كُنْتُم تكْنِزون ﴾ .

فهو ـ أولاً ـ أجمل العذاب : «فبشرهم بعذاب أليم» وقطع السياق ، ليستريح المشاهد ، ويأخذ نَفَسَه ويستعد للتفصيل . ثم أخذ في التفصيل .

وهو ـ ثانياً ـ حينما بدأ التفصيل بعد الإجمال ، بدأ العملية

---

(١) خصص لها من المكتبة القرآنية كتاب خاص . صدرت طبعته الأولى عام ١٩٤٨ وطبعته الثانية صدرت في عام ١٩٥٣ .

من أول مرحلة ، وعلى مهل .. فالذهب والفضة قد صارا جمعاً لا مثنى ، بالإلماع إلى قطعهما الكثيرة ؛ وفي هذا تطويل بالكثرة : « يوم يحمى عليها » ـ لا عليهما ـ ثم ها هي ذي « يحمى عليها » فلننتظر حتى تُصهر .. لقد صُهرتْ ، فلتبدأ العملية الرهيبة : هذه هي الجباه تُكوَى .. لقد فرغوا من الكي في الجباه . فلتحرّك الأجسام للجُنوب . هذه هي الجنوب تكوى .. لقد فرغوا من الكي في الجنوب . فلتحرّك الأجسام للظهور . هذه هي الظهور تكوى .. تمهل . فلم ينته العرضُ بعد .. هناك التقريع والتأنيب ، عند الانصراف المتخيل ليتناول العذابُ جماعةً أخرى من الصف الطويل : « هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

« جـ » ومرة تكون الإطالة بتفصيل الحركات وتعددها ، وبالتكرار الذي تخيله الألفاظ معاً :

﴿ هذان خَصْمان اختَصَموا في ربهم . فالذينَ كَفَروا قُطِّعَتْ لهم ثِيابٌ من نار ؛ يُصَبُّ من فوق رؤوسهم الحميمُ ، يُصهرُ به ما في بُطونهم والجلودُ ؛ ولهم مَقامِعُ من حَديدٍ ؛ كُلَّما أرادوا أن يخرُجوا منها ـ من غَمٍّ ـ أُعيدوا فيها ، وذوقوا عذابَ الحريق ﴾ .

فهذا مشهد عنيف صاخب ، حافل بالحركة المتكررة . هذه ثياب من النار تقطع وتفصّل . وهذا حميم يصب من فوق الرؤوس ، يصهر به ما في البطون والجلود . وهذه مقامع من حديد . وهذا هو العذاب يشتد ، ويتجاوز الطاقة ؛ فيهب « الذين كفروا » من الوهج والحميم ، والضرب الأليم ، يهمون بالخروج من هذا « الغم » . وها هم أولاء يُردّون بعنف : « ذوقوا عذاب الحريق ! » . ويظل

الخيال يكرر هذه الصورة من أولى حلقاتها إلى أخيرتها ، حتى يصل إلى حلقة الخروج ثم الرد العنيف ، ليبدأ العرض من جديد !

« د » ومرة تكون الإطالة بوقف حركة المشهد ، وإخلائه من كل ما يشعر بالحركة . فهذا « ظالم » يقف يوم القيامة ، وكأنما هو واقف وحده على المسرح ، يبدئ ويعيد في الندم ؛ حتى لتهمّ بأن تقول له : كفى يا أخانا فلا فائدة ! مع أن المدة التي يستغرقها قصيرة نسبياً ؛ ولكن يخيّل إليك أنها طويلة طويلة :

﴿ ويَومَ يَعَضُّ الظالِمُ على يَدَيهِ ، يقولُ: يا لَيْتَني اتَّخَذْتُ مع الرَّسول سبيلاً . يا ويلتا ! ليتني لم أتَّخِذ فلاناً خليلاً . لقد أضَلَّني عن الذِّكْر بعد إذ جاءَني ، وكان الشيطان للإنسان خذولاً ﴾ .

فهذا الندم الطويل ، والتذكر لما مضى ، مصحوباً بالنغمة الطويلة الممطوطة ، والموسيقى المتموجة المديدة ، يخيل إليك الطول ، ولو أن اللفظ نسبياً قليل . وإطالة موقف الندم تتسق مع التأثير الوجداني المطلوب .

وشبيه بموقف الندم ، موقفُ الاعتراف . فها هم أولاء جماعة من المجرمين يُسألون . « ما سلككم في سقر ؟ » فيكون الجواب :

﴿ لم نَكُ مِن المُصَلِّين . ولم نَكُ نُطْعم المسكين . وكنا نخوضُ مع الخائضينَ . وكنا نُكَذِّب بيوم الدين . حتى أتانا اليقينُ ﴾ .

وكان حسبهم أن يقولوا ، كنا كافرين أو مكذبين . ولكن هنا يحسن الاعتراف بالتفصيل .

« هـ » وقد تشترك الوسائل الماضية كلها في إطالة عرض المشهد .

فيستخدم النسق اللفظي ، وتذكر التفصيلات . ويوقف عرض المشهد في بعض حلقاته ، كما في هذا النموذج الفريد :

﴿ فإذا نُفِخَ في الصُّور نَفخةٌ واحدةٌ ، وحُملت الأرضُ والجبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً . فيومئذ وقعت الواقِعة ، وانشَقَّتِ السماءُ فهيَ يومئذ واهية . والملَكُ على أرجائها ، ويحملُ عرشَ ربِّك فوقهم يومئذ ثمانية ، يومئذ تُعرَضونَ لا تَخْفى منكم خافية .

﴿ فأمّا مَن أوتيَ كتابه بيمينه ، فيقولُ : هاؤُمُ اقرَأُوا كِتابيَهْ ، إني ظَنَنْتُ أني مُلاقٍ حِسابِيَهْ . فهو في عيشَةٍ راضية ، في جنَّةٍ عاليةٍ ، قُطوفُها دانيَةٌ ، كلوا واشرَبوا هنيئاً بما أسْلَفْتم في الأيامِ الخالِيَة .

﴿ وأمّا من أوتيَ كتابه بشماله . فيَقول : يا لَيْتني لم أوتَ كِتابِيَهْ ، ولم أدْرِ ما حِسَابِيَهْ ، يا ليتها كانَت القاضِيَة . ما أغنى عَنِّي مالِيَهْ ، هَلَكَ عَنِّي سُلطانِيَهْ . خُذوهُ فَغُلُّوهُ ، ثم الجحيمَ صَلُّوهُ ، ثم في سلسلة ذَرْعها سَبعونَ ذراعاً فاسلكوهُ . إنَّهُ كانَ لا يُؤمنُ باللهِ العَظيم ، ولا يَحضُّ على طعام المسكين ، فليسَ لهُ اليومَ ها هنا حميمٌ ، ولا طَعامٌ إلاَّ من غِسْلينٍ ، لا يأكلهُ إلاَّ الخاطِئون ﴾ .

في هذا العرض إطالة في التفصيلات ، وإطالة في التعبيرات ، وإطالة في النغمات ، ووقف لبعض الحلقات . وتنسيقاً للجو كله تجيء السلسلة التي « ذرعها سبعون ذراعاً » فتكون إحدى طرائق التطويل بالتخييل !

٥ ـ ومن نماذج الإطالة المقصودة مواقف الموازنة بين صورتين متقابلتين : إحداهما في الحياة الدنيا ، والأخرى في يوم القيامة على النحو التالي :

﴿ إنَّ كِتابَ الأبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ، وما أدراكَ ما عِلِّيّونَ ؟ كتابٌ مَرقومٌ ؟ يَشهدهُ المقرَّبونَ . إنَّ الأبرارَ لَفِي نَعيمٍ ، على الأرائك يَنْظُرونَ ، تَعرف في وُجوهِهم نَضْرةَ النَّعيم ، يُسْقَوْنَ من رَحيقٍ مَختوم خِتامه مِسكٌ ، وفي ذلك فليتنافَسِ المتَنافِسونَ ، ومزاجهُ مِن تَسْنيمٍ ، عَيناً يَشرَبُ بها المُقَرَّبُونَ .

﴿ إنَّ الذينَ أجْرَموا كانوا من الذينَ آمَنوا يَضحكون ، وإذا مَرّوا بهم يَتغامَزونَ ، وإذا انقلَبوا إلى أهلهم انقلَبوا فَكِهين ، وإذا رأوهم قالوا : إنَّ هؤلاء لضالُّونَ ـ وما أرسلوا عليهم حَافظين !

﴿ فاليوم الذينَ آمنوا من الكفار يَضحكون ... ﴾ .

إن هذا التطويل يتناول مشهدين : مشهد النعيم العظيم ، الذي يتمتع به المقربون . ومشهد السخرية التي كانت تنالهم من المجرمين . وكلما زاد المشهدان طولاً ـ وهذا المشهد الأخير بصفة خاصة ـ كانت المفاجأة في النهاية أوقع ، عندما يقول : « فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون » . وهذا هو المقصود .

٦ ـ وتطول المواقف التي تعرض فيها قدوة في الإيمان ، يؤثر طول عرضها في الوجدان ، ويدعو المشاهدين إلى أن يشاركوا المؤمنين عبادتهم وصفاتهم المعروضة على الأنظار . وذلك في القرآن كثير ، نختار منه هذا المثال :

﴿ إنَّ في خَلْق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار لآيات لأُولي الألباب ، الذين يذكرونَ الله قياماً وقُعوداً وعلى جُنوبهم ، ويَتَفكَّرون في خَلْقِ السَّماوات والأرض : رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطلاً سُبْحانَكَ ، فَقِنا عَذابَ النَّار . ربنا إنَّكَ مَن تُدخِلِ النارَ فقد أخزَيْته ـ وما للظالمينَ من أنصار ـ ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان : أن آمنوا بربِّكم ، فآمَنَّا . ربَّنا فاغْفِر لنا ذنوبنا ، وكَفِّرْ عنَّا سيِّئاتنا ، وتوفَّنا مع الأبرار . ربنا وآتِنا ما وَعَدْتنا على رسلك ، ولا تُخْزِنا يوم القيامة . إنَّكَ لا تُخْلِفُ الميعاد ...

﴿ فاستَجابَ لهم ربهم : أني لا أضيع عَمَلَ عامل منكم من ذَكَرٍ أو أنثى ، بَعضكم من بعض . فالذينَ هاجَروا وأخرجوا من ديارهم ، وأوذوا في سبيلي ، وقاتَلوا وقُتلوا ، لأكفِّرَنَّ عنهم سيِّئاتهم ، ولأدخِلَنَّهم جنَّاتٍ تَجري من تحتها الأنهار ، ثواباً من عند الله ، والله عنده حسن الثواب ﴾ .

فمن ذا الذي لا تحدثه نفسه في أثناء هذا المشهد الطويل الثابت ، الفائض بالخشوع والخضوع ، الحافل بالتأثر العميق . وفي أثناء هذا الرد العظيم المفصل لتضحيات المؤمنين ، وللجزاء الذي ينتظرهم يوم الدين .. من ذا الذي لا تحدثه نفسه أن يسلك مع « أولي الألباب » هؤلاء ، يدعو دعاءهم ، ويخشع خشوعهم ويستجيب له ربه معهم ، فيناله مثلُ ما يناهم ؟

ومثل هذه الصورة الآدمية الحية كثير ، حيثما قصد القرآن إلى

التأثير بالقدوة في الوجدان والضمير .

* * *

وهكذا تتكشف للناظر في القرآن آفاق وراء آفاق ، من التناسق والاتساق : فن نظم فصيح . إلى سرد عذب . إلى معنى مترابط . إلى نسق متسلسل . إلى لفظ معبّر . إلى تعبير مصوّر . إلى تصوير مشخص . إلى تخييل مجسم . إلى موسيقى منغمة . إلى اتساق في الأجزاء . إلى تناسق في الإطار . إلى توافق في الموسيقى . إلى افتنان في الإخراج ...

وبهذا كله يتم الإبداع ، ويتحقق الإعجاز .

القصة في القرآن

القصة في القرآن ليست عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه ـ كما هو الشأن في القصة الفنية الحرة ، التي ترمي إلى أداء غرض فني طليق ـ إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه الدينية . والقرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شيء ؛ والقصة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها . شأنها في ذلك شأن الصور التي يرسمها للقيامة وللنعيم والعذاب ، وشأن الأدلة التي يسوقها على البعث وعلى قدرة الله ، وشأن الشرائع التي يفصلها والأمثال التي يضربها ... إلى آخر ما جاء في القرآن من موضوعات .

وقد خضعت القصة القرآنية في موضوعها ، وفي طريقة عرضها ، وإدارة حوادثها ، لمقتضى الأغراض الدينية ؛ وظهرت آثار هذا الخضوع في سمات معيّنة سنعرض لها بعد قليل . ولكن هذا الخضوع الكامل للغرض الديني ، ووفاءها بهذا الغرض تمام الوفاء ، لم يمنع بروز الخصائص الفنية في عرضها . ولا سيما خصيصة القرآن الكبرى في التعبير . وهي التصوير .

وقد لاحظنا من قبل أن التعبير القرآني يؤلف بين الغرض الديني والغرض الفني ، فيما يعرضه من الصور والمشاهد . بل لاحظنا أنه يجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني ، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية ، بلغة الجمال الفنية . والفن والدين صنوان في

أعماق النفس وقرارة الحس . وإدراك الجمال الفني دليل استعداد لتلقي التأثير الديني ، حين يرتفع الفن إلى هذا المستوى الرفيع ، وحين تصفو النفس لتلقي رسالة الجمال .

وقد أوردنا في فصل « التصوير الفني » نموذجين من القصة ، عملت فيهما الريشة المعجزة عملها ، وهي تعرضهما عرضاً أخاذاً . وقد وعدنا هناك بتفصيل البحث في القصة . فلنأخذ الآن في هذا التفصيل [1] .

أغراض القصة

سيقت القصة في القرآن لتحقيق أغراض دينية بحتة كما أسلفنا ، وقد تناولتْ من هذه الأغراض عدداً وفيراً من الصعب استقصاؤه ، لأنه يكاد يتسرب إلى جميع الأغراض القرآنية ؛ فإثبات الوحي والرسالة ، وإثبات وحدانية الله ، وتوحد الأديان في أساسها ، والإنذار والتبشير ، ومظاهر القدرة الإلهية ، وعاقبة الخير والشر ، والعجلة والتريث ، والصبر والجزع ، والشكر والبطر ، وكثير غيرها من الأغراض الدينية ، والمرامي الخلقية ، قد تناولته القصة ، وكانت أداة له وسبيلاً إليه .

فإذا نحن استعرضنا هنا أغراض القصة القرآنية ، فإنما نثبت أهم هذه الأغراض وأوضحها ، ونترك استقصاءها وتتبعها :

---

(١) هذا التفصيل على طوله يعد موجزاً للبحث الكامل الذي كنت أعددته . وأرجو أن يخرج هذا البحث الكامل في حلقة من سلسلة «مكتبة القرآن» إن شاء الله .

١ ـ كان من أغراض القصة إثبات الوحي والرسالة . فمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن كاتباً ولا قارئاً ، ولا عرف عنه أنه يجلس إلى أحبار اليهود والنصارى ؛ ثم جاءت هذه القصص في القرآن ـ وبعضها جاء في دقة وإسهاب ـ كقصص إبراهيم ويوسف وموسى وعيسى . فورودها في القرآن اتخذ دليلاً على وحي يوحى .. والقرآن ينصّ على هذا الغرض نصّاً في مقدمات بعض القصص أو في ذيولها .

جاء في أول سورة « يوسف » :

﴿ إنَّا أنْزَلْناهُ قرآناً عَربيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلون . نحنُ نَقُصُّ عليكَ أحسنَ القَصَص بما أوحَينا إليكَ هذا القرآن ، وإن كنتَ من قبله لمن الغافلين ﴾ .

وجاء في سورة « القصص » قبل عرض قصة موسى :

﴿ نتلو عليكَ من نَبأ موسى وفرعون بالحقّ لقومٍ يؤمِنون ﴾ .

وبعد انتهائها :

﴿ وما كنتَ بجانب الغرْبي إذ قَضَيْنا إلى موسى الأمرَ ، وما كنتَ من الشاهدين ، ولكنا أنشأنا قروناً فتطاولَ عليهمُ العُمُرُ ، وما كنتَ ثاوياً في أهلِ مَدْيَنَ تَتلو عليهم آياتنا ، ولكنا كنا مُرسِلين . وما كُنتَ بجانِبِ الطُّور إذْ نادَينا ، ولكنْ رَحمةً من ربِّكَ ، لِتُنْذِر قوماً ما أتاهم من نَذيرٍ منْ قَبْلكَ لعلهم يَتَذكَّرون ﴾ .

وجاء في سورة « آل عمران » في أثناء عرضه لقصة مريم :

﴿ ذلك من أنباء الغَيْبِ نوحيهِ إلَيك ، وما كُنْتَ لَدَيهم إذ يُلْقونَ أقلامَهم أيُّهُم يكفلُ مريم ، وما كنتَ لديهم إذ يختَصِمون ﴾ .

وجاء في سورة « ص » قبل عرض قصة آدم :

﴿ قُلْ : هو نَبأٌ عظيمٌ . أنتم عنهُ مُعرضون . ما كانَ ليَ منْ علْمٍ بالملأ الأعلى إذْ يختَصِمون . إنْ يُوحى إليَّ إلاَّ أنَّما أنا نَذيرٌ مبين . إذْ قال ربُّكَ للملائكَةِ : إنيِّ خالِقٌ بَشَراً من طين ... ﴾ .

وجاء في سورة « هود » بعد قصة نوح :

﴿ تِلك من أنباء الغَيب نوحيها إلَيك ، ما كنتَ تَعْلَمها أنت ولا قوْمك من قَبْل هذا ﴾ .

٢ ـ وكان من أغراض القصة : بيان أن الدين كله من عند الله ، من عهد نوح إلى عهد محمد . وأن المؤمنين كلهم أمة واحدة ، والله الواحد رب الجميع ؛ وكثيراً ما وردت قصص عدد من الأنبياء مجتمعة في سورة واحدة ، معروضة بطريقة خاصة ، لتؤيد هذه الحقيقة . ولما كان هذا غرضاً أساسياً في الدعوة ، فقد تكرر مجيء هذه القصص ، على هذا النحو ، مع اختلاف في التعبير ، لتثبيت هذه الحقيقة وتوكيدها في النفوس . نضرب لذلك مثلاً ما جاء في سورة « الأنبياء » :

﴿ ولَقَد آتيْنا موسى وهارونَ الفُرقانَ[١] وضياءً وذِكْراً لِلْمتَّقين ،

---

(١) في وصف التوراة بأنها « الفرقان » ما يساعد على هذا التقريب بين الدينين حتى في صفة الكتاب ، فالفرقان اسم كذلك للقرآن .

الذينَ يخشَوْنَ ربهم بالغَيْبِ ، وهم مِن السّاعةِ مُشْفِقون . وهذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أنْزَلْناهُ . أفأنتمْ لهُ مُنْكرون ؟

﴿ ولَقَد آتيْنا إبراهيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ ، وكُنَّا به عالمينَ . إذ قالَ لأبيهِ وقوْمِهِ : ما هذهِ التماثيلُ التي أنتم لها عاكِفُونَ ؟ قالوا : وَجَدنا آباءَنا لها عابدين .. ﴾ . إلى قوله : ﴿ وأرادوا به كَيْداً فجعلناهم الأخسَرين ، ونَجَّيْناهُ ولوطاً إلى الأرضِ التي باركنا فيها للعالمين . وَوَهَبنا له إسْحٰق ويَعقوبَ نافِلَةً وكُلاً جَعَلْنا صَالِحين ، وجعَلناهُم أئمةً يهْدونَ بأمْرنا ، وأوْحَينا إليهم فِعْلَ الخَيراتِ ، وإقامَ الصلاة ، وإيتاءَ الزكاةِ ، وكانوا لنا عابدين .

﴿ ولوطاً آتيناهُ حُكماً وعِلْماً ، ونَجّيناهُ من القريَةِ التي كانتْ تعملُ الخبائث . إنهم كانوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقين ، وأدخلناهُ في رَحمتنا ، إنه من الصالِحين .

﴿ ونوحاً إذْ نادَى مِن قَبْلُ ، فاسْتَجَبْنا لَه ، فَنَجَّيْنَاهُ وأهلهُ من الكَرْبِ العظيم ؛ ونصَرْناهُ من القَوْمِ الذينَ كَذَّبوا بآياتِنا . إنهم كانوا قومَ سَوْءٍ ، فأغْرَقناهُم أجْمَعين .

﴿ وداودَ وسليمانَ إذْ يَحْكُمان في الحَرْثِ ، إذْ نَفَشَتْ فيه غَنَمُ القَوْم ، وكنا لِحُكْمِهِم شاهدين . فَفَهَّمْناها سليمانَ ـ وكُلاً آتينا حُكْماً وعِلماً ـ وسَخَّرْنا مع داودَ الجبالَ يُسَبِّحْنَ والطَّيرَ ، وكنّا فاعلين ؛ وعَلَّمناهُ صَنْعَةَ لَبوس لكُم لِتُحصِنَكُم من بَأْسِكُم .

فهل أنتم شاكرون ؟

﴿ ولِسُلَيمانَ الريحَ عاصِفةً تَجري بأمْرِه إلى الأرض التي بارَكْنا فيها ، وكُنّا بكُلِّ شيء عالمين . ومن الشياطين مَنْ يَغوصون له ، ويعملون عَمَلاً دون ذلك ، وكنا لهم حافِظين .

﴿ وأيّوبَ إذ نادى ربّه أني مَسَّنيَ الضُّرُّ وأنتَ أرْحَمُ الراحِمين . فاسْتَجَبْنا لَهُ ، فَكَشَفْنا ما به من ضُرٍّ ، وآتَيْناهُ أهله ، ومثلهم معهم ، رحمَةً من عندنا ، وذكرى للعابدين .

﴿ وإسماعيلَ وإدريسَ وذا الكِفْلِ . كُلٌّ من الصّابرينَ . وأدْخَلْناهُم في رَحْمَتِنا إنهم من الصالِحين .

﴿ وذا النون[1] إذْ ذَهَبَ مُغاضِباً ، فَظَنَّ أنْ لنْ نَقْدِرَ عليهِ ، فنادَى في الظُّلُماتِ ، أنْ لا إلهَ إلاّ أنْتَ سُبْحانَكَ إنيِّ كُنْتُ من الظالمين . فاسْتَجَبنا له . ونجيناهُ من الغَمِّ ، وكذلك نُنْجي المؤمنين .

﴿ وزكريا إذ نادى ربّه . ربِّ لا تَذَرْني فَرْداً ، وأنتَ خَيْرُ الوارثين . فاسْتَجَبنا له ، ووهَبْنا له يَحيى ، وأصْلَحنا له زوجَهُ . إنهم كانوا يُسارعونَ في الخَيرات ، ويَدْعونَنا رَغباً ورَهباً ، وكانوا لنا خاشِعين .

﴿ والتي أحْصَنَتْ فَرْجَها[2] ، فَنَفَخْنا فيها من رُوحِنا ، وجَعَلناها

---

(1) يونس صاحب الحوت .

(2) مريم .

وابنها آيةً لِلعالَمين .

﴿ إنَّ هذه أُمَّتكُم ، أُمَّةً واحدةً ، وأنا ربّكم فاعبدون ﴾ ...

وهذا هو الغرض الأصيل ، من هذا الاستعراض الطويل . وغيره من الأغراض الأخرى ، يأتي عرَضاً وفي ثناياه ..

٣ ـ وكان من أغراض القصة بيان أن الدين كله موحد الأساس ـ فضلاً على أنه كله من عند إله واحد ـ وتبعاً لهذا كانت ترد قصص كثير من الأنبياء مجتمعة كذلك . مكررة فيها العقيدة الأساسية ، وهي الإيمان بالله الواحد على نحو ما جاء في سورة « الأعراف » :

﴿ لقدْ أرْسَلْنا نوحاً إلى قومهِ ، فقالَ : يا قوْم اعْبُدوا اللهَ ما لَكُم من إلهٍ غيره ﴾ ... إلخ .

﴿ وإلى عادٍ أخاهم هوداً قال ؛ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره ﴾ .. إلخ .

﴿ وإلى ثمودَ أخاهُم صالِحاً قالَ : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ ... إلخ .

﴿ وإلى مَدْيَنَ أخاهُم شُعَيباً قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره ﴾ ... إلخ .

فهذا التوحيد لأساس العقيدة ، يشترك فيه جميع الأنبياء في جميع الأديان ، وترد قصصهم مجتمعة في هذا السياق . لتأكيد ذلك الغرض الخاص .

٤ ـ وكان من أغراض القصة بيان أن وسائل الأنبياء في الدعوة موحدة ، وأن استقبال قومهم لهم متشابه ـ فضلاً على أن الدين من

عند إله واحد ، وأنه قائم على أساس واحد ـ وتبعاً لهذا كانت ترد قصص كثير من الأنبياء مجتمعة أيضاً ، مكررة فيها طريقة الدعوة ، على نحو ما جاء في سورة « هود » :

﴿ ولقد أرْسَلْنا نوحاً إلى قَوْمِهِ : إنيِّ لَكُم نَذيرٌ مُبينٌ . ألاَّ تَعْبدوا إلاَّ الله . إنيِّ أخافُ عَلَيْكُم عَذابَ يوم ٍ أليم . فقالَ الملأُ الذينَ كَفَروا من قَوْمِهِ ، ما نَراكَ إلاَّ بَشَراً مِثْلنا ، وما نَراكَ اتَّبَعَكَ إلاَّ الذينَ هُم أراذِلُنا بـادِيَ الرَّأي ، وما نرى لكم علَينا من فضل ٍ بل نَظُنُّكُمْ كاذِبينَ ﴾ ... إلى أن يقول : ﴿ ويا قوم ِ لا أسْألكم عليهِ مالاً إنْ أجْرِيَ إلاَّ على الله ﴾ وإلى أن يقولوا له : ﴿ يا نوحُ قَـدْ جادَلْتَنا فأكْـثَرْتَ جِـدالَنا ، فأْتِـنا بما تَعِدُنا إن كُنتَ مِنَ الصادِقينَ ﴾ ... إلخ .

﴿ وإلى عادٍ أخاهُم هوداً قال : يا قوم اعبُدوا اللهَ ما لَكُم مِنْ إلهٍ غيره . إنْ أنتم إلاَّ مُفْتَرونَ . يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إنْ أجْرِيَ إلاَّ على الذي فَطَرَني ، أفَلاَ تَعْقِلون ؟ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ قالوا : يا هودُ ما جئتَنا بِبَيِّنَةٍ ، وما نحنُ بتاركي آلِهَتِنا عن قَوْلِكَ ، وما نحنُ لكَ بمؤمنين . إن نقول : إلاَّ اعْتَراكَ بَعضُ آلِهَتِنا بسُوءٍ . قالَ إني أُشْهِدُ اللهَ واشْهَدوا أني بريءٌ مما تُشركونَ من دونه ، فكيدوني جميعاً ثم لا تُنْظَرون ﴾ ... إلخ .

﴿ وإلى ثَمودَ أخاهُم صَالِحاً ، قالَ يا قوم اعبدوا الله ما لكم

من إلهٍ غيره ، هو أنشأكُم من الأرضِ واستَعمَركم فيها ، فاستَغفِروه ثمَّ توبوا إليهِ . إنَّ رَبي قريبٌ مُجيب . قالوا : يا صالِحُ ، قد كُنْتَ فينا مَرْجُوّاً قبلَ هذا . أتَنْهانا أنْ نَعبُدَ ما يَعبُدُ آباؤنا ؟ وإنَّنا لَفِي شَكٍّ مما تَدْعونا إليه مُريب ﴾ ... إلخ .

٥ ـ وكان من أغراض القصة بيان الأصل المشترك بين دين محمد ودين إبراهيم بصفة خاصة ، ثم أديان بني إسرائيل بصفة عامة ؛ وإبراز أن هذا الاتصال أشد من الاتصال العام بين جميع الأديان . فتكررت الإشارة إلى هذا في قصص إبراهيم وموسى وعيسى :

﴿ إنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الأولى . صُحُفِ إبراهيمَ وموسى ﴾ .
﴿ أمْ لم يُنبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفَّى . ألاَّ تزرُ وازرَةٌ وِزْرَ أُخرَى ؟ ﴾ . ﴿ إنَّ أوْلىٰ الناس بإبراهيمَ لَلَّذينَ اتَّبَعوهُ وهذا النبيّ والذينَ آمَنوا ﴾ . ﴿ مِلَّةَ أبيكُم إبراهيمَ هو سمّاكُم المسلمينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ . ﴿ وقَفَينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مُصَدِّقاً لما بينَ يَدَيهِ مِنَ التَّوراة ، وهُدَىً ومَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِين ... ﴾ إلى أن يقول : ﴿ وأنزَلْنا إلَيكَ الكِتابَ بالحَقِّ مُصَدِّقاً لما بينَ يَدَيه من الكتابِ ، ومُهَيْمِناً علَيهِ ﴾ .

٦ ـ وكان من أغراض القصة بيان أن الله ينصر أنبياءه في النهاية ويهلك المكذبين ، وذلك تثبيتاً لمحمد ، وتأثيراً في نفوس من يدعوهم إلى الإيمان : « وكلاًّ نَقُصُّ عليك مِن أنباء الرُّسُل ما نثبت به فؤادَك .

وجاءك في هذه الحق وموعظةٌ وذكرى للمؤمنين » . وتبعاً لهذا الغرض كانت ترد قصص الأنبياء مجتمعة ، مختومة بمصارع من كذبوهم . ويتكرر بهذا عرض القصص كما جاء في سورة « العنكبوت » :

﴿ ولقد أرسَلْنا نوحاً إلى قَوْمِهِ فَلبِثَ فيهم ألْفَ سنة ـ إلاَّ خمسينَ عاماً ـ فأخَذَهُمُ الطُّوفان وهم ظالمونَ ، فأنجيناهُ وأصْحابَ السفينةِ ، وجعلناها آيَةً لِلعالمين .

﴿ وإبراهيم إذْ قالَ لِقَومِهِ : اعبدوا الله واتَّقوهُ ، ذلكم خيرٌ لكم إنْ كُنتُم تَعْلَمون ... ﴾ إلى أن يقول : ﴿ فما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إلاَّ أن قالوا : اقتلوهُ أو حَرِّقوه . فأنْجاهُ الله مِنَ النَّار . إنَّ في ذلك لآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤمِنونَ ﴾ ... إلخ .

﴿ ولوطاً إذْ قالَ لِقَوْمِهِ . إنَكم لَتأْتونَ الفاحِشَةَ ما سَبَقَكُم بها من أحَدٍ مِنَ العالَمينَ ... ﴾ إلى أن يَقول : ﴿ إنّا مُنْزلونَ على أهل هذه القرية رجزاً من السماءِ بما كانوا يَفْسُقون ، ولقد تَركنا منها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلون ﴾ .

﴿ وإلى مَدْيَنَ أخاهُم شُعَيْباً فقال : يا قَوْم اعبدوا اللهَ وارْجـوا اليوم الآخر ، ولا تَعْثُوا في الأرْض مُفْسِدين . فَكَذَّبوهُ فأَخَذَتهم الرَّجْفَةُ ، فأصْبَحوا في دارهم جاثمين ﴾ .

﴿ وعاداً وثمودَ ـ وقد تَبيَّنَ لكم من مساكنهم ـ وزَيَّنَ لهم الشيطان أعمالهم ، فصدَّهُم عن السَّبيل وكانوا مُسْتَبصِرين ﴾ .

﴿ وقارونَ وفرعونَ وهامانَ . ولقد جاءَهُم موسى بالبيِّناتِ ، فاستَكْبروا في الأرض وما كانوا سابقين ﴾ .

﴿ فكُلاًّ أخَذْنا بذَنْبِهِ . فنهم مَنْ أرْسَلْنا عليه حاصِباً ، ومنهم من أخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ، ومنهم من خَسَفْنا به الأرضَ ، ومنهم مَنْ أغرقنا . وما كانَ اللهُ لِيَظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يَظْلِمون ﴾ .

وتلك هي النهاية الواحدة للمكذبين .

٧ ـ وكان من أغراض القصة تصديق التبشير والتحذير ، وعرض نموذج واقع من هذا التصديق ، كالذي جاء في سورة « الحجر » :

﴿ نَبِّـئْ عِبادي أني أنا الغفورُ الرَّحيمُ ، وأنَّ عَذابي هوَ العذابُ الأليم .. ﴾ .

فتصديقاً لهذا وذلك جاءت القصص على النحو التالي :

﴿ ونَبِّئْهُمْ عن ضَيْفِ إبراهيمَ ، إذ دَخَلوا عَلَيهِ ، فقالوا : سلاماً . قالَ : إنَّا مِنْكُم وَجِلون . قالوا : لا تَوْجَلْ . إنَّا نُبَشِّرُكَ بغلامٍ عَليمٍ ﴾ ... إلخ .

وفي هذه القصة تبدو « الرحمة » .

ثم : ﴿ فلمَّا جاءَ آل لُوطٍ المرْسَلونَ . قالَ إنَّكُم قَوْمٌ مُنْكَرون . قالوا : بل جِئْناكَ بما كانوا فيهِ يمترون ، وأتَيناكَ بالحَقِّ وإنَّـا لَصادِقون . فَأَسْرِ بِأَهْلِك بقِطْعٍ مِن الليل ، واتَّبِعْ أدبارهم ، ولا يَلْتَفِتْ منكم أحَدٌ ، وامْضوا حيثُ تُؤمَرون . وقَضَينا إليه ذلكَ

الأمرَ : أنَّ دابرَ هؤلاء مَقْطوعٌ مُصْبحين ... ﴾ إلخ .

وفي هذه القصة تبدو « الرحمة » في جانب لوط ، ويبدو « العذاب الأليم » في جانب قومه المهلكين .

ثم : ﴿ ولقد كَذَّبَ أصحابُ الحِجْرِ المُرْسَلين ، وآتيْناهُمْ آياتِنا فكانوا عنها مُعْرضين ، وكانوا يَنْحَتونَ مِنَ الجبال بيوتاً آمنين ، فأَخَذَتْهم الصَّيْحَةُ مُصْبحين ، فما أَغْنَى عَنْهُمْ ما كانوا يَكسبون ﴾ .

وفي هذه القصة يبدو « العذاب الأليم » للمكذبين .

وهكذا يصدق الأنبياء ، ويبدو صدقه في هذا القصص الواقع ، بهذا الترتيب .

٨ ـ وكان من أغراض القصة بيان نعمة الله على أنبيائه وأصفيائه ، كقصص سليمان وداود وأيوب وإبراهيم ومريم وعيسى وزكريا ويونس وموسى ، فكانت ترد حلقات من قصص هؤلاء الأنبياء تبرز فيها النعمة في مواقف شتى ، ويكون إبرازها هو الغرض الأول ، وما سواه يأتي في هذا الموضع عرضاً .

٩ ـ وكان من أغراض القصة ، تنبيه أبناء آدم إلى غواية الشيطان ، وإبراز العداوة الخالدة بينه وبينهم منذ أبيهم آدم ، وإبراز هذه العداوة عن طريق القصة أروع وأقوى ، وأدعى إلى الحذر الشديد من كل هاجسة في النفس تدعو إلى الشر ، وإسنادها إلى هذا العدو الذي لا يريد بالناس الخير !

ولما كان هذا موضوعاً خالداً ، فقد تكررت قصة آدم في مواضع شتى .

١٠ ـ وكان للقصة أغراض أخرى متفرقة . منها :

بيان قدرة الله على الخوارق : كقصة خلق آدم . وقصة مولد عيسى . وقصة إبراهيم والطير الذي آبَ إليه بعد أن جعل على كل جبل منه جزءاً . وقصة « الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها » . وقد أحياه الله بعد موته مئة عام .

وبيان عاقبة الطيبة والصلاح ، وعاقبة الشر والإفساد . كقصة ابنيْ آدم . وقصة صاحب الجنتين . وقصص بني إسرائيل بعد عصيانهم . وقصة سد مأرب . وقصة أصحاب الأخدود .

وبيان الفارق بين الحكمة الإنسانية القريبة العاجلة ، والحكمة الكونية البعيدة الآجلة . كقصة موسى مع « عبد من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلّمناه من لدنا علماً » وسنعرضها بالتفصيل في مناسبة أخرى .

إلى آخر هذه الأغراض الوعظية ، التي كانت تساق لها القصص فتفي بمغزاها .

آثار خضوع القصة للغرض الديني

خضعت القصة في القرآن للغرض الديني ـ كما أسلفنا ـ فترك هذا الخضوع آثاراً واضحة في طريقة عرضها ، بل في مادتها . ونحن نعرض فيما يلي ، أوضح هذه الآثار :

« أ » لقد كان أول أثر لهذا الخضوع أن ترد القصة الواحدة ـ في معظم الحالات ـ مكررة في مواضع شتى . ولكن هذا التكرار لا يتناول القصة كلها ـ غالباً ـ إنما هو تكرار لبعض حلقاتها ، ومعظمه إشارات سريعة لموضع العبرة فيها ؛ أما جسم القصة كله ،

فلا يكرر إلا نادراً . ولمناسبات خاصة في السياق ، كما ضربنا له مثلاً عند الكلام على أغراض القصة .

وحين يقرأ الإنسان هذه الحلقات المكررة ملاحظاً السياق الذي وردت فيه يجدها مناسبة لهذا السياق تماماً ، في اختيار الحلقة التي تعرض هنا أو تعرض هناك ، وفي طريقة عرضها كذلك . ويجب أن نذكر دائماً أن القرآن كتاب دعوة دينية ، وأن التناسق بين حلقة القصة التي تُعرض والسياق الذي تُعرض فيه هو الغرض المقدم . وهذا يتوافر دائماً ، ولا يخل بالسمة الفنية إطلاقاً .

على أن هناك ما يشبه أن يكون نظاماً مقرراً في عرض الحلقات المكررة من القصة الواحدة ـ يتضح حين تقرأ بحسب ترتيب نزولها ـ فمعظم القصص يبدأ بإشارة مقتضبة ، ثم تطول هذه الإشارات شيئاً فشيئاً ، ثم تعرض حلقات كبيرة تكوّن في مجموعها جسم القصة ـ وقد تستمر الإشارات المقتضبة فيما بين عرض هذه الحلقات الكبيرة عند المناسبات ـ حتى إذا استوفت القصة حلقاتها ، عادت هذه الإشارات هي كل ما يعرض منها .

ونضرب مثالاً على هذا النظام ، قصة موسى . إذ إنها أشد القصص في القرآن تكراراً . فهي من هذه الوجهة تعطي فكرة كاملة عن هذا التكرار .

وردت هذه القصة في حوالي الثلاثين موضعاً . نذكر أهمها ونهمل بعض المواضع التي ورد فيها الاسم مجرداً . فكيف جاءت في هذه المواضع ؟ إنها تسير في المراحل التالية :

١ ـ في سورة الأعلى (السورة الثامنة في النزول) إشارة قصيرة : « إن هذا لفي الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى » . وإشارة

قريبة منها في النجم (السورة ٢٣) .

٢ ـ وفي الفجر (السورة العاشرة) إشارة إلى فرعون بدون ذكر موسى مع عاد وثمود : « ... وفرعون ذي الأوتاد ، الذين طَغَوْا في البلاد ، فأكثروا فيها الفسادَ ، فصبَّ عليهم ربّكَ سوطَ عذاب » . وإشارة قريبة منها في سورة البروج (السورة ٢٧) .

٣ ـ وفي سورة الأعراف (٣٩) بدأ التفصيل الأول للقصة في معرض قصص مشترك مع نوح وهود ولوط وشعيب ، اتحدت فيه صيغة الدعوة وصيغة التكذيب ، والعقاب الذي أخذ المكذبين .

وقد بدأت القصة هنا برسالة موسى وهارون إلى فرعون وملئه « ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه ... » ثم ذكرت معجزة العصا واليد البيضاء . وجمع السحرة . والمباراة بينهم وبين موسى ، وغلبته عليهم ، وإيمانهم به . وتعذيب فرعون لبني إسرائيل بعد ذلك . وتسليط الجراد والقُمَّل والضفادع والدم على فرعون وقومه ، واستغاثتهم بموسى ، وكفّ الأذى عنهم ، وعودتهم لتعذيب بني إسرائيل . ثم خروج هؤلاء من مصر . وبعد الخروج طُلبهم من موسى أن يتخذ لهم إلهاً كما للمصريين آلهة ، وتذكيره لهم بربهم . ثم ميعاد موسى مع ربه بعد ثلاثين ليلة زيدت إلى أربعين ، وطلبه رؤية ربه ، ودك الجبل وانصعاق موسى وإفاقته . وعودته إلى قومه حيث وجدهم قد اتخذوا لهم عجلاً إلهاً ، وغضبه على أخيه . ثم اختيار سبعين رجلاً منهم لميقات ربه ، وغشيتهم بالجبل لما طلبوا رؤية الله جهرة وإفاقتهم ، ثم دعاؤهم بطلب الرحمة ، فالرد عليهم بأن الرحمة قد كتبت للمؤمنين الذين يتبعون النبي الأميَّ ...

٤ ـ ثم ترد إشارتان للرسالة والتكذيب وإهلاك المكذبين ،

في قصص مشترك إحداهما في الفرقان (٤٢) والثانية في مريم (٤٤) .

٥ ـ وفي سورة طه (٤٥) يبدأ تفصيل آخر . يبدأ من حلقة أسبق من حلقة الرسالة التي ذكرت في « الأعراف » تلك هي رؤية موسى للنار من جانب الطور :

﴿ وهل أتاكَ حديثُ موسى ، إذْ رأى ناراً فقالَ لأهْلِهِ : امكثوا إنيِّ آنسْتُ ناراً لَعَلِّي آتيكم منها بِقبسٍ أو أجِدُ على النارِ هُدىً . فلما أتاها نُودِيَ يا موسى ، إني أنا ربّكَ فاخْلَعْ نَعْلَيكَ ، إنَّكَ بالوادي المقدَّسِ طُوىً ، وأنا اخترْتُكَ فاستمع لما يُوحَى ... ﴾

وبعد أن يُكلَّف الذهابَ إلى فرعون ، يحاور ربه ليرسل معه هارون ، يشد أزره ويكون وزيراً له ، فيذكّره الله بنعمته عليه في مولده ، ورده إلى أمه ـ في إشارة سريعة ـ ثم تسير القصة كما سارت في الأعراف (مع حذف آيات الجراد والقمل والضفادع والدم ، وعهد فرعون لبني إسرائيل ونكثه . ومع زيادة حلقة وهي أن السامريّ هو الذي صنع العجل ، وتفصيل قصة صنعه . ويذكر الميعاد بسرعة ويغفل الميقات) .

٦ ـ وفي سورة الشعراء (٤٧) تبدأ القصة من حلقة الرسالة ، وتسير في الخطوات التي سارت فيها إلى حلقة الخروج ، ولكنها تزيد هنا أمرين : الأول ذكر موسى أنه قتل رجلاً من المصريين فهو يخشى أن يؤخذ به ، وتذكير فرعون له بأنه قد رُبِّي فيهم وليداً وفعل هذه الفعلة ومضى . والثاني ذكر انفلاق البحر كالطود العظيم . وهذا وذلك مع تنويع في الحوار بين فرعون وموسى ، وإثبات إلهه بصفاته . وتنويع في الحوار مع السحرة كذلك .

٧ ـ ثم تذكر في سورة النمل (٤٨) حلقة التكذيب والعقاب مجملة مع قصص مشترك .

٨ ـ وفي سورة القصص (٤٩) تبدأ القصة من أول حلقة فيها : من مولد موسى في إبان اضطهاد قومه . فوضعه في التابوت وإلقائه في البحر . والتقاط آل فرعون له ، وتحريم المراضع عليه . وقول أمه لأخته أن تقص أثره . ومعرفتها بأمره ، وإشارتها على آل فرعون بمرضع للطفل هي أمه . ثم كبره . ثم قتله للمصري ، ومحاولته قتل آخر ، ،وتهديده إياه بإفشاء سر القتلة الأولى . ونصح رجل له بالهرب وقد جاءه من أقصى المدينة يسعى . وخروجه إلى أرض مَدْيَنَ . والتقائه ببنتيْ شعيب ، وسقيه لهما ، وإعجاب إحداهما به ، وحضها أبيها على استخدامه . وعمله مع شعيب . وزواجه بابنته حسب شرطه . ثم انفصاله عنه وذهابه بأهله . ثم رؤيته النار (التي بدأ منها القصة في سورة طه) . ثم تسير القصة كما سارت هناك ، بزيادة واحدة هي تهكم فرعون في قوله : « فأوقدْ لي يا هامانُ على الطين فاجعل لي صَرْحاً ، لعلي أطلعُ إلى إله موسى ! » . وتنتهي عند حلقة غرق فرعون ، بعد خروج موسى .

٩ ـ ثم في سورة الإسراء (٥٠) إشارة سريعة إلى إغراق فرعون والتمكين لبني إسرائيل .

١٠ ـ وفي سورة يونس (٥١) عرض قصير ـ في وسط قصص مشترك ـ لبيان عاقبة التكذيب . وقد ذكرت فيه حلقة السحرة باختصار ، وتجاوز بني إسرائيل البحر ، واتباع فرعون لهم وغرقه . ولكن زاد في حلقة الغرق أن يقول : « حتى إذا أدركه الغرق قال : آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل » ! فكان الرد عليه :

« الآن ؟ وقد عصيتَ قبلُ وكنت من المفسدين ؟ فاليومَ نُنجِّيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية » . وهي زيادة لا ترد إلا في هذا الوضع .

١١ ـ ثم في سورة هود (٥٢) إشارة سريعة إلى الإهلاك بعد التكذيب في صدد قصص مشترك .

١٢ ـ وفي سورة غافر ـ أو المؤمن ـ (٦٠) تعرض حلقة الحوار بين فرعون وموسى . ولكن يزيد في هذا الحوار قول فرعون : « ذروني أقتلْ موسى ولْيَدْعُ ربه » . وظهور رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ، يشير عليهم ألاَّ يقتلوه ، فقد يكون على صراط مستقيم . وهي زيادة لا ترد في غير هذا الموضع .

١٣ ـ وفي سورة فُصِّلَتْ (٦١) إشارة سريعة . وكذلك في سورة الزخرف (٦٣) إشارتان سريعتان . ولكن يزيد هنا أن فرعون يقول :

﴿ أَلَيْسَ لي مُلْكُ مِصرَ وهذه الأنهار تجري من تحتي ؟ أفلا تُبْصِرون ؟ أمْ أنا خيْرٌ من هذا الذي هوَ مَهينٌ ولا يَكادُ يُبين ؟ ﴾ .

وهي زيادة لا ترد إلا في هذه السورة .

١٤ ـ وفي سورة الذاريات (٦٧) إشارة خاطفة إلى إرسال موسى إلى فرعون بسلطان مبين ، وتكذيبه وإهلاكه .

١٥ ـ وفي الكهف (٦٩) تعرض حلقة مقابلة موسى لعبد من عباد الله أوتي من لدنه رحمة وعُلم علماً . وقد طلب إليه موسى أن يصحبه ليستفيد من علمه ، فأخبره أنه لن يصبر معه ليعلمه ، فوعده موسى أن يصبر ، ثم لم يستطع معه صبراً ، لأن الرجل أخذ

في تصرفات لا يدرك كنهها موسى ، ولا يعرف لها مغزى . فشرح له الرجل العالم سرها وافترقا . وهي حلقة تذكر مرة واحدة .

١٦ ـ ثم في سورتي إبراهيم والأنبياء (٧٢ ، ٧٣) إشارتان سريعتان . المهم في ثانيتهما وصف التوراة بأنها «فرقان» على نحو ما سبق في هذا الفصل .

١٧ ـ ويأتي تفصيل آخر في سورة البقرة (٨٧) في معرض تذكير بني إسرائيل بنعم الله عليهم ، ومقابلتهم هذه النعم بالمماطلة والجحود ـ وفي هذا المعرض تكرر بعض الحلقات التي سبقت في قصة موسى ـ ومن ذلك إعطاؤهم المن والسلوى ولكن يزيد هنا تبطرهم على هذه النعم ، وطلبهم أطعمة منوّعة بدل المن والسلوى . ثم حلقة البقرة التي أمرهم الله بذبحها ، فجعلوا يتلكأون ، ويسألون عن صفاتها ويتمحلون فيها ، حتى استنفدوا المعاذير ، «فذبحوها وما كادوا يفعلون» . وهي ـ كما ترى ـ حلقة جديدة لم تذكر من قبل أصلاً .

١٨ ـ وفي سورة النساء (٩٢) إشارة إلى طلبهم أن يروا الله جهرة للتدليل على عنتهم ومِحالهم .

١٩ ـ وفي سورة المائدة (١١٢) تذكر حلقة وقوفهم على أبواب الأرض المقدسة لا يدخلون :

﴿ قالوا : يا موسى إنَّ فيها قَوْماً جَبَّارين ، وإنَّا لَنْ نَدْخلها حتى يَخرُجوا منها ، فإنْ يَخرجوا منها فَإنَّا داخِلون ﴾ !... إلى قوله : ﴿ قالوا : يا موسى إنَّا لن نَدخُلها أبداً ما داموا فيها فاذْهَبْ أنتَ ورَبُّكَ فقاتِلا . إنَّا ها هُنا قاعِدون . قال : ربِّ إنِي لا أملِكُ

إلاَّ نَفْسِي وأخي فَافْرُقْ بَيْنَنا وبين القَوْم الفاسقين . قال : فإنَّها محرَّمَة عليهم أربعينَ سنةً يَتيهونَ في الأرض ، فلا تأْسَ على القوم الفاسقين ﴾ .

ويتركهم هنالك في التيه فلا يأتي بعد ذلك ذكر لموسى . ولا يذكر عن بني إسرائيل إلا تفرقهم وعداؤهم للمسيح والمسلمين .

هذه القصة أشد القصص تكراراً في القرآن . وقد رأينا من هذا الاستعراض نوع التكرار ؛ وأنه ـ فيما عدا ستة مواضع ـ إشارات وعظية إلى القصة اقتضاها السياق ؛ أما الحلقات الأساسية فلم تكرر تقريباً ؛ وإذا كررت حلقة منها جاءت بشيء جديد في تكرارها . وهذه القصة نموذج للقصص الأخرى ، وعلى ضوئها ندرك أن ليس في القصص القرآني ذلك التكرار المطلق ، الذي يُخَيَّل لبعض من يقرأون القرآن ، بلا تدقيق ولا إمعان .

* * *

« ب » وكان من آثار خضوع القصة في القرآن للغرض الديني ـ غير التكرار ـ أن تعرض بالقدر الذي يكفي لأداء هذا الغرض ، ومن الحلقة التي تتفق معه ؛ فمرة تعرض القصة من أولها ، ومرة من وسطها ، ومرة من آخرها ؛ وتارة تعرض كاملة ، وتارة يكتفى ببعض حلقاتها ، وتارة تتوسط بين هذا وذاك ، حسبما تكمن العبرة في هذا الجزء أو ذاك . ذلك أن الهدف التاريخي لم يكن من بين أهداف القرآن الأساسية كالهدف القصصي سواء ؛ فسارت القصة وهدفها الأول هو الهدف الديني ، على النحو التالي :

١ ـ نجد قصصاً تعرض منذ الحلقة الأولى : حلقة ميلاد بطلها ، لأن في مولده عظة بارزة ، وذلك مثل :

قصة آدم (منذ خلقه) وفيها مظهر لقدرة الله ، وكمال علمه ، ونعمته على آدم وبنيه . وفي حادثة إبليس معه بما فيها من أغراض دينية أشرنا من قبل إليها .

ومثل مولد عيسى ابن مريم : وهو يعرض بتفصيل كامل ، ذلك أن مولده هو الآية الكبرى في حياته ؛ وحول هذا المولد قام الجدل كله ؛ وعنه تفرعت كل قضايا المسيحية قبل الإسلام وبعده .

وقصة مريم : فقد نُذرت لله وهي في بطن أمها ، وتولى كفالتها زكريا ؛ ثم رزقت منذ مولدها رزقاً حسناً من عند الله ، فكانت

﴿كُلَّما دَخَلَ عليها زَكَرِيا المِحْرابَ وَجَدَ عندها رزْقاً . قال : يا مَرْيَمُ أَنّى لَكِ هذا ؟ قالت : هو من عِنْدِ الله﴾ ...

ثم تطوى حلقاتها حتى تأتي حلقة ميلاد عيسى . وهي الحلقة الهامة الثانية في حياتها .

وقصة موسى : لأن لمولده في عهد اضطهاد بني إسرائيل ، وتذبيح الذكور من أطفالهم ، ونجاته هو من ذلك مع وجوده بين آل فرعون أنفسهم .. قيمة خاصة في بيان رعاية الله له ، وإعداده إعداداً خاصّاً للمهمة التي سينهض بها . ثم تذكر من حياته حلقاتها ذات المغزى .

وإسماعيل وإسحاق تعرض حلقة مولدهما ، لأن في هذا المولد عبرة . فأولهما رُزقه إبراهيم على الكبر ، وأسكنه ـ على الرغم منه ـ بجوار البيت المحرم ؛ والثاني بُشِّر به وامرأته عجوز . وقد بلغ من الكبرِ عتِياً .

وكذلك يذكر مولد يحيى لزكريا ؛ بعد أن وهن منه العظم واشتعل الرأس شيباً .

٢ ـ ونجد قصصاً أخرى تعرض من حلقة متأخرة نسبياً :

فيوسف تبدأ قصته صبيّاً . فن هذه الحلقة يرى الرؤيا التي تُسيِّر حياته كلها ، وتؤثر في مستقبله جميعاً ، إذ يرى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين ؛ فيدرك أبوه مغزاها ويقربه إليه ، فيغار إخوته منه .. ثم تسير القصة في طريقها المرسوم بعد هذه الرؤيا .

وإبراهيم تبدأ قصته فتىً ينظر في السماء فيرى نجماً ، فيظنه إلٰهه ، فإذا أفل قال لا أحب الآفلين . ثم ينظر مرة أخرى فيرى القمر ، فيظنه ربه ؛ ولكنه يأفل كذلك ، فيتركه ويمضي . ثم ينظر إلى الشمس فيعجبه كبرها ، ويظنها ـ ولا شك ـ إلهاً ! ولكنها تخلف ظنه هي الأخرى ، فيفيء إلى ربه الذي لا يُرى .. ويدعو أباه وقومه إلى هذا الإلٰه الواحد فلا يجيبونه ، فيحطم أصنامهم في غفلة منهم حيث يقولون : « سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم » ويهمون بإحراقه ، فينجيه الله منهم : « قلنا : يا نارُ كوني بَرْداً وسَلاماً على إبراهيم » .

وتبدأ قصة داود وهو في مقتبل الشباب . تبدأ بحلقة صراعه لجالوت ـ وهو فارس ضخم مشهور ـ فيغلب عليه داود ، لأن الله ينصره . ومن هنا تبدأ قصته .

ولعل سليمان كان في مثل سن أبيه حينما جلس معه يحكم في قضية الحرث . « إذ نَفَشَت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين » .

ولقد كان هذا الحكم المبكر دلالة على ما أعدَّه الله لسليمان من تدبير الملك الأكبر .

٣ ـ ثم نجد قصصاً لا تعرض إلا في حلقة متأخرة جداً :

فنوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، وكثيرون غيرهم ، لا تعرض قصصهم إلا عند حلقة الرسالة ، وهي الحلقة الوحيدة التي تعرض من حياتهم ، لأنها أهم حلقة منها ، والعبرة كامنة فيها .

هذا كله من ناحية الابتداء . وأما من ناحية الإطناب والإيجاز فهما كذلك خاضعان لما في حلقات القصة من عظة وأهمية . نضرب لذلك الأمثال فيما يلي :

١ ـ قصة كقصة موسى تذكر بجميع حوادثها وتفصيلاتها ، منذ مولده ـ بل قبل مولده ـ إلى وقوفه بقومه أمام الأرض المقدسة ، حيث كتب عليهم التيه أربعين سنة ، جزاء وفاقاً . لأن في كل حلقة من حلقات القصة غرضاً دينياً يبرز ، وله صلة بأهداف القرآن العليا .

وكذلك قصة عيسى ـ مع شيء من الاختصار في حلقاتها الوسطى ـ يذكر مولده بتفصيل كامل . وتذكر معجزاته بتوفية . وتذكر قصته مع الحَوَارِيِّينَ حين طلبوا المائدة فأنزلت إليهم . وتذكر حلقة تكذيبه ومحاولة صلبه ورفعه ، وتفرق قومه من بعده . ويزاد عليها تصوير موقفه يوم القيامة يسأله الله : إن كان قد قال لقومه اتخذوني وأمي إلٰهَين من دون الله ، فيتبرأ من ذلك إليه ، ويذكر أنه دعاهم لله وحده ، وأنه يدع أمرهم لله إن يشأ يرحمهم وإن يشأ يعذبهم .

ومنذ أن تبدأ قصة يوسف تسير مفصلة حتى تنتهي . فما يقع

له مع إخوته ، وما يحدث له في مصر بعد شرائه وتربيته ، ومراودة امرأة العزيز له . وسجنه ، وتعبيره رؤيا خادميّ الملك ، ثم تعبيره رؤيا الملك . وخروجه ، وولايته «على خزائن الأرض» (وزارتيّ المالية والتموين) ! ومجيء إخوته ودعوتهم ، ومجيء أخيه وعودة إخوته لأبيهم بدونه . وكمال القصة بقدوم أبيه وأهله .. كلها تفصل تفصيلاً دقيقاً ، لأن التفصيل مقصود ، أولاً : لإثبات الوحي والرسالة كما أسلفنا ، وثانياً : لأن لهذه التفصيلات قيمتها الدينية في القصة .

وقصة إبراهيم لا تعرض من أولها ؛ ولكن تعرض منها حلقات شتى : حلقة إيمانه التي أسلفنا ، ومحاورته لأبيه وقومه ، وتحطيم الأصنام ، واعتزاله أباه وقومه . وهبة إسماعيل وإسحاق له ، ورؤياه أنه يذبح ابنه ، وافتداؤه . وبناء الكعبة والتأذين في الناس للحج . وطلبه من ربه برهاناً على إحياء الموتى ، لا ليؤمن فقد آمن ، ولكن ليطمئن قلبه ، حيث أمره الله أن يأخذ أربعة من الطير ، فيضمهن إليه ، ثم يجعل على كل جبل منهن جزءاً ، ثم يدعوهن فيأتين إليه سعياً ... إلخ ..

ومن قصة سليمان تعرض كذلك حلقات مطولة : حكمه في الحرث . وملكه . وفتنته بالخيل الجياد ، واستغفاره الله من هذه الفتنة . وتسخير الشياطين والرياح له . ثم فتنته الأخرى التي لا يذكر القرآن سببها ــ وتذكر التوراة أنها المرأة ــ وقصته مع النملة ومع الهدهد ومع بلقيس . وموته وهو متكئ على عصاه والشياطين لا تعلم .. وما في ذلك كله من مغازيَ مقصودة .

٢ ــ وهناك قصص متوسطة التفصيل :

فقصة نوح تذكر منها تفصيلات رسالته ودعوته لقومه واستكبارهم

عنها . وحلقة صنع السفينة . وحلقة الطوفان ، وغرق ابنه ، ودعائه الله أن يحييه ، وعدم استجابته له ، لأنه ليس من أهله ، ولو كان ابنه ، لأنه عمَلٌ غير صالح !

وقصة آدم تفصل تفصيلاً في نشأته ، وخطيئته ، وهبوطه ، وتوبته ، واستجابة الله له .

وقصة مريم يطنب فيها عند مولدها ، وعند مولد عيسى .

وقصة داود تنال شيئاً من التفصيل ، لا يبلغ تفصيل قصة سليمان ، ولكنه يتناول حلقات كثيرة منها .

٣ ـ وهناك قصص قصيرة :

فقصص هود وصالح ولوط وشعيب ـ مع تكرارها ـ قصيرة لأنها تعرض عند حلقة الرسالة وحدها ، فتتضمن الرسالة والحوار مع قومهم ، وتكذيب هؤلاء القوم ، ثم إهلاكهم جميعاً .

وقصة إسماعيل تذكر عند مولده ، وعند افتدائه من الذبح ، وعند اشتراكه في بناء الكعبة مع أبيه ، في اختصار نسبي ، في هذه الحلقات جميعاً .

وقصة يعقوب تذكر في سياق قصة يوسف ؛ وتذكر مرة أخرى :

﴿ إذْ حَضَرَ يَعقوبَ الموتُ ، إذْ قالَ لِبَنيهِ : ما تَعْبدونَ من بَعْدي ؟ قالوا : نَعْبُدُ إلٰهكَ وإلٰهِ آبائِكَ ﴾ .

وقد أفردت هذه الحلقة هنا لأهميتها في بيان التوحيد الذي أوصى به يعقوب .

٤ ـ وهناك قصص متناهية في القصر :

فقصة زكريا تذكر عند مولد يحيى ، وعند كفالته لمريم .

وقصة أيوب تذكر عند مس الضر له ، ثم استغاثته بالله وشفائه ورد أهله إليه . وقصة يونس تذكر عند ابتلاع الحوت له ثم نبذه بالعراء ، ورسالته لقومه وإيمانهم به .

٥ ـ وقصص يشار إليها ولا يذكر شيء عنها ـ إلا وصفاً خاطفاً لأصحابها : كقصص إدريس واليسع وذي الكفل ؛ وطائفة أخرى لا تذكر إلا أسماؤهم في صدد استعراض سجل الأنبياء .

٦ ـ فأما القصص الأخرى المتفرقة كقصة أصحاب الأخدود . وأهل الكهف . وابنيْ آدم . وصاحب الجنتين . وأصحاب الجنة . وسد مأرب . والذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها ... وهي القصص الوعظية البحتة ، فتعرض بالقدر الذي يبلغ العظة ، وقد استعرضنا بعضها سلفاً ، وسنستعرض البعض الآخر لحقاً . فنكتفي هنا بهذا البيان عنها . إنما نريد أن نبين أن القصة القرآنية تعرض بالقدر الذي يتفق مع الغرض الديني منها . وقد بلغنا من ذلك ما أردنا .

* * *

«ج» وكان من أثر خضوع القصة للغرض الديني أن تمزج التوجيهات الدينية بسياق القصة ، قبلها وبعدها وفي ثناياها كذلك .

فأما ما يذكر من التوجيهات قبلها فقد ذكرنا منه مثالين فيما مضى . أولاً : التنبيه إلى دلالة القصص على الوحي بها ، كما في قصة يوسف وقصة آدم . وثانياً : مجيء القصص مصدقة للإنباء مثل : «نبئْ عبادي أني أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابي هو العذاب الأليم» ثم سرد القصص التي تدل على الرحمة والتي تدل على العذاب .

وأما ما يذكر منه بعدها ، فقد ذكرنا منه كذلك مثالين فيما

مضى : أولاً التنبيه إلى دلالة القصص على الوحي بها ، كما في أعقاب قصة موسى في سورة القصص ، وما في أعقاب قصة نوح في سورة هود . وثانياً : التنبيه إلى أن عقاب الله عادل ، وأنه لا يأخذ القوم إلا بعد الإنذار ، كالذي ورد في سورة العنكبوت عقب قصص الأنبياء مجتمعة :

﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنا بِذَنْبِهِ . فمنهم مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيهِ حاصِباً ، ومِنهم مَنْ أخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ، ومنهم مَنْ خَسَفنا به الأرض ، ومنهم مَنْ أغرَقنا . وما كانَ الله لِيُظلِمهم ، ولكنْ كانوا أنفسهم يَظْلِمون ﴾ .

والذي يتتبع قصص القرآن يجد عقب كل قصة تعقيباً دينياً يناسب العبرة فيها .

وأما ما يذكر من التوجيهات في ثناياها ، فنضرب منه الأمثال هنا :

١ ـ ﴿ ... أَوْ كالَّذي مَرَّ على قَرْيَةٍ وهيَ خاويَةٌ على عروشها ، قال : أنَّى يُحْيي هذه اللهُ بَعدَ مَوتها ؟ فأماتهُ الله مِئة عامٍ ، ثم بَعَثَهُ ، قالَ : كَمْ لَبِثْتَ ؟ قالَ لَبِثتُ يوماً أو بعض يومٍ . قالَ : بل لَبِثْتَ مِئَةَ عام ، فانظُر إلى طعامِكَ وشرابكَ لم يَتَسَنَّه ، وانظُرْ إلى حِمارِكَ ـ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً للناس ـ وانظر إلى العظام كيفَ نُنْشِزُها ثم نَكْسوها لَحْماً . فلما تبَيَّنَ لَهُ قال : أعْلَمُ أنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قدير ﴾ .

فيَضَع في سِياقِ القصة : ﴿ ولنجعلك آية للناس ﴾ وفي نهايتها : ﴿ قال : أعلَمُ أنَّ اللهَ على كل شيء قدير ﴾ .

٢ ـ وفي قصة سليمان مع بلقيس يقول الهدهد :

﴿ إنيّ وجَدْتُ امرأة تملكهم وأُوتِيَتْ من كُلِّ شيء ، ولها عَرْشٌ عَظيم . وجَدتها وقوْمَها يَسْجدونَ لِلشمس من دون الله ، وزَيّنَ لهم الشيطانُ أعمالهم فَصَدَّهُم عن السَّبيلِ فهم لا يهتَدون . ألاَّ يَسْجدوا لله الذي يُخرجُ الخبْءَ في السماواتِ والأرض ، ويعلمُ ما تُخْفونَ وما تُعْلِنون . الله لا إلٰه إلاَّ هو ربّ العرش العظيم ﴾ .

كل هذا يقوله هدهد في ثنايا القصة ، ليهتدي الآدميون بهداه فيما يقول !

٣ ـ وفي قصة يوسف مع خادمَيْ الملك . يفسر لهما الرؤيا ثم يقول :

﴿ ذلِكما مما عَلَّمَني ربيّ . إنيّ تركْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤمِنونَ بالله ، وهم بالآخِرَةِ هم كافِرون ؛ واتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائي إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعْقوبَ . ما كان لنا أن نُشْرك بالله من شيء . ذلك من فضل الله علينا وعلى الناسُ ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ .

وهكذا لا يسير سياق القصة إلا وفي ثناياه تلك التوجيهات ، زيادة على المغزى الذي تؤدي إليه بحوادثها دون توجيهاتها .

والقارئ لقصص القرآن يجد هذه التوجيهات منثورة في ثناياها على هذا النحو أو على نحو سواه ؛ ولكنه يجدها بكثرة ووفرة ، تدل على الغرض الأساسي من سياق القصة ، وهو الغرض الديني أولاً وقبل جميع الأغراض .

الدين والفن في القصة

قلنا : إن خضوع القصة للغرض الديني ، لم يمنع بروز الخصائص الفنية في عرضها . فالآن نقول : إنه كان من أثر هذا الخضوع بروز خصائص فنية بعينها تحسب في الرصيد الفني للقصة في عالم الفنون الطليق ؛ وتصدق ما قلناه في أول هذا الفصل من أن القرآن « يجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير الوجداني ، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية ، بلغة الجمال الفنية » .

ونحن نستعرض فيما يلي هذه الخصائص الفنية التي نسميها « مظاهر التنسيق الفني في القصة » .

* * *

« أ » كان من أغراض القصة في القرآن إثبات وحدة الإله ، ووحدة الدين ، ووحدة الرسل ، ووحدة طرائق الدعوة ، ووحدة المصير الذي يلقاه المكذبون . على نحو ما بيّنّا في أول هذا الفصل .

فنشأ عن خضوع القصة لهذه الأغراض أن يعرض شريط الأنبياء والرسل الداعين إلى الإيمان بدين واحد ، والإنسانية المكذبة بهذا الدين الواحد ، مرات متعددة بتعدد هذه الأغراض ؛ وأن ينشئ هذا ظاهرةَ التكرار في بعض المواضع . ولكن هذا أنشأ جمالاً فنياً من ناحية أخرى ، ذلك أن عرض هذا الشريط يخيل للمتأمل أنه نبي واحد ، وأنها إنسانية واحدة ، على تطاول الأزمان والآماد : كل نبي يمر وهو يقول كلمته الهادية ، فتكذبه هذه الإنسانية الضالة ، ثم يمضي ، ويجيء تاليه فيقول الكلمة ذاتها ويمضي ؛ وهكذا ...

﴿ لقد أرسَلْنا نوحاً إلى قَوْمِهِ ، فقالَ : يا قوم اعبدوا الله ما لكم مِن إلهٍ غيرُهُ ، إنيِّ أخافُ علَيْكُم عذابَ يَوْمٍ عظيمٍ . قالَ الملأُ من قَوْمِهِ : إنَّا لَنَراكَ في ضلالٍ مُبينٍ . قالَ : يا قَوْم ليسَ بي ضَلالَة ، ولكني رسولٌ من ربِّ العالمين ، أُبَلِّغكم رسالات ربي وأنصح لكم ، وأعلم من الله ما لا تَعْلَمون . أوَعَجبتم أن جاءَكُم ذِكْرٌ من رَبِّكُم على رَجلٍ منكم لِيُنذِركم ، ولِتَتَّقوا ولعلَّكُم تُرحَمون ؟ فَكَذَّبوه ، فأنْجَيناه والذين معه في الفُلْكِ ، وأغرَقنا الذينَ كَذَّبوا بآياتِنا ، إنهم كانوا قوماً عَمين .

﴿ وإلى عادٍ أخاهُم هوداً . قالَ : يا قومِ اعبدوا الله ما لكُمْ من إلهٍ غَيْرُهُ ، أفلا تَتَّقون ؟ قال الملأ الذين كفَروا من قَوْمِهِ : إنَّا لَنَراكَ في سَفاهَةٍ ، وإنَّا لَنَظُنُّكَ من الكاذِبين . قالَ : يا قوم ليس بي سَفاهَةٌ ، ولكني رسولٌ من ربِّ العالمين ، أبَلِّغكُم رسالات ربي ، وأنا لكم ناصحٌ أمين . أوَعَجبتم أن جاءَكُم ذِكْرٌ من رَبِّكم على رجُلٍ منكم لِيُنذِركم ؟ واذكروا إذ جَعَلكم خلفاء من بعد قَوْمِ نوح ، وزادَكُم في الخَلْق بَسْطَةً ، فاذكروا آلاءِ الله لعلَّكم تُفلِحون . قالوا : أجئتنا لِنَعْبُدَ الله وَحدَهُ ، ونَـذَرَ ما كانَ يَعبد آباؤنا ؟ فأْتِنا بما تَعِدُنا إن كُنتَ من الصادِقين . قالَ : قد وَقَعَ عليكم من رَبِّكم رِجْسٌ وغَضَبٌ . أتُجادِلونني في أسماءٍ سَمَّيْتموها أنتم وآباؤكم ما نَزَّلَ الله بها من سلطان ؟ فانتَظِروا إنِّي مَعَكم من المُنتَظِرين . فأَنْجَيناهُ

والذينَ معه برحمَةٍ منّا وقطَعنا دابرَ الذينَ كذَّبوا بآياتِنا ، وما كانوا مؤمنين .

﴿ وإلى ثمودَ أخاهم صالِحاً . قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره ، قد جاءتْكم بَيِّنَةٌ من رَبِّكُم : هذه ناقة الله لكُم آيَةً . فذَروها تَأكُلْ في أرض الله ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عَذابٌ أليم ، واذكروا إذْ جعَلَكم خُلفاء من بعد عاد ، وبوَّأكُم في الأرض ، تَتَّخِذونَ من سهولها قصوراً ، وتنحتونَ الجبالَ بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تَعْثوا في الأرض مُفْسِدين . قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذينَ اسْتُضْعِفوا ـ لمن آمَنَ منهم ـ : أتَعْلَمونَ أن صالحاً مُرْسَلٌ من رَبِّه ؟ قالوا : إنّا بما أُرْسِل به مُؤمِنون . قال الذينَ اسْتكبروا : إنّا بالذي آمَنْتم به كافرون . فعَقَروا الناقَةَ ، وعَتَوْا عن أمْرِ رَبهم ، وقالوا : يا صالح ائتنا بما تَعِدُنا إن كُنْتَ من المُرْسَلين . فأخَذَتهم الرَّجْفَةُ فأصْبَحوا في دارهم جاثمين ﴾ إلخ ...

وكلما تكرر هذا الاستعراض ، كان هناك مجال لتملي هذا الشريط ، الذي يقف مرة عند كل نبي ، ثم يمضي في عرضه مطرداً ... حتى يقف محمد أمام كفار قريش ، فإذا هو يقول تلك القولة الواحدة ، وإذا هم يردون ذلك الرد المكرور . وفي تأمل الشريط على هذا النحو جمال فني أكيد .

* * *

« ب » وكان من آثار خضوع القصة للغرض الديني أن تعرض منها الحلقات التي تقتضيها هذه الأغراض . وقد نشأ عن هذا ما يشبه أن يكون نظاماً عاماً . ذلك أن آخر حلقة تعرض ـ بحسب ترتيب السور ـ تتفق مع أظهر غرض ديني صيغت القصة من أجله ، وفي الوقت ذاته يتفق هذا الختام مع الأصول الفنية ؛ ويبدو كأنه ختام فني لذاته ، لا للغرض الديني من ورائه .

وقد لاحظنا من قبل في قصة موسى أن آخر ذكر لها يرد في سورة المائدة ، والحلقة التي تعرض فيها هي حلقة التيه . فهؤلاء بنو إسرائيل قد أغدق الله عليهم نعمته ، وأملى لهم في رحمته ؛ ثم ها هم أولاء في النهاية لا يحافظون على النعمة ، ولا يدخلون الأرض المقدسة ، وقد جهد موسى ما جهد لردهم إليها ؛ فيكون تأديبهم على هذا المِطال ، تركهم في التيه لا مرشد لهم ولا معين ، حتى يأتي الأجل المعلوم .

ذلك غرض ديني بحت . ولكن تُرى كان هناك ختام فني أجمل من مشهد التيه ، في نهاية ذلك الجهد الجهيد ، وبعد ذلك التردد الشديد ؟ إن مشهد التيه هو المشهد الفني الأنسب ، لو كانت القصة مطلقة من جميع القيود .

فلنتتبع هذه الظاهرة في قصص أخرى .

١ ـ هذه قصة إبراهيم ترد في حوالي العشرين موضعاً ، ثم يكون آخر موضع ترد فيه هو « سورة الحج » (١٠٣) فتعرض منها الحلقة التالية :

﴿ وإذْ بَوَّأْنا لإبراهيمَ مكانَ البيتِ أنْ لا تُشْرِكْ بي شَيْئاً ؛ وطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفينَ والقائمينَ والرُّكَّعِ السُّجود ؛ وأذِّنْ في النَّاس

بالحَجِّ يأْتوكَ رجالاً وعلى كُلِّ ضامرٍ يأْتينَ من كُلِّ فَجٍّ عَميق ﴾ .

فهنا ـ من الوجهة الدينية ـ ربط بين شعائر الحج في الإسلام وشعائره في دين إبراهيم : وذلك غرض ـ كما قلنا ـ مقصود ؛ وقد ورد في ختام السورة نفسها آخر ذكر لإبراهيم في قوله : « ملة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل » . ولكن لننظر من الوجهة الفنية البحتة ، أكان هناك مشهد تختم به قصة إبراهيم ، أليق من مشهده يؤذن في الناس للحج ؛ وهو باني البيت ، ومودع طفله إسماعيل هناك قبل البناء ؟ إنه أليق ختام فني بلا جدال ، ولو لم يكن الغرض الديني هو الذي اقتضاه .

٢ ـ وهذه قصة عيسى ابن مريم ترد وروداً أساسياً في ثمانية مواضع ، وآخر حلقة منها تعرض في سورة المائدة (١١٢) على النحو التالي :

﴿ وإذْ قالَ الله : يا عيسى ابنَ مَريم : أأنتَ قُلْتَ لِلناس اتَّخِذوني وأمي إلٰهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق . إن كنتُ قلتهُ فقد عَلِمْتَهُ . تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نَفْسِك . إنَّكَ أنتَ عَلاَّم الغيوب . ما قُلْتُ لهم إلا ما أمَرْتَني به : أن اعبدوا اللهَ ربي وربكم . وكنتُ عليهم شهيداً ما دُمتُ فيهم ، فلما توفَّيْتَني كنتَ أنت الرَّقيبَ عليهم ، وأنت على كلِّ شيءٍ شهيد . إنْ تُعَذِّبهم فإنهم عِبادك ، وإنْ تَغْفِر لهم فإنَّكَ أنْتَ العزيز الحكيم . ﴾ .

فهذا الختام هو ختام ديني وختام فني في آن واحد ، لقصة

كقصة عيسى . مولده عجيب ، وعن هذا المولد نشأت شبهات تأليهه ، وحول هذه النقطة المعقدة ثارت المشكلات . فها هو ذا في اللحظة الأخيرة أمام خالقه يعترف بعبوديته ، ويشهد بما قاله لقومه . ويفوّض الأمر فيهم إلى الله العزيز الحكيم .

الفن يقتضي هذا الختام ، حين تساق القصة مساقها في القرآن .

٣ ـ وقصة آدم ، تختم في كل مرة بالهبوط ، فإذا زادت فإنما تزيد استغفار آدم من ذنبه وقبوله عند ربه ؛ ثم لا تزيد على ذلك شيئاً مما وقع له في الأرض بعدها ـ كما تزيد التوراة مثلاً ـ ذلك أن الهدف الديني يتم بهبوط آدم من الجنة جزاء لاتباعه مشورة عدوّه القديم ، ونسيانه لأمر ربه الكريم .

أما الفن فيجد في هذا الختام كل ما يبغيه الفنان : الهبوط من الجنة ، وترك القصة مفتوحة بعد هذا للخيال يتبع آدم المسكين وزوجه في الأرض غريبين لم يعرفا أقطارها ، ولم يتعودا حياتها ، وليس لهما من خبرة بالمعاش فيها ... إلى آخر ما يتملاه الخيال من مشاهد وفروض ، يقضي على جمالها الفني كل إسهاب في القصة بعد هذا الختام .

٤ ـ وقصة سليمان ترد في ثلاثة مواضع ، وآخر سورة ترد فيها هي سورة الأنبياء (٧٣) وتذكر منها الحلقة التالية :

﴿ وداودَ وسليمانَ إذ يَحْكمان في الحَرْثِ إذ نَفَشَتْ فيه غَنَمُ القوم وكنا لِحُكْمهم شاهِدين ؛ ففَهَّمْناها سليمانَ : وكلاًّ آتينا حكماً وعلماً ؛ وسَخَّرْنا مع داودَ الجبال يُسَبِّحْنَ والطَّيرَ وكنا فاعلين ؛ وعلَّمناهُ صَنْعَةَ لَبوسٍ لكم لتُحصنكم من بأسِكم فهل أنتم شاكِرون ؟

ولِسُليمانَ الرِّيح عاصفةً تَجري بأمرهِ إلى الأرض التي باركنا فيها ، وكنا بكُلِّ شيءٍ عالمين ؛ ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عَمَلاً دونَ ذلك ، وكنا لهم حافِظين ﴾ .

وهنا غرض ديني من أغراض قصة سليمان الكثيرة . ولكن قد يبدو أن الختام الفني هنا لم يتفق مع الغرض الديني ، وأن مشهد سليمان متكئاً على عصاه بعد موته قد يكون هو الختام الفني المطلوب .

وهذا المشهد يصلح ولا شك ؛ ولكن مشهد الحكم والحكمة هنا له قيمته الفنية أيضاً في حياة سليمان . فهو « سليمان الحكيم » كما يلقب ، وهو « سليمان الملك » . وفي هذا الحكم المبكِّر شاهد بالحكمة الموهوبة ، وإرهاص للملك العريض . ثم هي طريقة من طرق العرض ، أن تنتهي قصة البطل بمشهد من مشاهد طفولته أو صباه ، ذي علاقة وثيقة بمحور قصته من البدء للختام .

٥ ــ وحتى القصص المشتركة بين عدد من الأنبياء ــ وأغراضها الدينية معلومة ــ قد اتسق آخر عرض لها مع الخاتمة الفنية في اختصار :

﴿ وإنْ يُكَذِّبوكَ ، فقد كَذَّبَتْ قبلهم قومُ نوح ، وعادٌ وثمودُ ، وقومُ إبراهيمَ وقومُ لوط ، وأصحابُ مَدْيَنَ ، وكُذِّبَ موسى ، فأمْلَيتُ لِلكافرينَ ثم أخذتهم ، فكيفَ كانَ نكير ؟ ﴾ .

وذلك ختام واقعي ، وختام ديني ، وختام فني في آن .

٦ ــ أما قصة يوسف فكان فيها توافق في الختام من نوع خاص يتفق مع القصة في الابتداء . فقد بدأت القصة برؤيا يوسف فختمت بتحقق هذه الرؤيا ، وسجود إخوته له وأبويه . ولم يخط خطوة وراء

هذا كما فعلت التوراة ، لأن الغرض الديني قد تحقق ، وتحقق معه للقصة أجمل ختام .

* * *

«ج» وكان من مقتضى الأغراض الدينية للقصة أن تتساوق مع الوسط الذي تعرض فيه ؛ فأنشأ التساوق نوعاً من التناسق الفني الذي عرضنا له في فصل خاص ، تناولنا فيه سائر ألوان التصوير في القرآن .

أما مظهره في سياق القصة ، فقد ذكرنا نموذجاً منه آنفاً عند ذكر أغراض القصة . ذلك في مثال : «نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابي هو العذاب الأليم» ثم التعقيب على هذا بقصص تصدق هذا الإنباء .

فالآن نذكر له نماذج أخرى ، يتفق فيها الغرض الديني ، والتناسق الفني تمام الاتفاق :

١ ـ في سورة الأعراف عرض قصة آدم على النحو التالي :

﴿ ولقد خَلَقْناكم ، ثم صَوَّرْناكُم ، ثم قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم . فسجدوا إلاَّ إبليسَ لم يكن من الساجدين . قالَ : ما مَنَعَكَ ألاَّ تَسْجدَ إذ أمَرْتُك ؟ قال : أنا خَيْرٌ منه ؛ خَلَقْتني من نار ، وخَلَقْته من طين . قال : فاهبط منها ، فما يكون لك أن تَتَكبَّر فيها ، فاخرُج إنَّك من الصاغرين . قال : أنظِرْني إلى يوم يُبْعَثون . قال : إنَّكَ من المنظرين . قال : فَبِما أغْوَيْتَني لأقْعدَنَّ لهم صراطك المستقيم ! ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيْمانِهِم وعن شَمائِلِهم ،

ولا تَجِدُ أكثَرَهُم شاكرين . قال : اخْرُجْ منها مَذؤوماً مَدْحوراً . لَمَنْ تَبِعَكَ منهم لأَمْلأَنَّ جهَنَّمَ منكم أجْمَعِينَ . ويا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ ، فكُلا من حَيثُ شِئْتُما ، ولا تَقْرَبا هذه الشَجَرَةَ فَتَكونا مِنَ الظَّالمين . فوَسوَسَ لهما الشيطانُ لِيُبْدِيَ لهما ما وُورِيَ عنهما من سَوْآتِهما ؛ وقالَ : ما نَهاكُما رَبُّكُما عن هذه الشجرة إلاَّ أن تكونا مَلَكَين ، أو تكونا من الخالِدين ؛ وقاسَمَهُما إني لكما لمنَ الناصِحين ؛ فَدَلاَّهُما بِغرورٍ ، فلما ذاقا الشجَرَة بَدَتْ لهما سَوْآتهما ، وطَفِقا يَخْصِفان عليهما من وَرَق الجَنَّة ، وناداهما ربهما : أَلَمْ أَنْهَكُما عن تِلكما الشجرة ، وأقلْ لكما : إنَّ الشيطان لكما عدوٌّ مُبين ؟ قالا : ربَّنا ظَلَمْنا أنْفُسنا ، وإنْ لم تَغْفِر لنا وتَرْحَمنا لَنَكُونَن من الخاسرين . قال : اهْبطوا ، بعضكم لبعضٍ عدوٌّ ، ولكم في الأرض مُسْتَقَرٌ ومتاع إلى حين . قال : فيها تَحيَوْنَ ، وفيها تموتون ، ومنها تُخرَجون ﴾ .

ثم يستمر السياق ، فيدعو بني آدم بعد هذه القصة أن يحذروا الشيطان : « يا بَني آدَمَ لا يفتننكم الشيطانُ كما أخرَجَ أبويكم من الجنة » وأن يتمتعوا في الحدود المباحة ، وألا يحرموا كذلك ما أحلَّ الله ، وأن يطيعوا الرسل الذين يأتونهم من عند الله : « إنَّا جعلنا الشياطينَ أولياء للذين لا يؤمنون » ... ثم يستطرد إلى يوم القيامة حيث يستعرض موقف المؤمنين الذين اتبعوا هدى الله وموقف الكافرين الذين اتبعوا غواية الشيطان ، حتى ينتهي الاستعراض إلى دخول

هؤلاء النار ودخول أولئك الجنة ، حيث يناديهم « رجال الأعراف » على النحو الذي ذكرناه في « فصل التصوير الفني » هناك : « ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون » وحيث ينادون من الملأ الأعلى : « أنْ تلكم الجنة أورِثتموها بما كنتم تعملون » .

فكأنما كانت هذه « عودة المهاجرين وأوبة المغتربين » عن دار النعيم . وكأنما استحقوا الإياب وأورثوا الجنة ، لأنهم عصوا الشيطان ، بعد أن كان اتباعه سبب الخروج .

وفي هذه « الأوبة » تناسق في العرض مع ذلك « الخروج » كان مكانه هناك في فصل « التناسق » فهو بلا شك من مستوى ذلك الطراز .

ومثل هذا التناسق ملحوظ في القصص ، نكتفي منه بهذا المثال ، ليقرأ القارئون على هداه سائر القصص في القرآن .

الخصائص الفنية للقصة

ثم نعرض بعد ذلك للخصائص الفنية العامة ، التي تحقق الغرض الديني للقصة عن طريق الجمال الفني . إذ إن هذا الجمال يجعل ورودها إلى النفس أيسر ، ووقعها في الوجدان أعمق . والبحث على هذا النحو يتناول أربع ظواهر فنية لها حساب معلوم في الدراسة الفنية للقصة الحرة في عالم الفنون .

* * *

« أ » أولى هذه الخصائص الفنية تنوع طريقة العرض .

وقد لاحظنا في قصص القرآن أربع طرائق مختلفة للابتداء في عرض القصة ، على النحو التالي :

١ ـ مرة يذكر ملخصاً للقصة يسبقها ، ثم يعرض التفصيلات بعد ذلك من بدئها إلى نهايتها . وذلك كطريقة قصة « أهل الكهف » فهي تبدأ هكذا :

﴿ أمْ حَسِبْتَ أن أصحابَ الكهف والرَّقيم كانوا من آياتِنا عَجَباً ؟ إذ أوَى الفتيةُ إلى الكهف ، فقالوا : ربّنا آتِنا من لَدُنْكَ رَحْمَةً ، وَهَيِّئْ لنا من أمرنا رَشَداً ، فَضَرَبْنا على آذانهم في الكهفِ سنينَ عَدَداً . ثم بَعَثْناهُم لِنَعْلَمَ أيّ الحِزْبَين أحْصَى لما لَبِثوا أمَداً ﴾ .

ذلك ملخص للقصة ؛ ثم تتبعه تفصيلات تشاورهم قبل دخولهم الكهف . وحالتهم بعد دخوله ، ونومهم ، ويقظتهم . وإرسالهم واحداً منهم ليشتري لهم طعاماً ، وكشفه في المدينة ، وعودته ، وموتهم ، وبناء المعبد عليهم ، واختلاف القوم في أمرهم ... إلخ . فكأن هذا التلخيص كان مقدمة مشوقة للتفصيلات .

٢ ـ ومرة تذكر عاقبة القصة ومغزاها ؛ ثم تبدأ القصة بعد ذلك من أولها وتسير بتفصيل خطواتها . وذلك كقصة موسى في سورة القصص . وهي تبدأ هكذا :

﴿ تلْكَ آيات الكتابِ المبين . نَتْلو عَلَيكَ من نَبأ موسى وفرعون بالحق لِقوم يؤمنون . إن فرعون علا في الأرض ، وجَعَلَ أهلها شِيَعاً : يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً منهم يُذَبِّحُ أبناءهُم ويَسْتَحْيي نساءهم ، إنَّه كان من المفسدين . ونريدُ أن نمنَّ على الذينَ اسْتُضْعِفوا في الأرض ، ونجعلَهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ، ونُمَكِّنَ لهم في الأرض ،

ونُري فرعونَ وهامانَ وجنودَهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ .

ثم يمضي في تفصيلات قصة موسى : مولده ونشأته ورضاعه وكبره وقتله المصري وخروجه ... كما فصّلنا من قبل . فكأن هذه المقدمة ، التي تكشف الغاية من القصة كانت تمهيداً مشوّقاً لمعرفة الطريقة التي تتحقق بها هذه الغاية المرسومة المعلومة .

وقريب من هذا النحو قصة يوسف ، فهي تبدأ بالرؤيا يقصها يوسف على أبيه فينبئه أبوه بأن سيكون له شأن عظيم . هكذا :

﴿ إذ قالَ يوسُفُ لأبيهِ : يا أبتِ إنيّ رَأيتُ أحَدَ عشَرَ كوكبًا ، والشمسَ والقمر ، رأيتهم لي ساجِدين . قالَ : يا بُنَيَّ لا تَقْصُص رُؤياكَ على إخوَتِك فيكيدوا لكَ كَيْداً ، إنَّ الشيطانَ للإنسان عَدوّ مبين . وكذلك يَجْتَبيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ من تأْويلِ الأحاديثِ ويُتِمّ نِعمته عليك وعلى آل يعقوب ، كما أتمها على أبَوَيْكَ من قَبْلُ إبراهيمَ وإسحاقَ . إنَّ رَبّكَ عليم حكيم ﴾ .

ثم تسير القصة بعد ذلك ، وكأنما هي تأويل للرؤيا ، ولما توقعه يعقوب من ورائها ؛ حتى إذا تحققت أنهى القصة ، ولم يسر فيها كما سارت التوراة بعد هذا الختام الفني الدقيق .

٣ ــ ومرة تذكر القصة مباشرة بلا مقدمة ولا تلخيص ، ويكون في مفاجآتها الخاصة ما يغني . مثل ذلك قصة مريم عند مولد عيسى ، ومفاجآتها معروفة ، وسنعرضها بالتفصيل في مناسبة آتية . وكذلك قصة سليمان مع النمل والهدهد وبلقيس . وسنعرضها أيضاً .

٤ ــ ومرة يحيل القصة تمثيلية . فيذكر فقط من الألفاظ ما

ينبّه إلى ابتداء العرض ؛ ثم يدع القصة تتحدث عن نفسها بوساطة أبطالها . وذلك كالمشهد الذي عرضناه من قصة إبراهيم وإسماعيل في فصل التصوير :

« وإذ يرفع إبراهيمُ القواعدَ من البيت وإسماعيل » هذه إشارة البدء . أما ما يلي ذلك فمتروك لإبراهيم وإسماعيل : « ربنا تقبَّلْ منّا إنك أنت السميع العليم ... » إلى نهاية المشهد الطويل . ولهذا نظائره في كثير من قصص القرآن .

* * *

« ب » وثانية هذه الخصائص تنوع طريقة المفاجأة .

١ ـ فمرة يُكْتَمُ سرّ المفاجأة عن البطل وعن النظارة ، حتى يُكشف لهم معاً في آن واحد . مثال ذلك قصة موسى مع العبد الصالح العالم في سورة الكهف فهي تجري هكذا :

﴿ وإذ قالَ موسى لِفَتاهُ : لا أبْرَح حتى أبلغَ مَجْمَعَ البَحْرَين أو أمْضِيَ حُقُبا . فلما بَلَغا مَجْمَعَ بيْنِهمَا نَسيا حوتهما فاتخذَ سبيله في البحر سَرَبا . فلما جاوزا قال لِفتاه : آتِنا غَداءَنا ، لقد لَقينا من سفَرنا هذا نَصَبا . قالَ : أرأيتَ إذْ أوينا إلى الصَّخْرَةِ ؟ فإني نَسيت الحوتَ وما أنسانيهُ إلاَّ الشيطانُ أن أذكره ، واتَّخَذَ سبيله في البحرِ عَجَباً ! قال : ذلك ما كنَّا نَبْغِ . فارْتَدّا على آثارهما قَصَصاً ؛ فَوجَدا عَبْداً من عِبادِنا آتيناهُ رَحمةً من عندنا ، وعَلَّمناهُ من لَدُنَّا عِلْماً . قال له موسى : هل أتَّبعكَ على أن تُعَلِّمَنِ مما عُلِّمْتَ رُشْداً ؛ قال : إنَّكَ لن تَستَطيعَ مَعيَ صَبْراً ، وكيفَ تَصْبر على ما لم تُحِطْ به خُبْراً ؟

قالَ : سَتَجدني ـ إن شاء الله ـ صابراً ، ولا أعصي لكَ أمْراً .

قال : فإن اتَّبعْتَنِ فلا تَسْأَلْني عَن شَيْءٍ حتى أحْدِثَ لكَ منه ذِكْراً .

﴿ فانْطَلَقا . حتى إذا رَكِبا في السَّفينة خَرقَها . قال : أخَرقتَها لِتُغْرِقَ أهلها ؟ لقد جئتَ شيئاً إمْراً ؛ قال : ألم أقل : إنَّكَ لن تَسْتَطيعَ مَعِيَ صَبْراً ؟ قال : لا تُؤاخِذْني بما نَسيتُ ، ولا تُرْهِقني من أمْري عُسْراً .

﴿ فانْطَلَقا . حتى إذا لَقِيا غُلاماً فَقَتَلَهُ . قال : أقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بغَيرِ نَفْسٍ ؟ لقدْ جئتَ شَيْئاً نُكْرا ؛ قال : ألم أقُل لكَ : إنَّك لن تَسْتَطيعَ مَعِيَ صَبراً ؟ قالَ : إنْ سَأَلْتُكَ عن شيء بَعدها فلا تُصاحِبْني . قد بَلَغت من لَدُني عُذْرا .

﴿ فانطلَقا . حتى إذا أتَيا أهْل قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أهْلها ، فأبَوا أنْ يُضَيِّفوهما ، فوجَدا فيها جداراً يُريد أن يَنْقَضَّ فأقامَهُ . قالَ : لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أجْراً ؛ قال : هذا فِراقٌ بَيْني وَبَيْنك . سَأُنبِئُكَ بتأويلِ ما لم تَسْتَطِعْ عليه صَبْراً ﴾ .

فإلى هنا نحن أمام مفاجآت متوالية ، لا نعلم لها سرّاً ، وموقفنا منها كموقف بطلها موسى . بل نحن لا نعرف من هو هذا الذي يتصرف تلك التصرفات العجيبة ولا ينبئنا القرآن باسمه ، تكملة للجو الغامض الذي يحيط بنا . وما قيمة اسمه ؟ إنما يراد به أن يمثل الحكمة الكونية العليا ، التي لا ترتب النتائج القريبة على المقدمات المنظورة ، بل تهدف إلى أغراض بعيدة لا تراها العين المحدودة ؛

فعدم ذكر اسمه يتفق مع هذه الشخصية المعنوية التي يمثلها . وان القوى المجهولة لتتحكم في القصة منذ نشأتها ؛ فها هو ذا موسى يريد أن يلقى هذا الرجل الموعود ، فيمضي في طريقه ولكن فتاه ينسى غداءهما عند الصخرة ، وكأنما نسيه ليعودا ، فيجد هذا الرجل هناك ؛ وكان لقاؤه يفوتهما لو سارا في وجهتهما ، ولو لم تردهما الأقدار إلى الصخرة كرة أخرى .. كل الجو غامض مجهول ، وكذلك اسم الرجل الغامض مجهول .

ثم يأخذ السر في التجلي ، فيعلمه النظارة حين يعلمه موسى :

﴿ أمَّا السَّفِينَةَ فكانَت لمساكين يَعْمَلونَ في البحر ، فأَرَدْتُ أنْ أَعيبها ، وكانَ وراءهُم مَلكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً . وأمَّا الغُلامُ فكانَ أبواهُ مُؤمِنَيْن ، فَخَشينا أنْ يُرْهِقهُما طُغْياناً وكُفْراً ؛ فأَرَدْنا أنْ يُبْدِلَهُما رَبهما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً وأقْرَبَ رُحْماً ، وأمَّا الجدارُ فكانَ لِغُلامَيْن يَتيمَيْن في المدِينَةِ ، وكانَ تَحْته كَنْزٌ لهما ، وكانَ أبوهما صالِحاً ، فأرادَ رَبّكَ أن يَبْلغا أشُدَّهُما ، ويَسْتَخْرِجا كنزهما ، رحمةً من ربك ، وما فعلتُهُ عن أمري . ذلكَ تأْويل ما لم تَسْطِعْ عليه صَبراً ﴾ .

وفي دهشة السر المكشوف يختفي الرجل كما بدا . لقد يخطر للأذهان الدهشَة بعد أن تصحو أن تسأل : من هذا ؟ ولكنها لن تلقى جواباً . لقد مضى في المجهول ، كما خرج من المجهول ، فالقصة تمثل الحكمة الكبرى ، وهذه الحكمة لا تكشف عن نفسها إلا بمقدار ، ثم تبقى مجهولة أبداً .

ذلك أفق من آفاق التناسق كذلك ، كان موضعه في فصل التناسق هنالك . فليرده القارئ بنفسه إلى تلك الآفاق !

٢ ـ ومرة يُكشف السر للنظارة ، ويتركُ أبطال القصة عنه في عماية ؛ وهؤلاء يتصرفون وهم جاهلون بالسر ، وأولئك يشاهدون تصرفاتهم عالمين . وأغلب ما يكون ذلك في معرض السخرية ، ليشترك النظارة فيها ، منذ أول لحظة ، حيث تتاح لهم السخرية من تصرفات الممثلين !

وقد شاهدنا مثلاً من ذلك في قصة أصحاب الجنة :

﴿ إذْ أقْسَموا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبحِين ، ولا يستثنون ، فطافَ عليها طائِفٌ مِن رَبِّكَ وهم نائِمونَ ، فأصْبَحَتْ كالصَّريم ﴾ .

وبينما نحن نعلم هذا ، كان أصحاب الجنة يجهلونه :

﴿ فتَنَادَوْا مُصْبحين : أن اغْدوا على حَرْثِكُم إن كُنْتُم صارمين ؛ فانْطَلَقوا وهُم يتخافتون : ألا يَدْخُلَنَّها اليومَ عليكم مسكين . وغَدَوْا على حَرْدٍ قادِرين ﴾ .

وقد ظللنا نحن النظارة نسخر منهم ، وهم يتنادون ويتخافتون ، والجنة خاوية كالصريم ؛ حتى انكشف لهم السر أخيراً بعد أن شبعنا تهكماً وسخراً : « قالوا : إنّا لضالّون . بل نحن محرومون » ! وذلك جزاء من يحرم المساكين ! .

فهذا لون من التناسق كذلك ، يضاف إلى نظائره هنالك .

٣ ـ ومرة يكشف بعض السر للنظارة ، وهو خاف على البطل في موضع ، وخاف على النظارة وعن البطل في موضع آخر ، في

القصة الواحدة . مثال ذلك قصة عرش بلقيس الذي جيء به في غمضة ، وعرفنا نحن أنه بين يدي سليمان ، في حين أن بلقيس ظلّت تجهل ما نعلم : « فلما جاءت قيل : أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو » ! فهذه مفاجأة عرفنا نحن سرّها سلفاً . ولكن مفاجأة الصرح الممرد من قوارير ، ظلت خافية علينا وعليها حتى فوجئنا بسرّها معها ، حينما « قيل لها : ادخلي الصرح ، فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها ، قال : إنه صرحٌ ممردٌ من قوارير ! » وسنذكر القصة بالتفصيل بعد قليل .

٤ ـ ومرة لا يكون هناك سر ، بل تواجه المفاجأة البطل والنظارة في آن واحد ، ويعلمان سرها في الوقت ذاته : وذلك كمفاجآت قصة مريم ، حين تتخذ من دون أهلها حجاباً ، فتفاجأ هناك بالروح الأمين في هيئة رجل ، فتقول : « إني أعوذ بالرحمن منك إن كنتَ تَقِيّاً » . نعم إننا عرفنا قبلها بلحظة أنه « الروح » ولكن الموقف لم يطل فقد أخبرها : « قال : إنما أنا رسول ربكِ لأهبَ لكِ غُلاماً زكياً ! » . وقد فوجئنا كذلك معها إذ أجاءها المخاض إلى جذع النخلة « قالت : يا ليتني متُّ قبلَ هذا وكنتُ نَسْياً مَنْسِيّاً ، فناداها مِنْ تَحتِها ألاَّ تحزَني قد جعَلَ ربكِ تَحتَكِ سريّاً » ... إلخ

* * *

(ج) وثالثة الخصائص الفنية في عرض القصة : تلك الفجوات بين المشهد والمشهد ، التي يتركها تقسيم المشاهد و « قص » المناظر ، مما يؤديه في المسرح الحديث إنزال الستار ، وفي السينما الحديثة انتقال الحلقة ؛ بحيث تترك بين كل مشهدين أو حلقتين فجوة

يملؤها الخيال ، ويستمتع بإقامة القنطرة بين المشهد السابق والمشهد اللاحق .

وهذه طريقة متبعة في جميع القصص القرآني على وجه التقريب ؛ ويمكن أن تلحظ فيما عرضناه من القصص قبلاً . أما في هذه المناسبة فنضرب عليها مثلاً من قصة يوسف : فالقصة قد قسمت ثمانية وعشرين مشهداً ، فلنعرض بعض مشاهدها :

لقد قدم إخوة يوسف وهو على خزائن الأرض ، في سنوات الجدب ، يطلبون القمح ، فطلب إليهم أن يحضروا أخاهم الآخر ـ شقيقه ـ فأحضروه ـ على كره من أبيه ـ ثم وضع صُوَاعَ الملك في رحله وأخذ به رهينة ، باسم أنه سارق ، ليبقيه يوسف عنده !

ثم ها هم أولاء إخوته ينتحون جانباً ليتشاوروا في أمرهم ، وقد أبى عليهم يوسف أن يأخذ أحدهم مكانه :

﴿ فلمَّا استَيْأَسُوا منه خَلَصوا نَجِيّاً . قال كبيرهم : أَلَمْ تَعْلَموا أنَّ أباكُم قد أخَذَ عَلَيْكُم مَوْثِقاً مِنَ الله ، ومن قَبْلُ ما فَرَّطتُم في يوسف ؟ فلن أَبْرَحَ الأرضَ حتى يَأْذَنَ لي أبي أو يَحْكُمَ اللهُ لي ، وهُوَ خَيْرُ الحاكمين . ارْجعوا إلى أبيكُم ، فقولوا : يا أبانا إنَّ ابْنَكَ سَرَقَ ، وما شَهِدْنا إلاَّ بما عَلِمْنا ، وما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِين ؛ واسْأَل القريةَ التي كنَّا فيها ، والعيرَ التي أقبَلْنا فيها ؛ وإنَّا لَصَادِقون ﴾ .

وهنا يسدل الستار ، لنلتقي بهم في مشهد آخر لا في مصر ولا في الطريق ، ولكن أمام أبيهم ، وقد قالوا له ما وصاهم به أخوهم دون أن نسمعهم يقولونه . إنما يرفع الستار مرة أخرى لنجد أباهم يخاطبهم :

﴿ قال : بَلْ سَوَّلَتْ لَكُم أنْفُسكم أمْراً ، فَصَبْرٌ جميلٌ ، عسى اللهُ أن يَأْتيني بهم جميعاً ، إنه هو العليمُ الحكيمُ ﴾

ويسدل الستار.

وهنا نرى مشهداً آخر بين يعقوب وبنيه ، نراه قد ابيَضَّتْ عيناه من الحزن ، وهو دائم الحسرة على يوسف ، وأبناؤه يستنكرون عليه هذا كله :

﴿ وتَوَلَّى عنهم ، وقالَ : يا أَسَفَا على يوسُف ، وابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الحُزْن فهو كظيم . قالوا : تالله تَفْتَأُ تذكرُ يوسُف حتى تكون حرضاً[1] أو تكون من الهالِكِين ؛ قال : إنما أشكو بَثي وحُزني إلى الله ، وأعلَمُ مِنَ اللهِ ما لا تَعْلَمون . يا بَنِيَّ اذْهَبوا فَتَحَسَّسوا مِنْ يُوسُف وأخيه ، ولا تَيْأَسُوا من رَوْحِ الله ، إنَّه لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْح الله إلاَّ القَوْم الكافرون ﴾ .

وهنا يسدل الستار ، ويطوون الطريق لا نعلم عنهم فيه شيئاً ، إنما يرفع الستار فنجدهم في مصر أمام يوسف :

﴿ فلمّا دَخلوا عليْهِ قالوا : يا أيها العَزيزُ مَسَّنا وأهْلَنا الضرّ ، وجِئْنا بِبضاعَةٍ مُزْجاة ، فَأَوْفِ لنا الكَيْلَ وتَصَدَّق عَلَيْنا ، إنَّ اللهَ يجزي المتصدِّقين ﴾ ... وهكذا .

وتسير قصص أهل الكهف ومريم وسليمان على النسق نفسه ، وسنعرضها بالتفصيل في الفقرة التالية .

---

(١) ذائباً من الهم والحزن .

التصوير في القصة

وأخيراً نخصص هذا العنوان للخصيصة الرابعة ، أبرز الخصائص الفنية في القصة ، وأشدها اتصالاً بموضوع هذا الكتاب « التصوير الفني في القرآن » فلقد سبق أن قلنا : إن التعبير القرآني يتناول القصة بريشة التصوير المبدعة التي يتناول بها جميع المشاهد والمناظر التي يعرضها ، فتستحيل القصة حادثاً يقع ومشهداً يجري ، لا قصة تُروى ولا حادثاً قد مضى .

فالآن نقول : إن هذا التصوير في مشاهد القصة ألوان : لون يبدو في قوّة العرض والإحياء . ولون يبدو في تخييل العواطف والانفعالات . ولون يبدو في رسم الشخصيات . وليست هذه الألوان منفصلة ، ولكن أحدها يبرز في بعض المواقف ويظهر على اللونين الآخرين ، فيسمى باسمه . أما الحق فإن هذه اللمسات الفنية كلها تبدو في مشاهد القصص جميعاً .. وهنا يوضح المثال ، ما لا يوضحه المقال .

* * *

استعرضنا من قبل قصة أصحاب الجنة . ومشهد إبراهيم وإسماعيل أمام الكعبة . ومشهد نوح وابنه في الطوفان .. وكلها أمثلة لقوّة العرض والإحياء ، حتى ليظن القارئ أن المشهد حاضر يحس ويرى . على نحو ما بيّنا . أما الآن فنضيف مثلاً جديداً .

ها نحن أولاء نشهد « أهل الكهف » يتشاورون في أمرهم بعدما اهتدوا إلى الله بين قوم مشركين :

﴿ نحنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبأهُم بالحَقِّ : إنهم فِتْيَةٌ آمنوا بربِّهم ، وزِدْناهُم هُدىً ، وربَطْنا على قُلوبهِم ، إذْ قاموا ، فقالوا : رَبّنا رَبُّ السَّماوات والأرض ، لَنْ نَدْعُوَ منْ دونِهِ إلهاً ، لَقَدْ قُلْنا إذن شَطَطا . هؤلاء قومنا اتخذوا مِنْ دونِهِ آلهةً ، لَوْلا يأْتُونَ عَلَيهم بِسُلطانٍ بَيِّنٍ ! فمن أظلم ممن افْتَرى على اللهِ كَذِباً ؟ وإذْ اعْتَزَلْتموهُم وما يَعْبُدونَ ـ إلاّ الله ـ فأْوُوا إلى الكَهفِ ، ينشرْ لكُم رَبّكم من رحمتهِ ، ويهيئْ لكُم من أمْركُم مرفقاً ﴾ .

بهذا ينتهي المشهد ، ويسدل الستار ، أو تنقطع الحلقة على أحدث الطرق التي اهتدى إليها المسرح والسينما في القرن العشرين . فإذا رفع الستار مرة أخرى ، وجدناهم قد نفَّذوا ما استقر عليه رأيهم ، فها هم أولاء في الكهف . ها هم أولاء نراهم رأي العين . فما يدع التعبير هنا شكّاً في أننا نراهم يقيناً :

﴿ وتَرَى الشَّمْسَ إذا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِم ذاتَ اليمينِ ، وإذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهم ذات الشمال وهم في فَجْوَةٍ مِنهُ ﴾ ...

أنقول : إحياء المشهد ؟ إن المسرح الحديث بكل ما فيه من طرق الإضاءة ليكاد يعجز عن تصوير هذه الحركة المتماوجة ، حركة الشمس وهي « تَزَاوَر » عن الكهف عند مطلعها فلا تضيئه ، (واللفظة ذاتها تصور مدلولها) وتجاوزهم عند مغيبها فلا تقع عليهم . ولقد تستطيع السينما بجهد أن تصوّر هذه الحركة العجيبة التي تصورها الألفاظ في سهولة غريبة ..

ثم لننظرهم « وهم في فجوة منه » . إن الألفاظ لتقوم بالمعجزة مرة أخرى ، فتنقل هيئتهم وحركتهم كأنما تَشْخصُ وتتحرك على التوالي :

﴿ وتَحْسَبهمْ أيْقاظاً وهم رُقُودٌ ، وَنُقَلِّبُهُمْ ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال ، وكلبهم باسطٌ ذِراعَيْهِ بالوَصيد . لو اطَّلَعْتَ عليهم لَوَلَّيْتَ منهم فراراً ، ولَمُلِئْتَ منهم رُعْباً ﴾ .

وهكذا تضطلع الألفاظ بالتصوير وبالحركة في كل هذه السهولة .

وفجأة تدب فيهم الحياة ، فلننظر ولنسمع :

﴿ وكذَلِكَ بَعَثْناهُم لِيَتَساءَلوا بَيْنهم . قال قائلٌ مِنهم : كَمْ لبِثْتُمْ ؟ قالوا لبثنا يَوْماً أو بَعْضَ يوم ؛ قالوا : ربّكم أعلَمُ بما لبثتم . فابْعَثوا أحَدَكُم بوَرقكم هذه إلى المدِينَةِ ، فلْيَنظرْ أيها أزْكى طعاماً ، فَلْيَأْتِكُم برزْقٍ مِنْه ، وليَتَلَطَّف ، ولا يُشْعِرَنَّ بكم أحَداً ، إنهم إنْ يَظْهَروا عليكم يَرْجموكم أو يُعيدوكُم في ملَّتِهم ، ولَنْ تُفْلِحوا إذنْ أبداً ﴾ .

وهذا هو المشهد الثالث ـ أو بقية المشهد الثاني ـ فهم قد استيقظوا ، فكان أول ما يسألون عنه : كم لبثتم ؟ فيكون الجواب لبثنا يوماً أو بعض يوم . وإنّا لنعلم أنهم لبثوا أطول من ذلك جداً ، فقد عرفنا ملخص قصتهم قبل تفصيلها . أما هم فجائعون معجلون

عن التحقق ؛ ثم إنهم مؤمنون ، فليكن مظهر إيمانهم أن يقولوا : « ربكم أعلم بما لبثتم » . وهم متخوفون أن ينفضح أمرهم ، فهم يوصون رسولهم أن يتلطف ولا يشعرنَّ بهم أحداً ، لئلا يعرف القوم مقرهم فيرجموهم أو يعيدوهم في ملَّتهم . أما نحن فنعرف أن لا أحد هناك يرجمهم أو يردهم عن دينهم . ولكن لنتتبَّع هذا الرسول في المشهد الثالث :

أين هو هذا المشهد ؟ هنا فجوة متروكة للخيال . فنحن لا نجد إلا أن أمرهم كُشف وعثر الناس عليهم . وإن كان الناس يومئذ مؤمنين لا كافرين :

﴿ وكذلك أعْثَرْنا عَلَيهم لِيَعْلَموا أن وعْدَ الله حَقّ ، وأنّ الساعَةَ لا رَيْبَ فيها ﴾ ..

وهنا يبرز الغرض الديني من القصة ؛ ولكن النصيب الفني كذلك قد استوفي ، فللخيال أن يتصور ماذا حدث عندما ذهب رسولهم وعندما كشف أمره أيضاً .

وهنا كذلك فجوة أخرى . فهم قد ماتوا فيما يظهر . بل ماتوا فعلاً . والقوم خارج الكهف يتنازعون ويتشاورون في شأنهم ، على أي دين كانوا ؟

﴿ إذ يَتَنازَعونَ بَيْنَهم أمرهم ، فقالوا : ابْنوا عليهم بنياناً ، ربهم أعلَمُ بهم . قالَ الذينَ غلبوا على أمرِهِم : لَنَتَّخِذَنَّ عليهم مَسْجداً ﴾ ...

وهنا فجوة ثالثة . فليتخذ الخيال هذا المسجد عليهم . أما الناس

بعد أن انتهى الأمر ، فها هم أولاء ـ كعادة الناس ـ يتناقلون أخبارهم ، ويتجادلون في عددهم ، وعدد السنين التي انقضت عليهم :

﴿ سَيَقولون : ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويَقولون : خَمْسَة سادسهم كلبهم ـ رَجْماً بالغَيْبِ ـ ويقولون : سَبْعَة وثامنهم كلبهم ﴾ .

لقد طواهم المجهول بعد أن تمت الحكمة الدينية من بعثهم ، فليوكل سرهم إلى المجهول أيضاً :

﴿ قُلْ رَبيِّ أعلَمُ بعدَّتهم ، ما يَعْلمهم إلاَّ قليل ، فلا تمارِ فيهم إلاَّ مراء ظاهِراً ، ولا تَسْتَفْتِ فيهم منهم أحَداً ﴾ .

ثم تتهيأ المناسبة للتوجيهات الدينية المعهودة ، فنحن في أعقاب قصة البعث والقدرة الإلهية والاستئثار بالغيب ، فهنا يقول :

﴿ ولا تَقُولَنَّ لِشيءٍ : إنِّي فاعِلٌ ذٰلِكَ غداً إلاَّ أن يَشاء الله ، واذكُر ربَّكَ إذا نَسيت ، وقُلْ : عسىٰ أن يَهْدين ربِّي لأقربَ منْ هذا رشداً ﴾ .

(ويُذكر لهذا التوجيه سبب خاص بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكن تفصيل هذا السبب لا يعنينا هنا ، إنما هو مظهر عام من التوجيه الديني في ثنايا القصص وأعقابها ، وفي اللحظة النفسية المناسبة : وها هنا مناسبة كبرى) وفي النهاية خبر محقق عن مدى لبثهم ، وهو المهم في القصة ، أما عددهم فليبق سراً معهم : « ولبثوا في كهفهم ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعاً » . وهذا

الخبر فرصة أخرى للتوجيه الديني .

﴿ قُل : الله أعْلَمُ بما لَبثوا ، له غَيْبُ السماواتِ والأرض أبْصِرْ به وأَسْمِعْ . ما لهم من دونِهِ من وليّ ، ولا يُشْرِك في حكمهِ أحَداً . واتْل ما أُوحيَ إليكَ من كتابِ رَبِّكَ ، لا مُبَدِّل لكلماته ، وَلنْ تَجدْ مِن دونِهِ مُلْتَحَداً ﴾ .

لقد استطردنا في تتبع جميع خصائص القصة التي عرضت هنا . ولكن مما لا شك فيه أن « قوة العرض والإحياء » هي السمة البارزة في مشاهد القصة جميعاً . وأن هذا اللون هو الذي يطبعها ؛ ويغلب فيها على الألوان الأخرى .

* * *

والآن إلى اللون الثاني من ألوان التصوير في القصة : تصوير العواطف والانفعالات وإبرازها .

لقد عرضنا من قبل قصة صاحب الجنتين وصاحبه الذي يحاوره ؛ وقصة موسى مع رجل « من عبادنا آتيناه رحمةً من عندنا » وكلتاهما تصور العواطف المختلفة وتبرزها بجانب رسم الشخصيات وإحياء المشاهد . فالآن نضيف إليهما قصة أُخرى تفصيلاً . نضيف إليهما قصة مريم عند ميلاد عيسى :

﴿ واذْكُرْ في الكتاب مريَمَ . إذ انْتبَذَتْ من أهْلِها مكاناً شَرْقيّاً ، فاتَّخَذَتْ من دونِهم حجاباً ﴾ .

فها هي ذي في خلوتها ، مطمئنة إلى انفرادها ، يسيطر على وجدانها ما يسيطر على الفتاة في حمامها ! ولكن ها هي ذي تُفاجأ

مفاجأة عنيفة تنقل تصوراتها نقلة بعيدة ، ولكنها بسبب مما هي فيه أيضاً : « فأرسلنا إليها رُوحنا ، فتمثل لها بشراً سوياً . قالت : إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً » إنها انتفاضة العذراء المذعورة يفجؤها رجل في خلوتها ، فتلجأ إلى استثارة التقوى في نفسه : « إن كنت تقياً » !

ولئن كنا نحن نعلم أنه « الروح الأمين » فإنها هي لا تعلم إلا أنه رجل . وهنا يتمثل الخيال تلك الفتاة الطيبة البريئة ، ذات التقاليد العائلية الصالحة ، وقد تربَّت تربية دينية وكفلها « زكريا » بعد أن نُذرت لله جنيناً .. هذه هي الهزة الأولى .

﴿ قال : إنما أنا رسولُ ربكِ لأَهَبَ لكِ غُلاماً زكيّاً ﴾ .

ثم ليتمثل الخيال مرة أخرى مقدار الفزع والخجل ، وهذا الرجل الغريب ــ الذي لم تثق بعد بأنه رسول ربها ، فقد تكون حيلة فاتك يستغل طيبتها ــ يصارحها بما يخدش سمع الفتاة الخجول ، وهو أنه يريد أن يهب لها غلاماً . وهما في خلوة وحدهما .

وهذه هي الهزة الثانية .

ثم تدركها شجاعة الأنثى تدافع عن عرضها :

﴿ قالت : أنّى يكونُ لي غلامٌ ، ولم يمسَسْني بشرٌ ، ولم أكُ بَغِيّاً ﴾ .

هكذا . صراحة ، وبالألفاظ المكشوفة . فهي والرجل في خلوة ، والغرض من مباغتته لها قد صار مكشوفاً ــ فما تعرف هي بعد كيف يهب لها غلاماً ، وما يخفف من روع الموقف أن يقول لها : « إنما أنا رسولُ ربكِ » فقد تكون هذه خدعة فاتك كما قلنا ــ فالحياء إذن ليس يجدي ، والصراحة هنا أولى .

﴿ قالَ : كَذٰلِكَ قال ربُّكِ : هو عليَّ هَيِّن . وَلِنَجْعَلَهُ آيةً للنَّاسِ ، ورَحْمةً مِنَّا . وكانَ أمراً مَقْضِيّاً ﴾ .

ثم ماذا ؟

هنا نجد فجوة من فجوات القصة ؛ فجوة فنية كبرى ، تترك للخيال يتصورها كما يهوى . ثم تمضي القصة في طريقها ، لنرى هذه العذراء المسكينة في موقف آخر أشد هولاً :

﴿ فَحَمَلَتْهُ ، فانْتَبَذَتْ به مكاناً قصِيّاً . فأَجاءَها المخاضُ إلى جذْعِ النَّخْلَةِ . قالت : يا لَيْتَني مِتُّ قَبْلَ هٰذا ، وكنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً ﴾ .

وهذه هي الهزة الثالثة .

فلئن كانت في الموقف الأول تواجه الحصانة والتربية والأخلاق بينها وبين نفسها ، فهي هنا وشيكة أن تواجه المجتمع بالفضيحة ؛ ثم هي تواجه آلاماً جسدية بجانب الآلام النفسية . تواجه الألم الجسمي الحاد الذي « أجاءها » إجاءة إلى جذع النخلة ، وهي وحيدة فريدة ، تعاني حيرة العذراء في أول مخاض ، ولا علم لها بشيء ، ولا معين لها في شيء . فإذا هي قالت : « يا ليتني مِتُّ قبلَ هذا ، وكنتُ نسْياً منْسيّاً » فإننا لنكاد نرى ملامحها ، ونحس اضطراب خواطرها ، ونلمس مواقع الألم فيها :

﴿ فناداها مِن تَحتِها : ألاَّ تَحْزَني قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً ، وهُزِّي إلَيْكِ بجذْعِ النَّخْلَةِ تساقط عليكِ رُطَباً جَنِيّاً ، فَكُلي واشْرَبي ، وقَرِّي عيْناً ، فإمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البَشر أحَداً ، فقولي : إنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمٰن صَوْماً ، فَلَن أُكلِّم اليوم إنْسِيّاً ﴾ .

وهذه هي الهزة الرابعة . والمفاجأة العظمى . وإنا لنكاد نحن ـ لا مريم ـ نهبّ على الأقدام وثباً ، روعة من هذه الهزة وعجباً : طفل ولد للحظة ، يناديها من تحتها ، ويمهد لها مصاعبها ، ويهيئ لها طعامها . الا إنها الهزة الكبرى !

ونحسبها قد دهشت طويلاً ، وبهتت طويلاً ، قبل أن تمد يدها إلى جذع النخلة تهزه ليساقط عليها رطباً جنيّاً ـ لتتأكد على الأقل ، ويطمئن قلبها لما تواجه به أهلها ـ ولكن هنا فجوة تترك للخيال أن يقيم عندها قنطرة ، ويعبرها ...

﴿ فَأَتَتْ به قومها تَحْمِله ﴾ !

فلتطمئن الآن مريم ، ولتنتقل الهزات النفسية إلى سواها .

﴿ قالوا : يا مريم لقد جِئْتِ شيئاً فَرِيّاً . يا أُخْتَ هارونَ ! ما كانَ أبوكِ امرأ سَوْءٍ ، وما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ! ﴾ .

إن الهزة لتطلق ألسنتهم بالسخر والتهكم على « أخت هارون » ! وفي تذكيرها بهذه الأخوة ما فيه من مفارقة ، فهذه حادثة في هذا البيت لا سابقة لها

﴿ ما كانَ أبوكِ امرأً سَوْء ، وما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾ .

« فأشارت إليه » . ويبدو أنها كانت مطمئنة لتكرار المعجزة هنا ؛ أما هم فما عسى أن نقول في العجب الذي يساورهم ، والسخرية التي تجيش بها نفوسهم ، وهم يرون عذراء تواجههم بطفل ، ثم تتبجح فتشير إليه ليسألوه عن سرها : « قالوا : كيف نكلم من كان في المهد صبياً ؟ » .

ولكن ها هي ذي المعجزة المرتقبة :

﴿ قال : إني عَبْدُ الله ، آتانيَ الكتاب ، وجَعَلَني نَبيّاً ، وجَعَلَني مُباركاً أَيْنما كُنتُ ، وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دُمْتُ حَيّاً ، وبَرّاً بِوالِدَتي ، ولم يجعَلْني جبّاراً شَقِيّاً ، والسَّلامُ عَليَّ يَوْمَ وُلِدْتُ ويَوْمَ أموتُ ، ويَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ ...

لولا أننا قد جرّبنا من قبل ، لوثبنا على أقدامنا فزعاً ، أو لسمرنا في مواضعنا دهشاً ، أو لفغرنا أفواهنا عجباً ؛ ولكننا جربنا ؛ فلتفض أعيننا بالدمع من التأثر ، ولترتفع أكفنا بالتصفيق من الإعجاب . وفي هذه اللحظة يسدل الستار ، والأعين تدمع للانتصار ، والأيدي تدوي بالتصفيق . وفي هذه اللحظة نسمع في لهجة التقرير ، وفي أنسب فرصة للإقناع والاقتناع :

﴿ ذلك عيسى ابنُ مريَمَ . قول الحَقِّ الذي فيه يمترونَ . ما كانَ لله أن يَتَّخِذَ من وَلَدٍ سُبْحانَهُ ! إذا قَضى أمراً فإنما يقول له كن فيَكون ؛ وإنَّ الله ربي وربُّكم فاعبدوه هذا صراطٌ مُسْتَقيم ﴾ .

لقد برز الغرض الديني هنا ، وبرزت مشاهد القصة . ولكن مما لا شك فيه أن قوة إبراز العواطف والانفعالات هي الغالبة ، وأن هذا اللون هو الذي يطبعها ، ويغلب فيها على الألوان الأخرى .

رسم الشخصيات في القصة

والآن نتحدث عن اللون الثالث من ألوان التصوير في القصة ؛ ولكننا نفرده عنها ، وإن كان واحداً منها ، ذلك هو رسم الشخصيات وإبرازها .

لقد عرضنا من قبل قصة صاحب الجنتين وصاحبه ، وقصة موسى وأستاذه . وفي كل منهما نموذجان بارزان . والأمثلة على هذا اللون من التصوير هي القصص القرآني كله ، فتلك سمة بارزة في هذا القصص ، وهي سمة فنية محضة ـ وهي بذاتها غرض للقصص الفني الطليق ـ وها هو ذا القصص القرآني ، ووجهته الأولى هي الدعوة الدينية ، يلم في الطريق بهذه السمة أيضاً ، فتبرز في قصصه جميعاً ، ويرسم بضع « نماذج إنسانية » من هذه الشخصيات ، تتجاوز حدود الشخصية المعنية إلى الشخصية النموذجية . فلنستعرض بعض القصص على وجه الإجمال ، ولنعرض بعضها على وجه التفصيل .

* * *

١ ـ لنأخذ موسى . إنه نموذج للزعيم المندفع العصبي المزاج .

فها هو ذا قد رُبي في قصر فرعون ، وتحت سمعه وبصره ، وأصبح فتىً قوياً .

﴿ ودَخَلَ المدينة على حينِ غَفْلَة من أهلِها ، فوَجَدَ فيها رَجُلَين يَقْتتلان : هذا من شيعته وهذا من عدوّه ، فاسْتَغاثَهُ الذي من شيعَتِهِ على الذي من عدوه ، فوكَزَهُ موسى ، فَقَضى عليه ﴾ .

وهنا يبدو التعصب القومي ، كما يبدو الانفعال العصبي .

وسرعان ما تذهب هذه الدفعة العصبية ، فيثوب إلى نفسه شأن العصبيين :

﴿ قال : هذا من عمل الشيطان إنَّه عَدوٌ مُضلٌ مُبين . قال : ربِّ إني ظَلَمْتُ نَفْسي ، فاغْفِرْ لي . فَغَفَرَ لهُ إنَّه هو الغفور الرحيم . قال : رَبِّ بما أنْعَمْتَ عَليَّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾ .

« فأصبح في المدينة خائفاً يترقب » وهو تعبير مصوّر لهيئة معروفة : هيئة المتفزع المتلفت المتوقع للشر في كل حركة . وتلك سمة العصبيين أيضاً .

ومع هذا ، ومع أنه قد وعد بأنه لن يكون ظهيراً للمجرمين . فلننظر ما يصنع . إنه ينظر « فإذا الذي استنصرَهُ بالأمس يستصرخه » مرة أخرى على رجل آخر ، « قال له موسى : إنك لَغَوِيٌّ مبين » ولكنه يهم بالرجل الآخر كما همَّ بالأمس ، وينسيه التعصب والاندفاع استغفاره وندمه وخوفه وترقبه ، لولا أن يذكره من يهم به بفعلته ، فيتذكر ويخشى :

﴿ فلما أرادَ أنْ يبطش بالذي هو عدوّ لهما ، قال : يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلتَ نَفْساً بالأمس ؟ إنْ تريد إلاَّ أن تكونَ جبّاراً في الأرض ، وما تريد أن تكون من المصْلِحين ﴾ .

وحينئذ ينصح له بالرحيل رجل جاء من أقصى المدينة يسعى ، فيرحل عنها كما علمنا .

فلندعه هنا لنلتقي به في فترة ثانية من حياته بعد عشر سنوات ، فلعله قد هدأ وصار رجلاً هادئ الطبع حليم النفس .

كلا ! فها هو ذا يُنادَى من جانب الطور الأيمن : أن ألقِ عصاك ، فألقاها فإذا هي حيَّةٌ تسعى . وما يكاد يراها حتى يثب جرياً ، لا يعقِّبُ ولا يُلوي . إنه الفتى العصبي نفسه ولو أنه قد صار رجلاً ؛ فغيره كان يخاف نعم ، ولكن لعله كان يبتعد منها ، ويقف ليتأمل هذه العجيبة الكبرى .

ثم لندعه فترة أخرى ، لنرى ماذا يصنع الزمن في أعصابه .

لقد انتصر على السحرة ، وقد استخلص بني إسرائيل ، وعَبَرَ بهم البحر ، ثم ذهب إلى ميعاد ربه على الطور . وإنه لنبي . ولكن ها هو ذا يسأل ربه سؤالاً عجيباً « قال : ربِّ أرني أنظرْ إليك » « قال : لن تَرَاني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف تراني » ثم حدث ما لا تحتمله أيّة أعصاب إنسانية ـ بله أعصاب موسى ـ

﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دَكّاً وخرَّ موسى صَعِقاً ؛ فلما أفاق قال : سبحانك ! تبتُ إليك وأنا أول المؤمنين ﴾ ...

عودة العصبي في سرعة واندفاع !

ثم ها هو ذا يعود ، فيجد قومه قد اتخذوا لهم عجلاً إلهاً ، وفي يديه الألواح التي أوحاها الله إليه ، فما يتريث وما يني « وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه » وإنه ليمضي منفعلاً يشد رأس أخيه ولحيته ولا يسمع له قولاً :

﴿ قال : يا ابْنَ أمَّ لا تأْخُذْ بِلحيَتي ولا برأسي . إنيِّ خَشيتُ أن تقولَ : فَرَّقْتَ بين بني إسرائيلَ ولم تَرْقَبْ قَوْلي ﴾ .

وحين يعلم أن « السامريّ » هو الذي فعل الفعلة ، يلتفت إليه مغضباً ، ويسأله مستنكراً . حتى إذا علم سر العجل :

﴿ قال فاذْهَبْ . فإنَّ لك في الحياة أن تقول لا مساس ؛ وإن لك موعداً لن تُخْلِفه ؛ وانظرْ إلى إلهك الذي ظلْت عليه عاكفاً ، لنحرّقنَّه ثم لننسفنَّه في اليم نسفاً ﴾ .

هكذا في حنق ظاهر وحركة متوترة .

فلندعه سنوات أخرى .

لقد ذهب قومه في التيه ونحسبه قد صار كهلاً حينما افترق عنهم ؛ ولقي الرجل الذي طلب إليه أن يصحبه ليعلمه مما آتاه الله علماً . ونحن نعلم أنه لم يستطع أن يصبر حتى ينبئه بسرّ ما يصنع مرة ومرة ومرة ، فافترقا ... !

تلك شخصية موحدة بارزة ، ونموذج إنساني واضح في كل مرحلة من مراحل القصة جميعاً .

* * *

٢ ـ تقابل شخصية موسى شخصية إبراهيم . إنه نموذج الهدوء ، والتسامح والحلم : « إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب » .

فها هو ذا في صباه يخلو إلى تأملاته ، يبحث عن إلٰهه :

﴿ فلما جَنَّ عليه اللّيلُ رَأى كَوكَباً ، قال : هذا ربي . فلما أفل ، قال : لا أُحبّ الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً ، قال : هذا ربي . فلما أفل ، قال : لئن لم يهدني ربي لأكونَنَّ من القومِ الضَّالِّين . فلما رأى الشمسَ بازغَةً قال : هذا ربي ، هذا أكبر . فلما أفلَتْ ، قال : يا قوم إني بريءٌ مما تُشركون . إنّي وَجَّهْتُ وَجْهي للّذي فَطَرَ السّماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين . وحاجَّهُ قومهُ ، قال : أتحاجُّوني في اللهِ وقد هَدَان ؟ ولا أخافُ ما تُشْركونَ به إلاّ أنْ يَشاء ربي شيئاً ، وَسِعَ ربي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً . أفلا تَتَذَكَّرون ؟ ﴾ .

وما يكاد يصل إلى هذا اليقين ، حتى يحاول في برٍّ وودّ أن يهدي إليه أباه ، في أحب لفظ وأحياه .

﴿ يا أَبَت لِمَ تَعْبُد ما لا يَسْمَعُ ، ولا يُبْصِرُ ولا يُغني عَنْكَ شيئاً ؟ يا أَبَتِ إنِّي قد جاءني من العِلْمِ ما لم يَأْتِكَ ، فاتبعني أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيّاً . يا أَبَتِ لا تعْبد الشيطان ، إنَّ الشيطان كان لِلرَّحْمٰنِ عصِيّاً . يا أَبَتِ إنِّي أخافُ أن يمسّكَ عَذابٌ من الرحمٰنِ ، فتكون للشيطانِ وَلِيّاً ﴾ ..

ولكن أباه ينكر قوله ويغلظ له في القول ، ويهدده تهديداً :

﴿ قال : أراغِبٌ أَنْتَ عن آلهتي يا إبراهيم ؟ لئن لم تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ . واهْجُرْني مَلِيّاً ﴾ .

فلا يخرجه هذا العنف عن أدبه الجمّ ، ولا عن طبيعته الودود ؛ ولا يجعله ينفض يديه من أبيه :

﴿ قال : سَلامٌ عليك . سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِي ، إنه كان بي حَفِيّاً ؛ وأعتزلكم وما تَدْعونَ من دون الله وأَدْعو ربي ، عسى ألاَّ أكون بدعاء ربي شَقِيّاً ﴾ .

ثم ها هو ذا يحطِّم أصنامهم ـ ولعله العمل الوحيد العنيف الذي يقوم به ـ ولكنه إنما تدفعه إلى هذا رحمة أكبر . عسى أن يؤمن قومه إذا رأوا آلهتهم جُذاذاً ، وعلموا أنها لا تدفع عن نفسها الأذى . ولقد كادوا يؤمنون فعلاً . « فرجعوا إلى أنفسهم ، فقالوا : إنكم أنتم الظالمون » . ولكنهم عادوا فهمّوا بإحراقه ، وحينئذ « قلنا : يا نارُ كوني برداً وسلاماً على إبراهيم » .

ولقد اعتزلهم عهداً طويلاً مع النفر الذي آمن معه ، ومنهم ابن أخيه لوط .

وفي كبرته وهرمه يرزقه الله بإسماعيل ؛ ولكن يقع له ما يحتم عليه أن يبعد ابنه وأمه عنه (والقرآن لا يتعرض لهذا الذي وقع) فيغلبه الطبع الرضِيّ على الحنوّ الأبويّ ؛ ويدركه إيمانه بربه ، فيدعهما بجوار بيته . وهناك ينادي ذلك النداء الخاشع المنيب :

﴿رَبَّنا إنيِّ أسْكَنْتُ من ذُرِّيَّتي بوادٍ غير ذي زرْع عند بيتك المحرم . ربّنا ليقيموا الصلاة ، فاجْعَل أفْئِدَةً من الناس تهوي إليهم ، وارزقهم من الثمراتِ لَعَلَّهُم يَشكُرون﴾ .

ثم ما يكاد هذا الطفل يشب ، ويصبح فتى ، حتى يرى في المنام أنه يذبحه ؛ فيغلبه الإيمان الديني العميق ، على الحب الأبوي العميق ؛ ويهم بإطاعة الإشارة ، لولا أن يرفق به ربه ، فيفديه بذبح عظيم .

وهكذا تتكشف الوقائع في القصة والمحاورات عن شخصية مميزة الملامح واضحة السمات : « إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب » .

* * *

٣ ــ ويوسف : إنه نموذج الرجل الواعي الحصيف .

فها هو ذا يلقى العنت من مراودة امرأة العزيز له فيأبى . إنه في بيت رجل يؤويه ، فليحذر مواضع الحرج جميعاً . ومع ذلك يكاد يضعف : « ولقد همَّت به وهمَّ بها لولا أن رأى برهانَ ربه »[١] .

---

(١) أنا أرى أن الهم هنا كان متبادلاً في اللحظة الأولى ، ثم رأى برهان ربه فثاب إلى نفسه . ولست أرى ان الهم ثم الترك مما يتعارض مع عصمة الأنبياء . فيكفيه عصمة ان لم يفعل . ومتعلق (لولا) ليس هو «وهم بها» حتى يكون ممتنعاً . إنما هو محذوف مفهوم مما بعده وهو فراره منه وقدّ قميصه من دبر . ولا داعي لأي تأويل آخر .

وهنا تبرز «المرأة» في حالة من أنكر حالاتها ، وفي دفعة من دفعات غريزتها : «واستبقا البابَ وقدّتْ قميصه من دُبُرٍ» . وتقع المفاجأة التي يحذرها : «وألفيا سيّدها لدى الباب» وهنا تدرك المرأة غريزتها أيضاً ، فتجد الجواب حاضراً ، إنها تتهم الفتى : «ما جزاءُ من أراد بأهلك سوءاً ؟» ولكنها امرأة تعشق ، فهي تخشى عليه الردى ، فتشير بالعقاب المأمون : «إلا أن يُسجن أو عذابٌ أليم» !

وغير يوسف كانت تناله «اللخمة» ولكن يوسف الواعي يجيب صادقاً : «هي راودتني عن نفسي» ويستشهد بقميصه المقدود من الخلف . ويجد من يؤيده في استشهاده من أهل المرأة ذاتها :

﴿ وشَهِدَ شاهِدٌ من أهْلِها : إن كانَ قميصه قُدَّ من قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وهو من الكاذِبين . وإن كان قميصه قُدَّ من دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وهوَ من الصادِقين ﴾ ... فيوسف إذن بريء .

ويلغط نساء المدينة بالقصة ـ كعادة النساء في كل مكان وزمان ـ وإنها لقصة تجد لديهن اهتماماً ورواجاً ؛ فتبرز «المرأة» في زوج العزيز مرة أخرى . إنها تدعوهن إلى حفلة ، وبينما هنَّ منهمكات في تناول الطعام والسكاكين في أيديهن ـ فقد كانت مصر متحضرة يأكل أهلها في الصحاف ويستخدمون السكاكين ـ تُخرِج عليهن يوسف ، فيبهتن ويؤخذن ، ويجرحن أيديهن تجريحاً شديداً «فلما رأينَهُ أكبَرْنَه وقطَّعْن أيديهنَّ ، وقلن : حاش لله ! ما هذا بشراً . إن هذا إلاَّ ملكٌ كريم» ... إنهن لنساء ، وإنها لامرأة ، وإنها لتعرف كيف تفحم النساء !

﴿ ثم بدا لهم ـ من بعد ما رَأوا الآيات ـ لَيَسْجُنُنَّه حتى حين ﴾

فلن يسكت اللغط وفي المدينة نسوة .

وها هو ذا يفسِّر الرؤيا لصاحبيْ الملك في السجن ، فإذا عرف أن أحدهما سينجو وأنه سيعود إلى خدمة سيده ، لم ينس يوسف الواعي أن يطلب إليه ذكره عند ربه :

﴿ وقال للذي ظَنَّ أنه ناجٍ منهما : اذْكُرْني عِنْدَ رَبّكَ ﴾ .

ولكن الساقي ينسى . « فلبثَ في السجن بضْعَ سنين » حتى يرى الملك رؤياه ، ويعجز عن تفسيرها المفسرون ، فيذكر الساقي يوسف ، ويأتي إليه ليفسِّر الرؤيا ، فيجد لها تفسيراً ، فيطلبه الملك ليراه .

وهنا يظهر الرجل الحصيف . لقد دخل السجن ظلماً ، وإن حوله للغطاً ، وإنه لن يأمن إذا خرج أن يرد إلى السجن كما دخل إليه أول مرة ؛ فهو ينتهز الفرصة المناسبة للحصول على الضمان والبراءة : « قال : ارجعْ إلى ربك فاسأله ما بالُ النسوة اللاتي قطَّعن أيديهن ؟ إن ربي بكيدهن عليم » . ويسألهن الملك ، فيجبن بالحقيقة ، وترى امرأة العزيز أن تبرئه أيضاً ، فالظاهر أنها كانت قد أسنت . إذ نحن نرجح أنها فعلت فعلتها وهي في الأربعين أو فوقها ، فهي فعلة امرأة مكتملة في نهاية المرحلة ؛ فإذا أضفنا إلى سنها « بضع سنين » كانت في الخمسين أو قرب الخمسين . فلا ضَير حينئذ من كشف الماضي الدفين : « قالت امرأة العزيز : الآن حصْحَصَ الحقّ . أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين » .

وفي تعقيب يوسف على هذا يبدو الرجل الحصيف المقتصد

في التعبير ، الذي لا يبالغ في شيء ، إنما يضع الاحتمالات والاحتياطات لكل حالة :

﴿ ذلك ليعلم أنيّ لم أخُنْهُ بالغَيْب ، وأنّ الله لا يهدي كَيْدَ الخائِنين . وما أبَرِّئُ نَفْسي . إن النَّفْس لأمَّارَة بالسُّوء[1] ﴾ .

فإذا رأى أنس الملك به وارتياحه لتأويله ؛ وسمع منه قوله : « إنـك اليوم لدينا مكين أمينٌ » لم يدع الفرصة تذهب بل « قال : اجعلني على خزائن الأرض . إني حفيظ عليمٌ » فيجاب إلى طلبه في أنسب الظروف .

ويدل تصرف يوسف في سنيّ الخصب والجدب على مهارة واضحة في الإدارة والاقتصاد ، فقد أشرف على المالية والتموين أربع عشرة سنة ، لا على تموين مصر وحدها ، بل على تموين البلاد القريبة المجاورة ، التي أجدبت كذلك ، وجاءت مصر تستجدي الخبز والحياة سبع سنين .

ثم إذا جاء إخوته فعرفهم وهم له منكرون ، جعل حصوله منهم على أخيه ، ثمناً لحصولهم على القوت . فإذا جاءوه بأخيه وأراد احتجازه « جعل السقاية في رحْل أخيه ، ثم أذَّن مؤذِّن : أيتها العير إنكم لسارقون » فإذا أنكروا السرقة ، وطلبوا تفتيشهم ، وأخْذَ من تظهر الكأس في أمتعته ثمناً للكأس ، تبدت الحصافة

---

(١) في قول يوسف ذاته هنا ما يؤيد تفسيرنا الذي أسلفنا فالنفس أمارة بالسوء ولقد أمرته ، فما يبرئ نفسه من الأمر ، ولكنه استعصم ، ورأى برهان ربه فأمسك . وهي عصمة لا شك فيها بعد الفتنة التي تعرض لشبيهة لها نبي الله داود كذلك في قصة النعجة الواحدة والتسع والتسعين نعجة .

« فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه » وتركهم يعودون بدونه ؛ ثم يرتدون بأوعيتهم إليه ، فيكشف لهم في هذه المرة عن نفسه ، بعد أن يلقي عليهم هذا الدرس ، وبعد أن يحملهم تلك المشقة !

وهذه كلها تصرفات الرجل الواعي الحصيف .

* * *

٤ ـ وكنا نودّ أن نعرض شخصية آدم وشخصية إبليس هذا العرض المفصَّل ، ولكننا نكتفي بالإجمال فيهما لأن لدينا قصة أخرى سنعرضها تفصيلاً .

إن شخصية آدم في قصص القرآن لنموذج « للإنسان » بكل مقوماته وخصائصه . ومن أظهر تلك المقومات والخصائص ذلك الضعف البشري الأكبر الذي يجمع كل نواحي الضعف الأخرى . فيها الضعف أمام الرغبة في الخلود . وقد لمس إبليس موضع الضعف هذا فاستجاب له آدم واستجابت له حواء : « قال : هل أدلّك على شجرة الخلد ومُلك لا يبلى » . فالإنسان الفاني حريص على الخلود أبداً ، فلما لم ينله كما مناه الشيطان ، ظل وسيظل يحاوله بمختلف الطرق . بالنسل وبالذكْر وبالخيال . فإن لم ينفعه هذا كله نفعه الدين الذي يضمن له البعث مرة أخرى ، ويضمن له نوعاً من الخلود أيضاً !

أما شخصية إبليس فهي شخصية الشيطان وكفى ... !

* * *

٥ ـ والآن نعرض أشد القصص إبرازاً للسمات الشخصية فيما

نرى ، وأدخلها في الفن الخالص كذلك ، مع وفائها التام بالغرض الديني .

إنها قصة سليمان مع بلقيس . وكلاهما شخصية واضحة فيها : شخصية « الرجل » وشخصية « المرأة » . ثم شخصية « الملك النبي » وشخصية « الملكة » . فلننظر كيف يبرز أولئك جميعاً .

﴿ وتَفَقَّدَ الطَّيرَ ، فقال : ما لِيَ لا أرى الهدهُدَ ؟ أم كان مِن الغائِبين ؟ لأُعذِّبَنَّهُ عَذاباً شَديداً ، أو لأَذْبَحَنَّهُ ، أو ليأتِيَنِّي بسُلطانٍ مُبين ﴾ .

فهذا هو المشهد الأول . فيه « الملك الحازم » و « النبي العادل » و « الرجل الحكيم » . إنه الملك يتفقد رعيته ، وإنه ليغضب لمخالفة النظام ، والتغيب بلا إذن . ولكنه ليس سلطاناً جائراً ، فقد يكون للغائب عذره ، فإن كان فبها ، وإلا فالفرصة لم تفت ، وليعذِّبَنَّه عذاباً شديداً أو ليذبحنَّه .

﴿ فمَكَثَ غيرَ بَعيد ، فقال : أحَطتُ بما لم تُحطْ به ، وجئتُكَ من سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقين : إنِّي وَجَدْتُ امرأةً تملكهم ، وأُوتِيَتْ من كل شيء ، ولها عَرْشٌ عَظيم . وجدتها وقومها يَسْجدون للشمس من دون اللهِ ، وزَيَّنَ لهم الشيطان أعمالهم فَصَدَّهُم عن السبيل ، فهم لا يهتدون . ألاَّ يَسْجدوا لله الذي يخرج الخبء[1] في السماوات والأرض ، ويعلم ما تخفونَ وما تُعلِنون ، الله لا إله إلاَّ هُوَ رَبُّ العرش العظيم ﴾ .

---

(١) المخبوء .

فهذا هو المشهد الثاني ـ عودة الغائب ـ وهو يعلم حزم الملك وشدة بطشه فهو يبدأ حديثه بمفاجأة يعدها للملك تبرر غيبته ، وافتتاحها يضمن إصغاء الملك إليه : « أحطت بما لم تحطْ به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين » . فأي ملك لا يستمع ، وأحد رعيته الصغار يقول له : « أحطت بما لم تحط به ! » ثم ها هو ذا الغائب يعرض النبأ مفصَّلاً ؛ وإنه ليحس إصغاء الملك له ، واهتمامه بنبئه ؛ فهو يطنب فيه ، وهو يتفلسف ، فينكر على القوم : « ألاَّ يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض » . وإنه حتى هذه اللحظة لفي موقف المذنب ، فالملك لم يرد عليه بعد . فهو يُلمّح بأن هناك إلٰهاً « هو ربّ العرش العظيم » ليطامن الملك من عظمته الإنسانية ، أمام هذه العظمة الإلٰهية !

﴿ قال : سَنَنْظُر أصَدَقْتَ أم كُنْتَ من الكاذِبين . اذْهَبْ بكِتابي هذا فَأَلْقِهْ إليهم ، ثم تَوَلَّ عنهم ، فانْظُرْ ماذا يرْجعون ﴾ .

فهذا هو المشهد الثاني في شطره الأخير . فيه الملك الحازم العادل . فالنبأ العظيم لم يستخف « الملك » وهذا العذر لم ينه قضية الجندي المخالف للنظام ، والفرصة مهيأة للتحقيق ، كما يصنع « النبيّ » العادل ، والرجل « الحكيم » .

ثم ها نحن أولاء ـ النظارة ـ لا نعلم شيئاً مما في الكتاب ، إن شيئاً منه لم يذع قبل وصوله إلى الملكة ! فإذا وصل فهي التي تذيعه . ويبدأ المشهد الثالث :

﴿ قالت : يا أيها الملأُ إني أُلْقِيَ إليَّ كتابٌ كريم ، إنَّه من سليمان ، وإنَّهُ بسم الله الرَّحْمٰن الرَّحيم . ألا تَعلوا عَليَّ وأتوني مُسْلمين ﴾ .

وها هي ذي « الملكة » تطوي الكتاب ، وتوجه إلى مستشاريها الحديث :

﴿ قالت : يا أيها الملأ افتوني في أمري . ما كنتُ قاطعة أمراً حتى تَشْهَدون ﴾ .

وكعادة العسكريين في كل زمان ومكان ، لا بد أن يظهروا استعدادهم العسكري في كل لحظة . وإلاّ أبطلوا وظيفتهم . مع تفويض الأمر للرياسة العليا كما يقتضي النظام والطاعة :

﴿ قـالـوا : نحن أولـو قُـوَّة ، وأولو بَأْسٍ شديد ؛ والأمر إلَيكِ فانظُري ماذا تَأْمُرين ﴾ .

وهنا تظهرُ « المرأة » من خلف « الملكة » ، المرأة التي تكره الحرب والتدمير ، والتي تنضي سلاح الحيلة والملاينة قبل سلاح القوّة والمخاشنة ، والتي تتهيّأ في صميمها لمواجهة « الرجل » بغير العداء والخصام !

﴿ قالت : إنَّ الملوكَ إذا دَخلوا قَرْيَةً أفْسَدوها ، وجَعَلوا أعِزَّة أهلها أذِلَّة ، وكذلك يَفْعَلون ، وإنيِّ مُرْسِلَةٌ إليهم بهديَّةٍ ، فناظِرَة بم يرجع المرسَلون ﴾ !

ويسدل الستار هنا ، ليرفع هناك عند سليمان :

﴿ فلما جاء سليمانَ قال : أتمدونن بمال ؟ فما آتانيَ الله خير مما آتاكم . بل أنتم بهديتكم تَفْرَحون ؛ ارجع إليهم فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بجنودٍ لا قِبَلَ لهم بها ، ولَنُخرجَنَّهم منها أذِلَّة وهم صاغِرون ﴾ .

والآن لقد ردَّ الرسل بهديتهم ، فلندعهم في الطريق قافلين .

إن سليمان النبي لملك ، وإنه كذلك لرجُل . وإن «الملك» ليدرك من تجاربه أن هذا الرد العنيف سينهي الأمر مع ملكة لا تريد العداء ـ كما يبدو من هديتها له ـ وأنها ستجيب دعوته على وجه الترجيح ، بل التحقيق ، وهنا يستيقظ «الرجل» الذي يريد أن يبهر «المرأة» بقوته وبسلطانه (وسليمان هو ابن داود صاحب التسع والتسعين نعجة الذي فتن في نعجة واحدة)[1] . فها هو ذا يريد أن يأتي بعرش الملكة قبل أن تجيء . وأن يمهد لها الصرح من قوارير (وإن كانت القصة تبقي الصرح سراً ـ حتى عنا نحن النظارة ـ لتفاجئنا به مع بلقيس في المشهد الأخير) :

﴿ قال : يا أيها الملأ . أيكم يأتيني بِعَرْشِها ، قبلَ أن يأْتوني مُسْلِمين ؛ قالَ عِفْريتٌ منَ الجِنِّ : أنا آتيكَ به قبلَ أن تَقومَ من مَقامِكَ ؛ وإني عليه لَقَويٌّ أمين ﴾ .

ولكن الأهداف الدينية لا تريد أن يكون للجن قوّة ، ولو كانوا من جن سليمان . فها هو ذا رجل من المؤمنين ـ عنده علمٌ من الكتاب ـ تفوق قوته قوة ذلك العفريت !

---

(١) في قصة داود في القرآن إشارة إلى فتنته بامرأة ـ مع كثرة نسائه ـ فأرسل الله إليه ملكين يتخاصمان عنده «إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا : لا تخف . خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط . إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال : أكفلنيها وعزني في الخطاب . قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ... ! » ... وعرف داود أنها الفتنة «فاستغفر ربه وخرَّ راكعاً وأناب» .

﴿ قالَ الذي عندهُ عِلْمٌ من الكِتاب : أنا آتيكَ به قبل أن يَرْتَدَّ إليكَ طَرْفك ﴾ ..

وهنا فجوة كما تغمض العين ، ثم تفتح :

﴿ فلما رآهُ مُسْتَقِرّاً عنده قال : هذا من فضل ربي ، ليبلوني أأشْكُرُ أم أكفُرُ . ومن شَكَرَ فإنَّما يَشْكُرُ لِنفسِهِ ، ومن كَفَرَ فإنَّ ربي غنيّ كريم ﴾ .

لقد استيقظ « النبي » في نفس سليمان ، أمام نعمة الله التي تتحقق على يديّ عبد من عباد الله ؛ وهنا يستطرد سليمان في الشكر على النعمة بما يحقق الغرض الديني للقصة .

ثم ها هو ذا « الرجل » يستيقظ في سليمان مرة أخرى :

﴿ قال : نكّروا لها عَرْشها . نَنْظُر أتهتَدي أم تكونُ من الذينَ لا يهتَدون ﴾ .

وهنا يتهيّأ المسرح لاستقبال الملكة ؛ ونمسك نحن أنفاسنا في ارتقاب مقدمها :

﴿ فلما جاءتْ قيلَ : أهكَذا عَرْشُكِ ؟ قالَتْ : كأنَّه هو ﴾ ...

ثم ماذا ؟ إن الملكة لم تسلم بعد من هذه المفاجأة ـ فيما يبدو ـ :

﴿ وصَدَّها ما كانَتْ تَعْبدُ من دون الله . إنها كانَتْ من قَومٍ كافرين ﴾ .

وهنا تم المفاجأة الثانية للملكة ولنا معها :

﴿ وقيلَ لها ادْخُلي الصَّرْحَ . فلما رَأَتْهُ حَسبته لُجَّةً وكَشفتْ عنْ ساقَيْها . قال : إنَّهُ صَرْحٌ مُمرَّد من قوارير ! قالت : ربِّ إني ظَلَمْتُ نَفْسي . وأسْلَمْتُ مع سليمان لله رَبّ العالمين ﴾ .

وهكذا كانت بلقيس « امرأة » كاملة : تتقي الحرب والتدمير ؛ وتستخدم الحيلة والملاطفة ، بدل المجاهرة والمخاشنة ؛ ثم لا تسلّم لأول وهلة . فالمفاجأة الأولى تمر فلا تُسْلم ؛ فإذا بهرتها المفاجأة الثانية ، وأحست بغريزتها أن إعداد المفاجأة لها دليل على عناية « الرجل » بها ، ألقت السلاح ، وألقت بنفسها إلى الرجل الذي بهرها ، وأبدى اهتمامه بها ، بعد الحذر الأصيل في طبيعة المرأة ، والتردد الخالد في نفس حواء !

وهنا يسدل الستار . فما في القصة من الوجهة الدينية ، ولا من الوجهة الفنية زيادة لمستزيد ، إلا أن يحاول عقداً أخرى فنية بحتة ، لا تتصل بالغرض الديني ولا تساوقه . وإنه لحسب قصة دينية وجهتها الدين وحده ، أن تبرز هذه الانفعالات النفسية ، وأن ترسم هذه « النماذج الإنسانية » وأن تعرضها هذا العرض ، وتنسقها ذلك التنسيق .

وبهذا البيان نختم فصل القصة في القرآن ، وفيها وراء ذلك متسع لمن شاء البيان .

نماذج إنسانية

رسم القرآن في خلال تعبيره عن الأغراض الدينية المختلفة عشرات من « النماذج الإنسانية » في غير القصص . رسمها في سهولة ويسر واختصار ، فما هي إلا جملة أو جملتان حتى يرتسم « النموذج الإنساني » شاخصاً من خلال اللمسات ، وينتفض مخلوقاً حياً خالد السمات !

تارة تكون هذه النماذج صورة للجنس الإنساني كله ، وتارة تكون صورة لأفراد منه مكرورين ، وهي في كلتا الحالتين نماذج خالدة ، لا يخطئها الإنسان في كل مجتمع ، وفي كل جيل .

ولقد جاءت هذه الآيات لمناسبات خاصة ، ولرسم نماذج شخصية واقعة . ولكن المعجزة الفنية في التصوير ، جعلت هذه النماذج أبدية خالدة ؛ تتخطى الزمان والمكان ، وتتجاوز القرون والأجيال .

ونحن نستعرض هنا بعض هذه النماذج استعراضاً سريعاً ـ على طريقة عرضها في القرآن ـ وقد أسلفنا بعضاً منها في فصل « التصوير الفني » ومكانها كان في الواقع هناك ، فما هي إلا لمسات الريشة الخالقة في التصوير ؛ ولكنها تمتّ إلى النماذج القصصية بسبب ، لذلك آثرنا أن ننقلها إلى هنا من هناك :

* * *

١ ـ من النماذج الإنسانية التي تصور الجنس كله :

﴿ وإذا مَسَّ الإنسانَ الضَّرّ ، دعانا لجنبه أو قاعِداً أو قائماً ؛ فلمّا كَشَفْنا عنه ضُرَّهُ مرَّ كأنْ لم يدْعنا إلى ضُرٍّ مَسّه ﴾ !

تجتمع لهذا النموذج السريع كل عناصر الصدق النفسي ، والتناسق الفني . فالإنسان هكذا حقّاً : حين يمسّه الضر ، وتتعطل فيه دفعة الحياة ، يتلفت إلى الخلف ، ويتذكر القوّة الكبرى ، ويلجأ عندئذ إليها ؛ فإذا انكشف الضر ، وزالت عوائق الحياة ، انطلقت الحيوية الدافعة في كيانه ، وهاجت دواعي الحياة فيه ، فلبّى دعاءها المستجاب ، و « مرّ » كأن لم يكن بالأمس شيء !

إن الحياة قوة دافعة إلى الأمام ، لا تلتفت أبداً إلى الوراء ، إلا حين يعوقها حاجز عن الجريان .

وأما التناسق الفني فيها فهو في تلك الإطالة في صور الدعوة عند الضر : « دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً » ثم في ذلك الإسراع عند كشف الضر : « مرَّ كأن لم يدعنا إلى ضر مسّه » . إن هاتين الصورتين تمثلان بالضبط وقوف التيار عن الجريان أمام الحاجز القوي ، فقد يطول هذا الوقوف ويطول ؛ فإذا فتح الحاجز تدفق التيار في سرعة ، و « مرّ » كأن لم يقف قبل أصلاً .

يُرسم هذا النموذج مرات كثيرة في القرآن ، ولكنه يُرسم من جوانب مختلفة ، تلتقي عند النقطة الأساسية ، ثم تسير في طرائق شتى . ذلك مثل :

﴿ وإذا أنْعَمْنا على الإنسان أعْرَضَ ونَأَى بجانِبِه ، وإذا مَسَّهُ الشر كانَ يَؤوساً ﴾ أو ﴿ ولَئِنْ أذَقْنا الإنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً ، ثم نَزَعْناها

منه . إنَّهُ لَيَؤوسٌ كَفور . ولئن أذَقْناهُ نعماء بَعدَ ضَرّاء مَسَّتْهُ لَيقولنَّ : ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي . إنَّهُ لَفرِحٌ فَخُورٌ ﴾ أو ﴿ إنَّ الإنسانَ خُلِقَ هَلوعاً . إذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزوعاً ، وإذا مَسَّهُ الخيرُ مَنوعاً ﴾ .

ومثلها كثير في ثنايا القرآن .

وهكذا يصوّر هذا النموذج الخالد من زوايا النفس الإنسانية الكثيرة ، ومن ملابسات حياته المتعارضة . وكلها تلتقي في النهاية عند الحقيقة النفسية الكبرى : الإنسان في قوته ـ على اختلاف مظاهرها وألوانها ـ مندفع إلى الأمام ، مغتر بالقوة مستجيب للحيوية ـ بشتى طرائق الاستجابة ـ حتى يوجد الحاجز ـ على اختلاف أنواع الحواجز ـ فينظر إلى الخلف نظرات متباينات !

٢ ـ ومن النماذج الإنسانية الخاصة : ذلك المخلوق الضعيف العقيدة . يتمسك بعقيدته ما ناله الخير منها ، فإذا أوذي فيها تزعزع وحاد عنها ، مثاله : « ومن الناس من يعبد الله على حرف ... إلخ » ومثاله مع شيء من التحوير :

﴿ ومن الناس من يقول : آمنَّا بالله ، فإذا أُوذِيَ في الله جَعَلَ فِتْنَةَ الناس كعذابِ الله ؛ ولئن جاءَ نَصْرٌ من رَبِّكَ لَيَقولُنَّ : إنَّا كنا معكم ﴾ !

٣ ـ ومن الناس من يعتز بالحق إذا كان من عمله ، فإذا جاء بالحق غيره ، انقلب عليه ، وتنكر له :

﴿ ولما جاءهم كتابٌ من عندِ الله مُصَدِّقٌ لما معهم ـ وكانوا

من قَبْلُ يَسْتَفْتِحون[1] على الذينَ كَفَروا ـ فلما جاءَهم ما عَرَفوا ، كَفَروا به ﴾ !

وقريب من هؤلاء أولئك الذين لا يعرفون إلا مصلحتهم ، ولا يسعون للحق إلا حين تنكشف لهم هذه المصلحة . تلك هي الخطة وهذا هو المبدأ :

﴿ وإذا دَعُوا إلى الله ورَسولِه لِيَحكُمَ بينهم إذا فريقٌ منهم مُعرضون ، وإنْ يَكنْ لهمُ الحق يأتوا إليه مُذْعِنين ﴾ ..!

٤ ـ ومن الناس من ينفر من الحق ، ويكره أن يطلع عليه ، لأن نفسه تجمع المكابرة والضعف جميعاً . المكابرة التي تصد عن الحق ، والضعف الذي لا يستطيع المواجهة :

﴿ يُجادِلونَك في الحَقِّ بعد ما تَبيَّن كأنَّما يُساقون إلى الموت وهم يَنظرون ﴾ !.

٥ ـ وبعضهم ينفر من الحق في هذه الصورة الفريدة :

﴿ فما لهمْ عن التَّذْكِرَةِ مُعْرِضين كأنهم حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ من قَسْوَرَة[1] ﴾ .

وهي صورة حافلة بالحركة ، داعية إلى السخرية .

٦ ـ وكم من النماذج نراها كل يوم فنتلو :

---

(١) يطلبون أن يأتيهم فتح من الله ونصر بنبي يخرج منهم في آخر الزمان .

(١) الأسد .

﴿ وإذا رأيتهم تُعْجِبْكَ أجْسامهم ، وإنْ يَقولوا تَسْمَع لِقَوْلهم كأنَّهُم خُشُبٌ مُسَنَّدَة ﴾ !

إنها لصورة بارعة وسخرية لاذعة .

٧ ـ وهؤلاء الذين لا يفعلون شيئاً « وَيُحِبُّون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا » ! إنهم لكثيرون جداً في كل زمان وفي كل مكان !

٨ ـ وكم من الذين يأكلون على جميع الموائد ، ويتظاهرون بأنهم أولياء كل فريق ، وبأنهم ضروريون لكل فريق :

﴿ الذينَ يَتربَّصونَ بكم ، فإنْ كانَ لكم فَتْحٌ من الله قالوا : أَلَمْ نكُنْ مَعكم ؟ وإنْ كانَ لِلكافرينَ نَصيبٌ قالوا : ألم نَسْتَحْوِذْ عَلَيكم ونَمْنَعكم من المؤمنين ؟ ﴾ !

٩ ـ ونموذج المكابرة العجيبة يتجلى في هذين النصين ـ وقد سبقا في التصوير الفني ـ :

﴿ ولو فَتَحْنا عليهم باباً من السماء فَظَلُّوا فيه يَعرجون ، لقالوا : إنما سُكِّرَتْ أبصارُنا ، بل نحنُ قومٌ مَسْحورون ﴾ . ﴿ وَلوْ نزَّلنا عليكَ كِتاباً في قرطاسٍ فلَمَسوهُ بأيديهم ، لقالَ الذينَ كفَروا : إنْ هذا إلاَّ سِحْرٌ مبين ﴾ !.

١٠ ـ ونموذج الذي يخاف ولا يستحي :

﴿ ولَوْ ترى إذْ وُقفوا على النار ، فقالوا : يا لَيْتنا نُرَدّ ولا نكذبَ بآياتِ رَبّنا ونكونَ من المؤمنين . بل بَدَا لَهُمْ ما كانوا يُخْفون من قبل ؛ ولو رُدّوا لعادوا لما نُهوا عنه ؛ وإنهم لكاذِبون ﴾ !

١١ ـ ونموذج المنافق الضعيف ، الذي لا يقوى على احتمال تبعة الرأي ، ولا يسلم بالحق ، وكل همه ألا يواجه البرهان :

﴿ وإذا ما أُنْزِلَتْ سورةُ نَظَرَ بعضُهُم إلى بعضٍ : هل يراكم من أحدٍ ؟ ثم انصرفوا ﴾ .

وإنك لتكاد تراهم الآن ، وهم ينصرفون متخافتين !

١٢ ـ ونموذج ضعف الهمة وقصر العزيمة واعتياد التخلف وكذب الاعتذار :

﴿ لو كانَ عَرَضاً قريباً وسَفَراً قاصِداً لاتَّبَعوكَ ، ولكن بَعُدَتْ عليهم الشُّقَّةُ ، وسَيَحْلِفونَ بالله ، لو اسْتَطَعْنا لخرجْنا معكم . يُهلِكون أنفسهم . والله يَعلم إنهم لكاذِبون ! ﴾ .

١٣ ـ ومن الناس نموذج يجتمع فيه الخداع والغفلة ، ويظن نفسه أريباً وحشو جلده تغفيل ؛ وإنه ليعمل العمل يظنه يؤذي به غيره ، وهو لا يؤذي به إلا نفسه :

﴿ ومن الناس من يقول : آمَنَّا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، يُخادِعونَ الله والذينَ آمَنوا ، وما يَخْدَعونَ إلاَّ أَنْفُسَهُمْ وما يَشعرون ﴾ !.

١٤ ـ ثم ألا تجد الصنف التالي من الناس في كل مكان ، في عترسة وتبجح وغفلة :

﴿ وإذا قيلَ لهمْ لا تُفْسِدوا في الأرض قالوا : إنما نحنُ مُصْلِحون . ألاَ إنهم هُم المفْسِدون ولكن لا يشعرون ﴾ !

١٥ ـ والنموذج الذي يريد الحياة بأي ثمن ، ويريدها حياة كيفما تكن ، ويحرص عليها حتى ليقبلُ في سبيلها ما لا يقبله ذو شمم :

﴿ ولَتَجِدَنَّهُم أحْرَص الناس على حياة ﴾ .

بهذا التجهيل والتنكير ، وبهذا التحقير والتصغير !

١٦ ـ والجامدون على القديم كأنهم بعض المتحجرات :

﴿ وإذا قيلَ لهم اتَّبِعوا ما أنْزَلَ الله ، قالوا : بَلْ نَتَّبِعُ ما ألْفَينا عليه آباءَنا ؛ أوَلَوْ كانَ آباؤهُم لا يَعْقِلون شيئاً ولا يهتَدون ؟ ﴾ .

١٧ ـ والجماعة المتفرقة التي لا تجمع على رأي ، ولا تحافظ على عهد :

﴿ أوكُلَّما عاهدوا عَهْداً نَبَذَهُ فَريقٌ منهم ؟ ﴾ .

١٨ ـ والذين يجادلون بالحق وبالباطل ، وفيما يعلمون وما لا يعلمون . ألا يضيق بهم الإنسان صدراً في كل مكان :

﴿ ها أنتُم هؤلاء حاجَجْتُم فيما لَكُم به عِلْمٌ فَلِمَ تُحاجُّونَ فيما ليسَ لكم به عِلْم ؟ ﴾ . أو : ﴿ ومنَ الناسِ منْ يُجادِل في الله بغير عِلْمٍ ولا هُدىً ولا كِتاب مُنير . ثانيَ عِطْفه ، ليضل عن سبيل الله ﴾ !

وفي الوصف الأخير يرسم صورة محسوسة لتكبر المتنطع في المجادلة وهو يثني عطفه و « يتقنزح » !

١٩ ـ والذين يتباطأون عن البذل والتضحية في ساعة العسرة ، فإذا أصيب الباذلون بالشر حمدوا لأنفسهم حصافتها ؛ وإن أصابوا

خيراً جزاء جهادهم ندم أصحابنا أو ودّوا لو كانوا بذلوا :

﴿ وإن مِنْكُم لمن لَيُبَطِّئَنَّ . فإنْ أصابَتْكُم مُصِيبَةَ قال : قد أنْعَمَ الله عَليَّ إذْ لم أكُنْ مَعَهُم شَهيداً ، ولئنْ أصابَكُمْ فَضْلٌ من الله ليَقولَنَّ ـ كأن لم تكن بينكم وبينه مَوَدَّةٌ ـ يا لَيْتَني كُنْتُ مَعَهُم فَأَفوزَ فَوْزاً عَظيماً ﴾ .

٢٠ ـ وجماعة من الناس يختلف باطنهم عن ظاهرهم ، حتى لكأنما شخصان في شخص :

﴿ ومِنَ الناسِ مَنْ يُعْجِبْكَ قَوْله في الحياةِ الدُّنيا ويُشْهِدُ اللهَ على ما في قَلْبِهِ ، وهوَ ألَدُّ الخِصام ؛ وإذا تَولَّى سَعَى في الأرض لِيُفْسِدَ فيها ويُهْلِكَ الحَرْثَ والنَّسْلَ . والله لا يُحِبّ الفساد ﴾ .

٢١ ـ والذين لا يعرفون ربهم إلا في ساعة الموت فيتوبوا :

﴿ وليست التوبَةُ للذينَ يَعْمَلونَ السيئات حتى إذا حَضَرَ أحَدَهُم الموتُ قال : إني تُبْتُ الآن ! ﴾ .

٢٢ ـ والأغبياء المغلقون الذين يسمعون وكأنهم لا يسمعون :

﴿ ومنهم مَنْ يَسْتَمِعُ إليكَ حتى إذا خرَجوا من عِنْدِكَ ، قالوا للذينَ أُوتوا العلمَ : ماذا قال آنفاً ؟ ﴾ !

* * *

ولكن في الإنسانية خيراً ، فهي لم تعدم النماذج الطيبة الشجاعة الكريمة الصابرة الباذلة :

٢٣ ـ من هؤلاء :

﴿ الذينَ قالَ لهم الناسُ : إنَّ الناسَ قَدْ جَمَعوا لكم فاخْشوهُمْ . فزادَهم إيماناً ، وقالوا : حسبنا الله ونِعْمَ الوكيل ﴾ .

٢٤ ـ ومنهم : ﴿ للفقراء الذين أحصِروا في سبيل الله ، لا يَسْتَطِيعونَ ضَرْباً في الأرض ، يَحْسَبهم الجاهِلُ أَغْنياء مِنَ التَّعَفُّفِ ، تَعرِفُهُمْ بسيماهُمْ ، لا يَسْألونَ الناسَ إلْحافاً ﴾ .

٢٥ ـ ومنهم : ﴿ المؤمنونَ الذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجلَتْ قُلُوبُهُم ، وإذا تُلِيَتْ عَلَيهم آياتُهُ زادَتهُم إيماناً ، وعلى رَبِّهم يَتوكَّلون ﴾ .

٢٦ ـ ﴿ وعبادُ الرَّحْمنِ الذينَ يَمْشُونَ على الأرْض هَوْناً ، وإذا خَاطَبَهُم الجاهِلونَ قالوا سلاماً ﴾ .

٢٧ ـ والذين ﴿ يُطْعِمونَ الطَّعامَ ـ على حُبِّهِ ـ مِسْكيناً ويتيماً وأسيراً . إنما نُطْعِمُكُم لِوَجْهِ اللهِ لا نُريدُ مِنكُم جَزاءً ولا شُكُوراً ﴾ .

٢٨ ـ وجماعة : ﴿ الصابرينَ الذينَ إذا أصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالوا : إنَّا لِلَّهِ وإنَّا إلَيهِ راجعون ﴾ .

٢٩ ـ وكذلك الذينَ ﴿ يُحبّونَ مَنْ هاجَرَ إليهم ولا يجدونَ في صُدورهِم حاجَةً مما أُوتوا ، ويُؤثِرونَ على أنْفُسِهم ولو كانَ بهم خَصاصَةٌ ﴾ .

٣٠ ـ وجماعة : ﴿ الكاظِمينَ الغَيْظَ والعافينَ عن الناس ... ﴾

وأمثالهم في الإنسانية كثير .

* * *

هذه نماذج أثبتناها هكذا ، متناثرة بغير ترتيب ، تناثرها في أطواء المجتمع في كل زمان ومكان . وقد صوّرها التعبير القرآني شاخصة . لا تخطئها العين في هذه البشرية المتشابهة على ممر الأزمان .

المنطق الوجداني

واجه الإسلامُ ما تواجهه كل دعوة من الإنكار ؛ وجادل عن دعوته من تصدَّوْا لجدالها . ولما كان القرآن هو كتاب هذه الدعوة ، فقد تضمن الكثير من الجدل . فكيف تراه قد جادلهم ؟ أي الوسائل سلك ، وأي الأدلة اختار ؟

قبل أن نجيب عن هذه الأسئلة يجب أن ننظر في المهمة الأولى التي جاء لها القرآن .

لقد جاء القرآن لينشئ عقيدة ضخمة ـ عقيدة التوحيد ـ بين قوم يشركون بالله آلهةً أخرى ، ويكون من العجب العاجب عندهم أن يقول لهم قائل : إن الله واحد :

﴿ أجَعَلَ الآلهةَ إلهاً واحِداً ؟ إن هَذا لَشَيءٌ عُجابٌ ؛ وانْطَلَقَ الملأ منهم : أن امشوا ، واصبروا على آلهتكُم ، إن هذا لَشَيءٌ يُرادُ . ما سَمِعْنا بهذا في المِلَّةِ الآخِرَةِ . إنْ هذا إلاَّ اختِلاق ﴾ !

ولقد ننظر نحن اليوم إلى هذه القضية نظرة أخرى ؛ ولقد نضحك من هذه الطفولة البادية في هذه المقالة ؛ ولكن لا مفرّ من أن ننظر إلى المسألة على وضعها يومذاك ، حيث كان التوحيد يُتلقى بكل هذا العجب في ذلك الزمان .

ولم يكن كل من واجههم القرآن بدعوته من هؤلاء العرب السذَّج المشركين بالله . لقد كان هناك أهل الكتاب . وهؤلاء كانوا يكرهون

أن يأتي دين جديد يعفّي على دينهم ، وينزل على رجل ليس منهم ، ولو كان هذا الدين متفقاً مع دينهم في الأساس :

﴿ وكانوا من قَبْلُ يَسْتَفْتِحونَ على الذينَ كَفَروا . فلما جاءَهُم ما عَرَفوا ، كَفَروا به ... ﴾ .

ويجب أن نلاحظ كذلك أن هذا الإتفاق كان في أصول الدين ، لا في عقائد أهله حينذاك . فهؤلاء اليهود كانوا يقولون : « عُزيْرٌ ابنُ الله » وهؤلاء النصارى كانوا يقولون : « المسيحُ ابن الله » ، وهؤلاء وهؤلاء كانوا يقولون : « نحن أبناء الله وأحباؤه » أو يقولون : « لن تَمسَّنا النارُ إلاّ أياماً معدودات » . كما يحكي القرآن عنهم في شتى المناسبات .

فهؤلاء وأولئك على السواء كانت مهمة الإسلام بالقياس إليهم هي إنشاء عقيدة جديدة في الحقيقة . وعلى هذا وذلك تكون وظيفة القرآن الأولى ، هي إنشاء هذه العقيدة الضخمة . عقيدة التوحيد . على النحو الجديد .

ونقول عقيدة ضخمة ـ وإن كانت تبدو لنا اليوم بديهية أو كالبديهية ـ فليس من السهل على هذه الإنسانية التي تعلقت منذ طفولتها بشتى قوى الطبيعة ، وشتى أطياف المجهول ؛ ولابست حياتها آلافُ الظواهر الخارقة ، وآلاف الوجدانات الباطنة .. أن تتخلى عن هذا الشتيت العميق في ضمائرها ، وأن تهرع إلى إله واحد يسيطر على كل هذه القوى .

وحقيقة إن الإسلام لم يكن أوّل دين يدعو إلى التوحيد . ولكن لقد وجدت الأديان كلها من العنت بسبب دعوة التوحيد مثلما

لاقى الإسلام . على أن التوحيد الذي دعا إليه الإسلام كان توحيداً تجريدياً مطلقاً ، أمعن في التجريد من كل توحيد قبله ؛ فهو أشد معارضة لما وقر في النفوس من التجسيم والتشبيه من كل أديان التوحيد .

كانت وظيفة القرآن إذن أن ينشئ هذه العقيدة الخالصة المجردة . وموطن العقيدة الخالد هو الضمير والوجدان ـ موطن كل عقيدة لا العقيدة الدينية وحدها ـ وأقرب الطرق إلى الضمير هو البداهة ، وأقرب الطرق إلى الوجدان هو الحس . وما الذهن في هذا المجال إلا منفذ واحد من منافذ كثيرة ؛ وليس هو على أية حال أوسع المنافذ ولا أصدقها ولا أقربها طريقاً .

وبعض الناس يكبرون من قيمة هذا الذهن في هذه الأيام ، بعدما فتن الناس بآثار الذهن في المخترعات والمصنوعات والكشوف . وبعض البسطاء من أهل الدين تبهره هذه الفتنة ، فيؤمن بها ويحاول أن يدعم الدين بتطبيق نظرياته على قواعد المنطق الذهني ، أو التجريب العلمي !

إن هؤلاء – في اعتقادي – يرفعون الذهن إلى آفاق فـوق آفاقه . فالذهن الإنساني خليق بأن يدع للمجهول حصته ، وأن يحسب له حسابه . لا يدعو إلى هذا مجرد القداسة الدينية . ولكن يدعو إليه اتساع الآفاق النفسية ، وتفتح منافذ المعرفة . « فالمعقول » في عالم الذهن و« المحسوس » في تجارب العلم ليسا هما كل « المعروف » في عالم النفس . وما العقل الإنساني ـ لا الذهن وحده ـ إلا كوّة واحدة من كوى النفس الكثيرة . ولن يغلق إنسان على نفسه هذه المنافذ ، إلاَّ وفي نفسه ضيق ، وفي قواه انحسار ، لا يصلح بهما للحكم في هذه الشؤون الكبار .

فلندع الذهن يدبر أمر الحياة اليومية الواقعة ، أو يتناول من المسائل ما هو بسبب من هذه الحياة . فأما العقيدة ، فهي في أفقها العالي هناك ، لا يرقى إليه إلا من يسلك سبيل البداهة ، ويهتدي بهدي البصيرة ، ويفتح حسه وقلبه ، لتلقي الأصداء والأضواء .

ولقد آمن بالبداهة والبصيرة ـ وما زال يؤمن ـ العدد الأكبر من المؤمنين بكل دين وعقيدة في الوجود ؛ ولقد ظلَّ علماء الكلام في الإسلام قروناً كثيرة ، يبدئون ويعيدون في الجدل الذهني حول مباحث التوحيد ، فلم يبلغوا بذلك شيئاً مما بلغه المنطق القرآني في بضع سنين . فلننظر الآن في هذا المنطق البديهي الميسور .

* * *

لقد عمد القرآن دائماً إلى لمس البداهة ، وإيقاظ الإحساس ، لينفذ منهما مباشرة إلى البصيرة ، ويتخطاهما إلى الوجدان . وكانت مادته هي المشاهد المحسوسة ، والحوادث المنظورة ، أو المشاهد المشخصة ، والمصائر المصوَّرة . كما كانت مادته هي الحقائق البديهية الخالدة ، التي تتفتح لها البصيرة المستنيرة ، وتدركها الفطرة المستقيمة .

أما طريقته فكانت هي الطريقة العامة : طريقة التصوير والتشخيص ، بالتخييل والتجسيم . على النحو الذي فصَّلناه في الفصول الماضية جميعاً . (ونحن نستخدم هنا كلمة التجسيم بمعناها الفني لا بمعناها الديني بطبيعة الحال . إذ الإسلام هو دين التجريد والتنزيه) .

كان هذا هو المنطق الوجداني الذي جادل به القرآن وناضل ، وكسب المعركة في النهاية .

في هذا المنطق اشتركت الألفاظ المعبرة ، والتعبيرات المصورة ، والصور الشاخصة ، والمشاهد الناطقة ، والقصص الكثيرة ، التي تحدثنا عنها حتى الآن .

وكل ما عرض من مشاهد القيامة وصور النعيم والعذاب ، يعد في جملة هذا المنطق الذي يلمس الحس ، ويوقظ الخيال ، فيلمس البصيرة ، ويوقظ الوجدان ، ويهيىء النفس للاقتناع والإذعان.

ثم سَلَك القرآن غير الصور النفسية والمعنوية ، وغير القصص الكثيرة ، وغير مشاهد القيامة وصور النعيم والعذاب .. سلك غير هذا كله طريق الجدل التصويري في المنطق الوجداني الذي نفرد له هذا الفصل الآن .

وطبيعي إن الذي يهمنا - في هذا البحث - ليس موضوع الجدل ، ولكن طريقة التعبير عنه . فالطريقة التصويرية التي سلكها هي التي تجعله عنصراً من عناصر بحثنا ، إذ الجانب الفني وحده في القرآن هو موضوعنا الوحيد ؛ ولا شأن لنا هنا بما عداه من مباحث القرآن .

* * *

كانت المشكلة الأولى التي واجهها الإسلام ـ كما قلنا ـ هي مشكلة التوحيد مع جماعة تنكر هذا التوحيد أشد الإنكار ، وتعده إحدى الأعاجيب الكبار . فلننظر كيف حاجَّهم في هذه القضية المعقدة .

لقد تناولها ببساطة ويسر ، وخاطب البداهة والبصيرة ، بلا تعقيد كلامي ولا جدل ذهني :

﴿ أم اتَّخَذوا آلهةً من الأرض هُمْ يُنْشَرون ؟ لو كانَ فيهما

آلهةٌ إلا الله لَفَسَدَتا . فَسُبْحانَ الله ربِّ العَرْش عمّا يَصِفون ، لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ، وهُمْ يُسْأَلون . أم اتَّخذوا من دونه آلهةً ؟ قل : هاتوا برهانكم . هذا ذِكْرُ مَنْ مَعيَ وذِكْرُ مَنْ قَبْلي . بل أكثرُهُم لا يَعلمون الحق ، فهم مُعرضون ﴾ .

أو : ﴿ ما اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَد ، وما كانَ مَعه من إله . إذَنْ لَذَهَبَ كُلّ إلهٍ بما خَلَقَ ، ولَعَلاَ بَعضُهُم على بعض ﴾ .

هكذا في بساطة البداهة ، التي لا ترى في السماوات والأرض فساداً ، إنما ترى نظاماً محكماً ، يوحي بأن المدبّر واحد ، قادر عالمٌ حكيمٌ .

وهذه الصورة التي يخيّلها ـ لو كان هناك آلهة ـ « إذنْ لَذَهَبَ كُلُّ إله بما خَلَقَ » وإنها لصورة مضحكة ، أن ينحاز كل فريق من المخلوقات إلى إله ، وأن يأخذ كل إله مخلوقاته ويذهب . إلى أين ؟ لا ندري ؛ ولكننا نتخيّل هذه الصورة فنضحك من فكرة تعدد الآلهة ، إذا كانت نتيجتها هي هذه النتيجة !

ثم ماذا يصنع أولئك الآلهة الآخرون ؟ هذه هي الأرض ، وتلك هي السماء . فما آثارهم هنا أو هناك ؟

﴿ قُلْ : أرَأيْتُم ما تَدْعُونَ من دون الله ؟ أروني ماذا خَلَقوا من الأرض ؟ أم لهم شِرْكٌ في السماوات ؟ إيتوني بكتابٍ من قبل هذا ، أو أثارَةً من عِلْمٍ إنْ كُنتم صادِقِين ﴾ .

ثم هذه صور الخلق ومظاهر القدرة التي تراها الحواس ، وتدركها البديهة ، وتتملاّها البصائر :

﴿ قل : الحَمْدُ لله وسَلامٌ على عبادِهِ الذينَ اصْطَفَى . آللهُ خَيْرٌ أمْ ما يُشْرِكون ؟ أمْ مَنْ خَلَقَ السماواتِ والأرْضَ وأنزَلَ لكم من السماءِ ماء ، فأنْبَتْنا به حَدائِقَ ذاتَ بهجَة ، ما كان لكم أن تُنبتوا شَجَرَها ؟ أإلَهٌ معَ الله ؟ بَلْ هُم قَوْمٌ يَعْدِلون ! أمْ مَنْ جَعَلَ الأرْضَ قراراً ، وجعلَ خلالها أنهاراً ، وجَعَلَ لها رَوَاسيَ ، وجَعَلَ بينَ البَحْرَين حاجزاً ؟ أإلَهٌ مَعَ الله ؟ بَل أكثرهم لا يَعْلَمون ! أم مَنْ يُجيبُ المضْطَرَّ إذا دَعاهُ ، ويَكْشِفُ السُّوء ، ويجعلكُم خُلَفاء الأرض ؟ أإلَهٌ مَعَ الله ؟ قليلاً ما تَذَكَّرونَ ! أمْ مَنْ يَهْديكُم في ظُلُماتِ البَرِّ والبَحْرِ ، ومنْ يُرْسِلُ الرياحَ بُشْراً بَينَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ؟ أإلَهٌ مع الله ؟ تعالى اللهُ عَمّا يُشْرِكونَ ! أمْ مَنْ يَبْدأ الخلق ثُمّ يُعيده ؟ ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ أإلَهٌ مَع الله ؟ قُلْ : هاتوا بُرْهانَكُم إنْ كُنْتُم صادِقين ﴾ .

وهكذا تشترك مشاهد الأرض والسماء ، مع ما يقع لهم من الأحداث كل يوم ، مع الأحاسيس الفطرية التي تُلجئ الإنسان إلى القوّة الكبرى عند الشدة .. تشترك في مخاطبة الحس والخيال ، ولمس البصيرة والوجدان ، لتركيز عقيدة التوحيد في النفوس . ومثل هذا كثير جداً في القرآن ، مكرر ـ مع تنوّعه ـ تكرر صور القيامة ، ومشاهد النعيم والعذاب ، فكلها في الحقيقة منطق وجداني يدخل في هذا الباب .

° ° °

وكانت المشكلة الثانية هي مشكلة البعث واليوم الآخر ، مع

جماعة تقول : « إنْ هيَ إلاّ حياتنا الدنيا ، نموتُ ونَحْيا ، وما نحن بمبعوثينَ » . بل إنها لترى في حكاية البعث من العجب ، أشدّ مما ترى في حكاية الإله الواحد ، إنها لتظن من يقول بهذا القول مجنوناً فما يمكن أن يتحدث بهذا إلا المجانين !

﴿ وقالَ الذينَ كَفَروا : هَل نَدُلُّكم على رَجُلٍ ، يُنبئكم ـ إذا مُزِّقْتُمْ كلّ مُمَزَّق ـ إنَّكُم لَفِي خَلْقٍ جَديد ؟ أفْتَرى على اللهِ كَذِباً ، أمْ بِهِ جِنَّة ؟ ﴾ .

إلى هذا الحد من الغرابة كانوا يتلقون حكاية البعث . فكيف جادلهم في هذا الشأن العجيب ؟!

إنه عرض عليهم صور الخلق الظاهرة الخفية ؛ وبسط لهم نشأة الحياة في الأرض عامة وفي الإنسان خاصة ؛ ليروا أن الذي بدأ الخلق يستطيع أن يعيده :

﴿ أفعَيينا بالخَلْق الأوّل ؟ بل هُمْ في لَبْس من خَلْقٍ جديد ﴾ .

وبطريقة التصوير المعهودة راح يعرض عليهم مشاهد الحياة في الأرض وفي الإنسان :

﴿ قُتِلَ الإنسانُ ! ما أكْفَرَهُ ! مِنْ أيّ شيءٍ خَلَقَهُ ؟ مِن نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ، ثمّ السَّبيلَ يَسَّرَه ، ثم أماتَهُ فأقْبَرَهُ ، ثم إذا شاءَ أنْشَرَه . كَلاّ لَمّا يَقْضِ ما أمَرَهُ . فَلْيَنْظُر الإنسانُ إلى طَعامِهِ : إنّا صَبَبْنا الماءَ صَبّاً ؛ ثم شَقَقْنا الأرْضَ شَقّاً ؛ فأَنْبَتْنا فيها حَبّاً وَعِنَباً

وقَضباً(١) ، وزيتوناً ونخلاً ، وحَدائِقَ غُلباً(٢) . وفاكِهَةً وأبّاً(٣) ؛ متاعاً لكم ولأنْعامِكم ﴾ .

أو :

﴿ يُخرجُ الحَيّ مِن الميّت ، ويخرج الميِّتَ من الحَيّ ؛ ويُحيي الأرضَ بَعْدَ مَوْتِها . وكذلِكَ تُخْرَجونَ . ومن آياتِهِ أنْ خَلَقَكُمْ من تُرابٍ ؛ ثم إذا أنتم بَشَرٌ تَنْتَشِرون . ومِن آياتِهِ أن خَلَقَ لكم من أنفسكم أزواجاً لِتَسْكنوا إليها ؛ وجَعَلَ بينكم مَوَدَّة ورحْمَة . إن في ذٰلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفكَّرون . ومن آياتِهِ خَلْقُ السماوات والأرض ، واختلاف ألْسِنتكم وألوانكم : إنَّ في ذلك لآيات للعالمين ؛ ومن آياتِهِ منامُكُم بالليل والنهار ، وابتِغاؤكُم من فَضْلِهِ . إنَّ في ذٰلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعون . ومن آياتِهِ يُريكُمُ البرقَ خَوْفاً وطَمَعاً ، ويُنَزِّل من السماء ماء ، فيُحْيي به الأرضَ بعدَ مَوْتها . إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لِقوْمٍ يَعقِلون ﴾ .

وهكذا يعرض عليهم في كل مرة مشاهد مألوفة : محسوسة أو معروفة ، تطالع حواسهم في كل لحظة ، وتواجه بديهتهم في كل نظرة ، وتتصل بحياتهم ومعاشهم ، وتلمس شعورهم ووجدانهم ،

---

(١) نباتاً .

(٢) ملتفة .

(٣) مرعى .

وتسلك طريقها هيّنة إلى نفوسهم . وهو يوجههم إلى هذه المشاهد بعرضها عليهم كأنها مشاهد جديدة ـ وإن مشاهد الطبيعة لجديدة أبداً عند من ينظر إليها بحس مرهف وعين مفتوحة ـ دون أن يثير ذلك الجدل الذهني ، الذي قد يعتمد على المهارة ، أكثر مما يعتمد على الحقيقة .

* * *

ولقد يتخطى منطقة الذهن كلها ، ومنطقة الحواس جميعها ، ليتصل مباشرة بمكمن العقيدة ، حيث تتصل النفس مباشرة بالمجهول ، وتجد في غموضه وبعده عن الحس والذهن ملاذاً ومتاعاً مجتمعيْن ! ولكنه حتى في هذا يختار طريقة التصوير والتخييل :

﴿ أَلَمْ تَرَ أنَّ اللهَ يُسَبِّحُ له مَن في السَّماواتِ والأرض ، والطَّير صَافَّات . كُلٌّ قَد عَلِمَ صَلاته وتَسْبيحه ؟ ﴾ .

﴿ تُسَبِّحُ لهُ السَّماوات السَّبع والأرض ، ومَنْ فيهِنَّ ، وإن مِنْ شَيءٍ إلاَّ يُسَبِّح بحَمْدِه ، ولكن لا تَفْقَهونَ تَسْبيحهم ﴾ .

﴿ الذينَ يَحْمِلونَ العَرْش ومن حوله ، يُسَبِّحونَ بحمد ربهم ، ويُؤمِنونَ به ، ويَسْتَغْفِرونَ لِلَّذينَ آمَنوا . رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شيء رَحْمَةً وَعِلْماً . فاغْفِر لِلَّذينَ تابوا واتَّبَعُوا سَبيلك ، وقِهِم عَذاب الجحيم . ربَّنا وأدْخلهم جنَّات عَدْنٍ التي وَعَدْتَهم ، ومَنْ صَلحَ من آبائهم وأزواجهم وذُرّيّاتهم . إنَّكَ أنْتَ العزيز الحكيم . وقِهِم السَّيِّئات ـ ومَنْ تَقِ السَّيِّئات يومَئذٍ فقَدْ رَحِمْته ـ وذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

وهكذا يوقع هذا التصوير والتخييل في النفس ، تلك الرهبة التي تحسها أمام المجهول ، وتلك اللذة التي تستشعرها وهي تجول في ذلك العالم الخفيّ حيث :

﴿ الذينَ يَحْمِلونَ العرْش ومن حوله يُسَبِّحونَ بحَمْدِ ربهم .. ويَسْتَغْفِرونَ للَّذينَ آمَنوا ﴾ وحيث : ﴿ تُسَبِّح له السماوات السَّبْع والأرض ومن فيهن ﴾ .

وقد لا يكون الغيب هكذا بعيداً . لقد يكون محسوساً ، ولكنه مجهول ؛ فهو كذلك يلمس الوجدان ، ويثبت القدرة الكونية ، ويملأ النفس بالإيمان :

﴿ إنَّ الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السَّماء . هو الذي يُصَوِّركُم في الأرحام كيفَ يَشاء ﴾ .

فهذا دليل العلم بكل خفيّ . وهو دليل وجداني واقع ، لا يكد الذهن في فهمه وتخريجه .

ومثل هذا في محيط أوسع . وبتصوير أروع :

﴿ وعنده مفاتحُ الغَيْبِ . لا يَعْلَمها إلاَّ هُو . ويَعْلَم ما في البر والبحر ، وما تَسْقط من وَرَقَةٍ إلاَّ يَعْلَمها ، ولا حَبَّةٍ في ظُلُماتِ الأرض ولا رَطِب ولا يابس ، إلاَّ في كِتابٍ مُبينٍ ﴾ .

في هذه الكلمات القلائل ، تعبير قوي رهيب عن شمول علم الإله ، مختار له أفضل الألفاظ المعبِّرة ، والعبارات المصوِّرة . فليس مجرَّد تعبير عن معنى العلم الدقيق الشامل أن يقال : « وما

تسقط من ورقة إلا يعلمها» . «ولا حبَّة في ظلمات الأرض» . «ولا رطب ولا يابس» . إنما هي صورة تخييلية مدهشة . وإن الخيال ليرود آفاق الدنيا كلها ، ومجاهلها جميعاً ، ليتتبع هذه الأوراق الساقطة ، وتلك الحبات المخبوءة المشمولة في مجاهلها ومخابئها بعلم الله ؛ ثم يرتد إلى النفس ، فيغمرها بالجلال والخشوع ، ويتوجه بها إلى الله الذي يشمل بعلمه هذه المجاهل والآفاق .

* * *

ذلك هو المنطق الوجداني ، والجدل التصويري . فأين منه ذلك الجدل الذهني الذي ظل علماء الكلام يبدئون فيه ويعيدون قروناً من الزمان ؟

نضرب هنا مثلاً واحداً من الجدل الذهني الذي عزَف عنه القرآن . ذلك حين قال : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون » أو ما هو مثلها في المعنى . فوجد المشركون من العرب في هذا مجالاً لجدل ذهني رخيص ظنوا أنهم يحرجون به محمداً مع أهل الكتاب . قالوا : وعيسى ابن مريم ؟ هؤلاء جماعة من قومه يؤلِّهونه . أيدخل جهنم هو الآخر ؟

فكان الرد الحكيم : « ما ضربوه لك إلا جدلاً . بل هم قومٌ خصمون » .

فهذا مثل من المنطق الذهني . صحيح من وجهة قواعد المنطق . ولكن أين هو من المنطق السليم ، ومن الحقيقة الطبيعية البسيطة ؟

لم يكن المنطق الذهني ليصل إلى شيء لو اتبعه القرآن ؛ لا لأن ما فيه من حقائق لا تثبت لهذا المنطق ؛ ولكن لأن العقيدة لا ينشئها هذا الجدل . إنها دائماً في أفق أعلى من هذه الآفاق . وما

يعيب العقيدة أن يكون عمل الذهن فيها محدوداً . فما الذهن إلا قوّة صغيرة محدودة ، تتعلّق باليوميات ، وما هو بسبب من اليوميات .

* * *

لقد لمس القرآن الوجدان ؛ واتّبع في ذلك طريقة التصوير ؛ فبلغ الغاية بمادته وطريقته ، وجمع بين الغرض الديني والغرض الفني ، من أقربْ طريق ومن أرفع طريق .

طريقة القرآن

يخلص لنا من جميع المباحث السابقة ، أن للقرآن طريقة موحدة في التعبير ؛ يتخذها في أداء جميع الأغراض على السواء ، حتى أغراض البرهنة والجدل . تلك هي طريقة التصوير التشخيصي بوساطة التخييل والتجسيم .

فلننظر الآن في تقويم هذه الطريقة ، من حيث هي طريقة فنية من طرق الأداء ـ وذلك هو مجال بحثنا في هذا الكتاب ـ فالأهداف الدينية التي جاء القرآن لتحقيقها ، والموضوعات الإلهية والتشريعية التي تناولها ... كل أولئك مباحث ليست من همنا هنا ؛ وإذا كان بعضها قد جاء عرضاً في ثنايا الفصول الماضية ، فإنما جئنا به لننظر كيف تناوله القرآن ، وكيف سلك في التعبير عنه .

وبعض الناس حين ينظر في هذه الموضوعات ، ويرى ما فيها من دقة وعظمة ، وصلاحية ومرونة ، وإحاطة وشمول ، يحسبها ميزة القرآن الكبرى ، ويحسب أن طريقة التعبير القرآنية تابعة لها ، وأن الإعجاز كله كامن فيها ؛ كما أن بعضهم يفرق بين المعاني وطريقة الأداء ، ويتحدث عن إعجاز القرآن في كل منهما على انفراد .

أما نحن فنريد أن نقول : إن الطريقة التي اتبعها القرآن في التعبير ، هي التي أبرزت هذه الأغراض والموضوعات ؛ فهي كفاء

هذه الأغراض والموضوعات .

ولا يردنا هذا إلى تلك المباحث العقيمة حول اللفظ والمعنى ـ وقد استغرقت من النقاد العرب ما استغرقت منذ أن أثارها الجاحظ ، فزعم أن المعاني ملقاة على قارعة الطريق ؛ ثم تابعه في البحث ابن قتيبة وقدّامة وأبو هلال العسكري وغيرهم مخالفين ومؤيدين ـ وإنّا لنحسب أن « عبد القاهر » قد وصل فيها إلى رأي حاسم حين انتهى في « دلائل الإعجاز » إلى أن اللفظ وحده ، لا يتصور عاقل أن يدور حوله بحث من حيث هو لفظ . إنما من حيث دلالته يدور البحث فيه . وأن المعنى وحده لا يتصور عاقل أن يدور حوله بحث من حيث هو خاطر في الضمير . إنما من حيث أنه ممثل في لفظ يدور البحث فيه . وأن المعنى مقيَّد في تحديده بالنظم الذي يؤدى به ، فلا يمكن أن يختلف النظمان ، ثم يتحد المعنى تمام الاتحاد .

لم يصغ « عبد القاهر » القضية هذه الصياغة المختصرة ، فنحن نترجم عنه ؛ وإلا فقد استغرق فيها كتاباً لا نستطيع نقله هنا ، ولا نقل فقرات منه كالتي نقلناها في أول هذا الكتاب ، بذلك الأسلوب المعقَّد الذي رأيناه هناك .

ولكن له فضله العظيم في تقرير هذه القضية . ولو خطا خطوة واحدة في التعبير الحاسم عنها ، لبلغ الذروة في النقد الفني . فنقول نحن عنه : إن طريقة الأداء حاسمة في تصوير المعنى ؛ وإنه حيثما اختلفت طريقتان للتعبير عن المعنى الواحد اختلفت صورتا هذا المعنى في النفس والذهن . وبذلك تربط المعاني وطرق الأداء ربطاً لا يجوز الحديث بعده عن المعاني والألفاظ ، كل على انفراد .

فلن يبرز المعنى الواحد إلا في صورة واحدة ؛ فإذا تغيَّرت الصورة تغيَّر المعنى بمقدارها . وقد لا يتأثر المعنى الذهني العام في ذاته ، ولكن صورته في النفس والذهن تتغيَّر ، وهي المعوّل عليها في الفن ـ إذ التعبير في الفن للتأثير ـ فإذا اختلف الأثر الناشئ عنه ، فالمعنى المنقول مختلف بلا مراء !

وننتهي من هذا البيان ، إلى فضل الطريقة التصويرية في القرآن . فهذه الطريقة هي التي جعلت للمعاني والأغراض والموضوعات القرآنية ، صورتها التي نراها ، ومن هذه الصورة كانت قيمتها الكبرى . فهي في هذه الصورة غيرها في أية صورة أخرى . كما أسلفنا .

ونحب أن نزيد المسألة إيضاحاً بالنماذج ، وإن كانت قد تفرقت في ثنايا الكتاب ، وتفرق التعليق عليها في مواضعها بما يفيد مزية الطريقة القرآنية فيها ؛ ولكننا هنا في معرض التلخيص الأخير ، ولدينا من النماذج الكثير .

* * *

لقد كانت السمة الأولى للتعبير القرآني هي اتباع طريقة تصوير المعاني الذهنية والحالات النفسية ، وإبرازها في صور حسيَّة ، والسير على طريقة تصوير المشاهد الطبيعية ، والحوادث الماضية ، والقصص المروية ، والأمثال القصصية ، ومشاهد القيامة ، وصور النعيم والعذاب ، والنماذج الإنسانية .. كأنها كلها حاضرة شاخصة . بالتخييل الحسي الذي يفعمها بالحركة المتخيلة .

فما فضل هذه الطريقة على الطريقة الأخرى ، التي تنقل المعاني والحالات النفسية في صورتها الذهنية التجريدية ؛ وتنقل الحوادث

والقصص أخباراً مروية ؛ وتعبر عن المشاهد والمناظر تعبيراً لفظيّاً ، لا تصويراً تخييليّاً ؟

يكفي لبيان هذا الفضل ، أن نتصور هذه المعاني كلها في صورتها التجريدية ، وأن نتصورها بعد ذلك في الهيئة الأخرى التشخيصية :

إن المعاني في الطريقة الأولى تخاطب الذهن والوعي ، وتصل إليهما مجرّدة من ظلالها الجميلة . وفي الطريقة الثانية تخاطب الحس والوجدان ، وتصل إلى النفس ، من منافذ شتى : من الحواس بالتخييل . ومن الحس عن طريق الحواس ، ومن الوجدان المنفعل بالأصداء والأضواء . ويكون الذهن منفذاً واحداً من منافذها الكثيرة إلى النفس ، لا منفذها المفرد الوحيد .

ولهذه الطريقة فضلها ولا شك في أداء الدعوة لكل عقيدة ؛ ولكننا إنما ننظر إليها هنا من الوجهة الفنية البحتة . وإن لها من هذه الوجهة لشأناً . فوظيفة الفن الأولى هي إثارة الانفعالات الوجدانية ؛ وإشاعة اللذة الفنية بهذه الإثارة ، وإجاشة الحياة الكامنة بهذه الانفعالات ، وتغذية الخيال بالصور لتحقيق هذا جميعه .. وكل أولئك تكفله طريقة التصوير والتشخيص للفن الجميل : وإليك المثال فوق ما ضربنا من أمثال :

١ ـ معنى النفور الشديد من دعوة الإيمان يُنقل إليك في صورته التجريدية هكذا : إنهم لينفرون أشد النفرة من دعوة الإيمان . فيتملى الذهن وحده معنى النفور في برود وسكون .

ثم ينقل إليك في هذه الصورة العجيبة : « فما لهم عن التذكِرَة مُعرضين كأنهم حمر مستنفرة ؛ فرَّتْ من قَسْوَرَة ؟ » فتشترك مع

الذهن حاسة النظر ، وملكة الخيال ، وانفعال السخرية ، وشعور الجمال : السخرية من هؤلاء الذين يفرون كما تفرّ حمر الوحش من الأسد ، لا لشيء إلاّ لأنهم يُدْعَوْن إلى الإيمان ! والجمال الذي يرتسم في حركة الصورة حينما يتملاها الخيال في إطار من الطبيعة ، تشرد فيه هذه الحمر يتبعها « قسورة » المرهوب !

فللتعبير هنا ظلال حوله ، تزيد في مساحته النفسية ـ إذا صحّ هذا التعبير !

٢ ـ ومعنى عجز الآلهة التي كان العرب يعبدونها من دون الله ، يمكن أن يؤدَّى في عدة تعبيرات ذهنية مجرَّدة ، كأن يقال : إن ما تعبدون من دون الله لأعجز عن خلق أحقر الأشياء . فيصل المعنى إلى الذهن مجرداً باهتاً .

ولكن التعبير التصويري يؤديه في هذه الصورة :

﴿ إنَّ الذينَ تَدْعونَ من دون الله لن يخلقوا ذُباباً ، ولو اجْتَمَعوا له ، وإن يسلُبْهُم الذُّباب شيئاً لا يَسْتَنْقِذوه منه . ضَعُفَ الطالب والمطلوب ﴾ !

فيشخص هذا المعنى ويبرز في تلك الصور المتحركة المتعاقبة :

« لن يخلقوا ذباباً » هذه درجة . « ولو اجتمعوا له » وهذه أخرى . « وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذونه منه » وهذه ثالثة ... أرأيت إلى تصوير الضعف المزري ، وإلى التدرج في تصويره ، بما يثير في النفس السخرية اللاذعة ، والاحتقار المهين ؟

ولكن . أهذه مبالغة ؟ وهل البلاغة فيها هذا الغلوّ ؟

كلا ! فهذه حقيقة واقعة بسيطة . إن هؤلاء الآلهة « لن يخلقوا

ذباباً ولو اجتمعوا له » والذباب صغير حقير ؛ ولكن الإعجاز في خلقه هو الإعجاز في خلق الجمل والفيل . إنها معجزة « الحياة » يستوي فيها الجسيم والهزيل . فليست المعجزة في صميمها هي خلق الهائل من الأحياء . إنما هي خلق الخليَّة الصغيرة كالهباء .

ولكن الإبداع الفني هنا هو في عرض هذه الحقيقة في صورة تلقّي ظلال الضعف عن خلق أحقر الأشياء ؛ والجمال الفني هنا هو في تلك الظلال التي تضفيها محتويات الصورة ، وفي الحركة التخييلية في محاولة الخلق ، وفي التجمع له ، ثم في محاولة الطيران خلف الذباب لاستنقاذ ما يسلبه ، وهم وأتباعهم عاجزون عن هذا الاستنقاذ !

٣ ـ ويعبِّر عن حالة تخلي الأولياء عن أوليائهم أمام هول القيامة بهذه الصيغة التجريدية : لقد تناكر الأصفياء ، وتنابز الأولياء ، وتخلى المتبوعون عن التابعين حينما شاهدوا الهول يوم الدين . فيكون من أدق التعبيرات التي تُصاغ . ولكن أين هذا التعبير الذهني من هذا الاستعراض المفعم بالحياة :

﴿ وبرزوا للهِ جَميعاً . فقالَ الضُّعَفاء لِلَّذينَ اسْتَكبَروا : إنَّا كُنَّا لَكُم تبعاً ، فهل أنتم مُغْنونَ عَنَّا من عَذابِ اللهِ من شيء ؟ قالوا : لَوْ هَدانا اللهُ لهدَيْناكُم . سواء عَلَينا أجَزِعْنا أمْ صَبَرْنا ما لَنَا من مَحيصٍ . وقالَ الشيطان لَمَّا قُضِيَ الأمْرُ : إنَّ اللهَ وَعَدَكُم وعْدَ الحقِّ ، ووعَدْتكم فأخْلَفْتكم ، وما كانَ لي عَلَيكم من سُلْطان إلاَّ أن دَعَوتكم فاسْتَجَبْتُم لي ؛ فلا تَلوموني ولوموا أنْفُسكم ؛ ما أنا بمصرخكم ، وما أنتم بمصْرخي : إنِّي كَفَرْتُ بما أشْركتموني من

قبل . إن الظالمينَ لهم عذابٌ أليم ﴾ .

في هذا الاستعراض يتجسَّم للخيال مشهد من ثلاث فرق :

الضعفاء . الذين كانوا ذيولاً للأقوياء وهم ما يزالون في ضعفهم ، وقصر عقولهم ، وخور نفوسهم . يلجأون إلى الذين استكبروا في الدنيا ، يسألونهم الخلاص من هذا الموقف ، ويعتبون عليهم إغواءهم في الحياة ؛ متمشين في هذا مع طبيعتهم الهزيلة وضعفهم المعروف .

والذين استكبروا . وقد ذلت كبرياؤهم ، وواجهوا مصيرهم . وهم ضيّقو الصدور بهؤلاء الضعفاء ، الذين لا يكفيهم ما يرونهم فيه من ذلة وعذاب ، فيسألونهم الخلاص ، وهم لا يملكون لذات أنفسهم خلاصاً ، أو يذكرونهم بجريمة إغوائهم لهم حيث لا تنفع الذكرى . فما يزيدون على أن يقولوا لهم في سأم وضيق : « لو هدانا الله لهديناكم » !

والشيطان . بكل ما في شخصيته من مراوغة ومغالطة ، واستهتار وتبجح ، ومكر « وشيطنة » . يعترف لأتباعه ـ الآن فقط ـ بأن الله وعدهم وعد الحق ، وأنه هو وعدهم فأخلفهم . ثم يمضّهم ويؤلمهم ، وهو ينفض يديه من تبعاتهم :

﴿ وما كانَ لي عَلَيْكُم من سُلطان إلاَّ أن دَعَوتكم فاسْتَجَبْتم لي ، فلا تَلوموني ولوموا أنْفُسكم ﴾ .

لا بل يزيد في تبجّحه ، فيقول :

﴿ إنيِّ كَفَرْتُ بما أشركتمون من قبل ﴾ .

حقاً . إنه لشيطان !

وإن هذا لإبداع في تصوير الموقف الفريد ، الذي يتخلى فيه التابع عن المتبوع ، ويتنكر المتبوع للتابع ، حيث لا يجدي أحداً منهم أن يتخلى أو يستمسك ؛ ولكنها طبيعة كل فريق ، تبرز عارية أمام الهول العظيم .

وإن الشيطان هنا لمنطقيّ مع نفسه ، ومع الصورة التي يرسمها القرآن له . وإلا فما يكون شيطاناً بغير هذه التلاعب والتبجح والإنكار !

وهكذا تصل إلى النفس تلك الأصداء كلها ، وتلك الظلال جميعها ، من وراء التعبير المصور المشخص . فأين يقع التعبير الذهني ، من هذا التصوير الفني ؟

٤ ـ ويقال : إن أعمال الذين كفروا لا حساب لها ولا وزن ، وأنهم يخدعون أنفسهم حين يظنونها شيئاً ؛ أو أنهم في ضلال دائم ، لا مخرج لهم منه ، ولا هادي لهم فيه . فيؤدي المعنى إلى الذهن حيث يركد هناك .

ولكنه يحيا ويتحرك ، ويجيش به الحس والخيال ، حين يؤدَّى في هذه الهيئة التصويرية :

﴿ والذينَ كفَروا ، أعمالهم كسراب بقِيعة ، يَحسَبُهُ الظمآن ماء ، حتى إذا جاءَهُ لم يَجدهُ شَيئاً ؛ ووجَدَ اللهَ عِنده ، فوفاهُ حِسابه ، والله سريع الحساب .

﴿ أو كَظُلُماتٍ في بَحرٍ لُجّيٍّ ، يَغْشَاهُ مَوجٌ ، من فَوْقه مَوْجٌ ، من فَوْقِهِ سَحَاب . ظُلُماتٌ بَعضها فوق بَعض ، إذا أخرَجَ يَدَه لم يَكَد يراها . ومَنْ لم يجعل الله له نوراً ، فما له من نور ﴾ .

هنا صور فنية ساحرة ، فيها روح القصة ، وفيها تخييل قوي ...

وهي بعد في حاجة إلى ريشة مبدعة ، لو أريد تصويرها بالألوان ، وإلى عدسة يقظة ، لو أريد تصويرها بالحركات .

بل أين هي الريشة ، أو أين هي العدسة ، التي تستطيع أن تبرز هذه الظلمات :

﴿ في بَحْرٍ لُجيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ، ظلماتٌ بعضُها فَوْقَ بَعْضٍ إذا أَخْرَجَ يَدَهُ لمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ ؟

أو تصور الظمآن ، يسير وراء السراب « حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً » ووجد مفاجأة عجيبة ـ لم تكد تخطر له على بال ـ « وجد الله عنده » وفي سرعة خاطفة تناوله « فوفاه حسابه » ؟

فإذا ذكرنا الغرض الديني الذي رسمت له هذه الصورة ، فلنذكر معه المتاع الفني الطريف ، في هذا التصوير الحي الجميل .

٥ ـ ومن هذا الوادي تصوير معنى الضلال بعد الهدى ، وضياع الجهد معه سدى ، تلك الصور الحية المتتابعة :

﴿ أولئكَ الذينَ اشْتَروا الضَّلالَةَ بالهدى ، فما رَبحَتْ تِجارَتهم ، وما كانوا مُهْتَدين . مَثَلهم كَمَثَلِ الذي اسْتَوْقَدَ ناراً ، فلمَّا أضاءتْ ما حَوْله ذَهَبَ الله بنُورِهِمْ ؛ وتركَهُم في ظُلُماتٍ لا يبصِرون ، صُمٌّ بُكْمٌ عمْيٌ فَهُم لا يَرْجِعون .

﴿ أو كَصَيِّبٍ منَ السَّماءِ فيهِ ظُلُمات ورَعْدٌ وَبَرْق ، يجعَلونَ أصابعهم في آذانهم من الصَّواعِق حَذَرَ الموت ، والله مُحيطٌ بالكافرين . يكاد البَرْق يخطف أبصَارَهُمْ ، كلَّما أضاء لهم مَشوا

فيهِ ؛ وإذا أظْلَمَ عليهم قاموا ؛ ولو شاءَ اللهُ لذَهَبَ بِسَمعِهِم وأبْصارهِم . إنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قَدير ﴾ .

إن هنا حشداً من الصور المتتابعة في شريط متحرك : هؤلاء هم قد أوقدوا النار فأضاءت . وفجأة يذهب الله بنورهم ، ويخيم حولهم الظلام .. أو ها هي ذي العاصفة : صَيِّبٌ من السماء فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرق . وهؤلاء هم مذعورون يتوقعون الصاعقة ، ويخافون الموت ، فيجعلون أصابعهم في آذانهم ؛ وما تغني الأصابع في الآذان ؛ ولكنها حركة الغريزة في هذا الأوان . وها هو ذا البرق يخطف البصر ، ولكنه ينير الطريق لحظة ، فهم يخطون على ضوئه خطوة . وها هو ذا ينقطع فيظلون واقفين ، لا يدرون كيف يخطون ...

لو سجلت عدسة الصور المتحركة مشهداً كهذا ، بما فيه من الحركة والتتابع ، لكانت موفقة كل التوفيق . فكيف والمنظر هنا تسجله الألفاظ ، فلا تنقص منه حركة واحدة تستطيع عدسة الصور المتحركة إثباتها ؟ لا بل تتيح للنفس متعة أشهى ، بأن تدع للخيال عملاً ؛ وهو يرسم الصور ويمحوها ؛ ويصنع الحركات ويتبعها ؛ ويرسم الظلال ويشهدها . والنفس تجيش ، والوجدان ينفعل ، والقلب يسرع في النبضات ، تحت تأثير ماذا ؟ تحت تأثير الكلمات !

* * *

ومن تمام القول في طريقة القرآن التصويرية أن نجمل هنا ما تفرق في مواضع مختلفة في الكتاب عن الحياة التي يبثها التعبير في التصوير ، فهي سمة بارزة فيه ، تحدد نوع التصوير ومستواه .

إن المعاني الذهنية والحالات المعنوية ، لم تستبدل بها صور

فحسب ؛ ولكن اختيرت لها صور حيّة ، وقيست بمقاييس حيّة . ومرت من خلال وسط حي[1] .

فهول الساعة العظيم يصور في ذهول المرضعات عما أرضعن ، وتخلي الحاملات عن حملهن ، وترنح السكارى وما هم بسكارى ؛ ويقاس بمدى فعل الهول في هذه النفوس الآدمية ، لا بالألفاظ والأوصاف التجريدية .

أو يصوّر في فرار المرء من أخيه وأمه وأبيه ، وفصيلته التي تؤويه . حيث يكون « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » . فهو يقاس بأثره في النفس الإنسانية لا بالمقاييس الأخرى الوصفية .

فإذا اشتركت الجوامد في تصوير هذا الهول خلعت عليها الحياة أو أشرك معها الأحياء : « يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً » فهي حية ترتجف كالآدميين . أو « فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً . السماء منفطر به » فالسماء المنفطرة بجوارها الأطفال الشيب ...

وهول الطوفان يصوَّر في الطبيعة ، وإلى جانبها يُصور في والد وولده : ذلك ناج في السفينة ملهوف على فلذة كبده ، وهذا يجرفه الطوفان حيث : « لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم » . وإن الهول هنا ليكاد يكون أعظم من الهول في الطبيعة : « وهي تجري بهم في موج كالجبال » فما كان الموج في المشهد إلا إطاراً للهول النفسي الذي يفرّق بين الابن وأبيه ، ويفصم الصلة التي لا تفصمها الأهوال !

---

(١) كان للأستاذ العقاد فضل توجيهي إلى إفراد هذه السمة القرآنية بالإشارة ، بعد ما ورد منها في ثنايا الكتاب من أمثلة متفرقة .

وآلام العذاب الشديد في الآخرة ، تبدو من خلال صرخات إنسانية ، تلقي ظلها من خلال التعبير :

﴿ ونادوا : يا مالك لِيَقْضِ علينا رَبّك . قال : إنَّكم ماكثون ﴾ .

﴿ وهم يَصْطَرِخون فيها ﴾ .

ووخزات الخزي في هذا اليوم ، لا توصف بالألفاظ ، ولكن تبرز من وسط آدمي حيّ :

﴿ ولَوْ تَرى إذ وُقفوا على رَبهم . قال : أليْسَ هذا بالحقّ ؟ قالوا : بلى وربّنا ! قال فذوقوا العذابَ بما كنتم تكْفرون ﴾ .

وصرخات الندم يهتف بها لسان إنسان ، يندم بعد فوات الأوان :

﴿ ويَوْم يَعَضُّ الظالِمُ على يَدَيهِ يقول : يا لَيْتَني اتَّخَذْتُ مع الرَّسول سَبيلاً . يا ويلَتا لَيْتَني لم أتَّخِذ فُلاناً خَليلاً ... ﴾

وتسرب الإيمان نراه من خلال نفس بشرية في قصة إبراهيم :

﴿ فلمّا جَنَّ عليه الليل رأى كوْكَباً قالَ هذا ربيٍّ : فلما أفل قال : لا أحب الآفلين ... ﴾ .

والحض على الجهاد يأتي في تصوير موقف المؤمنين والكافرين :

﴿ ولا تهنوا في ابْتِغاءِ القوم . إنْ تكونوا تألمون فإنهم يألمونَ كما تألمون ؛ وترجونَ من الله ما لا يَرجون ﴾ .

وهو تصوير يفرق بين حقيقة الموقفين تفرقة حاسمة في بضع

كلمات ، ويقيس الفوارق بنفوس الفريقين وما ينتظرهما من مآل .

ولا نعود إلى استعراض ما استعرضنا من الصور في شتى الفصول ؛ فحسبنا هذا القدر لبيان نوع التصوير القرآني ، وتوضيح معنى الحياة في هذا التصوير . الحياة التي تنقل الأثر من الحس إلى أعماق النفس ، لأنها تنتقل من كائن حي ، إلى كائن حي ، في وسط حي ، فتتغلغل في أعماق الضمير من خلال التعبير والتصوير .

* * *

وسمة ثالثة في تعبير القرآن :

إن هذه الريشة المبدعة ما مسّت جامداً إلا نبض بالحياة ، ولا عرضت مألوفاً إلا بدا جديداً . وتلك قدرة قادرة ، ومعجزة ساحرة ، كسائر معجزات الحياة !

الصبح مشهد مألوف مكرور ، ولكنه في تعبير القرآن حي لم تشهده من قبل عينان . إنه « الصبح إذا تنفس » .

والليل آنٌ من الزمان معهود ، ولكنه في تعبير القرآن حي جديد « والليل إذا يَسْرِ » . وهو يطلب النهار في سباق جبّار « يُغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً » .

والظل ظاهرة تشهد وتعرف ، ولكنه في تعبير القرآن نفس تحس وتتصرف : « وظلٍّ من يحموم لا بارد ولا كريم » .

والجدار بنية جامدة كالجلمود ، ولكنه في تعبير القرآن يحس ويريد : « فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضَّ فأقامه ! » .

والطير بِنيَة حية ولكنها مألوفة لا تلفت الإنسان . أما في تعبير القرآن فمشهد رائع يثير الجنان :

﴿ أَوَلَمْ يَروا إلى الطير فوقهم صافات ويَقبضن . ما يمسكهنَّ إلاَّ الرَّحمن ﴾ .

والأرض والسماء ، والشمس والقمر . والجبال والوديان . والدور العامرة . والآثار الداثرة . والنبات والحيوان . والأشجار والأفنان ... كل أولئك أحياء . أو مشاهد تخاطب الأحياء . فليس هناك جامد ولا ميت بين الجوامد والأشياء !

* * *

تلك طريقة القرآن . وإنها لفن قائم وحده إزاء المعاني والأغراض . وهو في أفقه الرفيع ، كفاء تلك المعاني ، وصنو هذه الأغراض .

الطبعة الثالثة
من
هذا الكتاب

منذ سبعة أعوام صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب . وأحمد الله على أن صادفه التوفيق ، فقوبل من الأوساط الأدبية والعلمية والدينية على السواء مقابلة طيبة . إن دلَّت على شيء ، فإنما تدل على أن الدين لا يقف في طريق البحوث الفنية والعلمية التي تتناول مقدساته تناولاً طليقاً من كل قيد . وعلى أن البحوث الفنية والعلمية لا تصدم الدين ولا تخدشه حينما تخلص فيها النيَّة ، وتتجرد من الحذلقة والادِّعاء . وأن حرية الفكر لا تعني حتماً مجافاة الدين ، كما يفهم بعض المقلدين في التحرر ، حين يرون الجفوة بين الدين والفن والعلم في أوروبا لظروف تاريخية خاصة بالقوم هناك ؛ فينقلونه نقلاً إلى العالم الإسلامي ، الذي لم تقع الجفوة بين الدين والعلم والفن فيه في يوم من أيام التاريخ !

هذه الظاهرة يهمني تسجيلها هنا بمناسبة الطبعة الثالثة لهذا الكتاب .

* * *

وظاهرة أخرى يهمني تسجيلها كذلك عن « طريقة التصوير في التعبير » وهل هي القاعدة الأولى في أسلوب القرآن ؟

وهذا السؤال قد أجبت عنه في مقدمة كتاب « مشاهد القيامة في القرآن » في هذه السطور :

« هذه القضية لديّ كل ما يؤكدها من الإحصاء الدقيق لنصوص القرآن . فالقصة ، ومشاهد القيامة ، والنماذج الإنسانية ، والمنطق الوجداني في القرآن ، مضافاً إليها تصوير الحالات النفسية ، وتشخيص المعاني الذهنية ، وتمثيل بعض الوقائع التي عاصرت الدعوة المحمدية ... تؤلف على التقريب أكثر من ثلاثة أرباع القرآن من ناحية الكم . وكلها تستخدم طريقة التصوير في التعبير . فلا يستثنى من هذه الطريقة إلا مواضع التشريع ، وبعض مواضع الجدل ، وقليل من الأغراض الأخرى التي تقتضي طريقة التقرير الذهني المجرد . وهي على كل حال محصورة فيما يوازي ربع القرآن .

« فليس هنالك من شطط حين أقول : إن التصوير هو الأداة المفضّلة في أسلوب القرآن .

« وإذا وفّقني الله فأصدرت الحلقات التالية من هذه المكتبة ـ مكتبة القرآن ـ وهي « القصة بين التوراة والقرآن » و « النماذج الإنسانية في القرآن » و « المنطق الوجداني في القرآن » و « أساليب العرض الفني في القرآن » فسيجد الناس مصداق هذه القضية بين أيديهم ، وتستريح إليها ضمائرهم ، كما استراح إليها ضميري » .

وإنه ليسرني أن أعلم أن هذا الكتاب كان لفتة إلى طريقة التصوير في التعبير القرآني ؛ أتاحت للكثيرين من دارسي القرآن ، ومن أساتذة المدارس أن يجدوا سمة التصوير الفنية في مواضع كثيرة لم ترِد في كتابي ؛ وأن يستروحوا فيها جمالاً فنيّاً خالصاً يستخلصونه بأنفسهم ، ويلتذونه بشعورهم ، ويطبقونه على الشعر والنثر الفني في غير القرآن .

وليس بالقليل أن يشعر كاتب أن الطريقة التي اهتدى إليها

في إدراك الجمال الفني صارت ملكاً للكثيرين . فإنها لسعادة روحية أرى أن أفصح عنها تحدثاً بنعمة الله .

* * *

وبهذه المناسبة أرى أن هناك إيضاحاً واجباً ينبغي أن يقال ، بعد ما بدأت كلمة « الفن » يساء استخدامها ، أو يساء فهمها ، أو يساء تأويلها في مجال القرآن .

وإني لأعترف بأنني حين اتخذت عنوان : « التصوير الفني في القرآن » لهذا الكتاب منذ سبع سنوات ، لم يكن لها في نفسي إلا مدلول واحد : هو جمال العرض ، وتنسيق الأداء ، وبراعة الإخراج . ولم يجل في خاطري قط أن « الفني » بالقياس إلى القرآن معناه : الملفق ، أو المخترع ، أو القائم على مجرد الخيال ! ذلك أن دراستي الطويلة للقرآن لم يكن فيها ما يلجئني إلى هذا الفهم أو هذا التأويل .

وأنا أجهر بهذه الحقيقة الأخيرة ، وأجهر معها بأنني لم أخضع في هذا لعقيدة دينية تغل فكري عن الفهم ؛ بل دفعني إليها أنني لم أجد مبرراً لسواها ؛ وعلى العكس وجدت أن احترام العقل البشري ذاته هو الذي يحتم عليَّ ألا أتجاوز به طاقته ، وألا أجدف به في مجاهيل ، ليس عليها لديَّ من دليل !

وإني لأعجب لم تنصرف كلمة « الفني » حتماً إلى الخيال الملفق ، والابتداع الذي لا يسنده الواقع ، والاختراع الذي يخرج على المعقول ؟

لماذا ؟

ألا يمكن أن تعرض الحقائق الواقعة عرضاً فنياً وعرضاً علميّاً ؛

ثم تبقى لها في الحالتين صفتها الأساسية من الصدق والواقعية ؟

ألأن « هوميروس » كان يصوغ إلياذته وأوذيسته من الأساطير ؟

ألأن كتاب الرواية والأقصوصة والتمثيلية في أوروبا لم يكونوا يتوخون الوقائع الحقيقية في فنهم الطليق ؟

إن هذا فن . ولكنه ليس الفن كله . فالحقيقة تصلح أن تُعرض عرضاً فنياً كاملاً . وليس من العسير أن نتصور هذا ، متى خلصنا لحظة من « العقلية المترجمة » التي نعيش بها ، ومتى خلصنا تصورنا من النماذج الغربية البحتة ، ونظرنا إلى الاصطلاحات نظرة موضوعية شاملة .

إن تحرر العقل لا يستدعي حتماً التهجم والتوقع والشطط ؛ ولنجرد القرآن من كل قداسة دينية ، ثم لننظر إليه كمصدر تاريخي بحت . فماذا نجد ؟ نجد أننا لا نملك كتاباً آخر ، لا أثراً تاريخياً آخر في تاريخ البشرية كلها ، توافرت له أسباب التحقيق العلمي البحتة ، كما توافرت لهذا الكتاب .

وبديهي أننا لا نملك في إثبات صحة الحوادث التي تحدث بها القرآن أو عدم صحتها إلا وسيلتين اثنتين . ولكن واحدة منهما ليست قطعية ، وليس لها من قوة الثبوت ما للقرآن .

إحدى الوسيلتين اللتين في أيدينا : الأسانيد التاريخية الأخرى . فإذا نحن جرَّدنا القرآن من قداسته ـ كما قلت ـ فإنه ككتاب تاريخي ، يكون أقوى إسناداً من الوجهة العلمية البحتة من كل مرجع تاريخي آخر في الوجود ... راوي هذا الكتاب هو « محمد ابن عبد الله » وهو رجل يعترف خصومه قديماً وحديثاً بأنه رجل صادق ، ولا يشذ على هذا إلا شذاذ أفاكون متعصبون ! وقد

جمع هذا الكتاب بطريقة علمية لا يطعن فيها أحد ، حتى السادة المستشرقون الذين يؤمن بهم عندنا من لا يحبون أن يؤمنوا بالأديان !

ومثل هذا التحقيق العلمي لم يتهيأ لكتاب آخر ، لا من الكتب المقدسة ، ولا من الكتب التاريخية ؛ ولا من الآثار التاريخية أيضاً ؛ فالكتب المقدسة الأخرى ، قد انقضت فترات طويلة بين حياة أصحابها وعصر تدوينها ، ولم ترو بالإسناد الذي روي به القرآن . والكتب التاريخية والآثار التاريخية لا ترتفع فوق مستوى الشبهات . وليست هناك حادثة تاريخية واحدة في تاريخ البشرية تعد يقينية يقيناً علمياً خالصاً .

إذن لا تجوز محاكمة القرآن ـ ككتاب تاريخي بحت ـ إلى أي كتاب تاريخي آخر ، أو أي سند تاريخي ، ليس له من قوة الثبوت ما لكتاب القرآن .

والوسيلة الأخرى التي بين أيدينا هي العقل . ولست أتردد في التصريح بأن احترام العقل البشري ذاته ، يوجب عليه أن يفسح للمجهول مجاله ، وأن يحسب له حسابه . لا عن طريق الإيمان الديني ، ولكن عن طريق التفكير العقلي . وإن العقل البشري ليسقط احترامه حين يدَّعي أنه يعلم كل شيء . وهو لا يعلم نفسه ، ولا يدري كيف يدرك المدركات !

وليس في هذا إنكار للفكر الإنساني وحريته ؛ ولكن فيه احتراماً لهذا الفكر ، بمعرفة قدره ومجاله .

وإذا كان رجال الدين في أوروبا ـ لا الدين ذاته ـ قد وقفوا في طريق حرية البحث العلمي ـ حتى في العالم المادي ـ فنشأت عداوة جارفة بين رجال الفكر ورجال الدين ، فلا يجوز أبداً أن

نقل الموضوع برمته إلى الشرق ، وإلى الإسلام ، فيكون مظهر حرية الفكر الوحيد عندنا ، هو التهجم والتقحم ، بلا سند إلا هذا السند الذي يتجاوز دائرته . فهذا نفسه هو التقليد المعيب ، الذي يدل على أن حرية الفكر هذه زي من أزياء « المودة » نقلده تقليد القرود !

* * *

وبعد فلست أنكر أن صعوبات اعترضت طريقي ، وأنا أبحث موضوع « القصة في القرآن » و « مشاهد القيامة في القرآن » .

أهذا كله مسوق على أنه حاصل واقع ؟ أم إن بعضه مسوق على أنه صور وأمثال ؟

ووقفت طويلاً أمام هذه الصعوبات . ولكنني لم أجد بين يدي حقيقة واحدة من حقائق التاريخ أو حقائق التفكير ، أطمئن إلى يقينيتها وقطعيتها ، فأحاكم القرآن إليها . وما كان يجوز لديّ أن أحاكم القرآن إلى ظن أو ترجيح .

لم أكن في هذه الوقفة رجل دين تصده العقيدة البحتة عن البحث الطليق . بل كنت رجل فكر يحترم فكره عن التجديف والتلفيق .

فإذا وجد سواي هذه الحقيقة التي يحاكم إليها القرآن ، فأنا على استعداد أن أستمع إليه ، في هدوء واطمئنان . أما قبل أن توجد ، فإنه يكون من الخفة والطيش ، إن لم يكن من احتقار « الفكر » وتعريضه للمهانة ـ أن يقضي الإنسان برأي ، يكذّب به هذا الكتاب ، ولو لم يكن له نصيب من عقيدة أو دين .

الفن في القرآن : إبداع في العرض ، وجمال في التنسيق ، وقوة في الأداء . وشيء من هذا كله لا يقتضي أنه يعتمد على الخيال والتلفيق والاختراع . متى استقامت النفوس وصحت الأفهام !

سيد قطب

المحتويات

الصفحة

رقم الإيداع : ٧٦٣٤ / ٨٨

ترقيم دولى : ٥ ـ ٢٨١ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)